النهش
شيرين هنائي

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

العنوان: النهش.
المؤلف: شيرين هنائي.
الناشر: كتوبيا للنشر والتوزيع.
الطبعة الأولى: 2026
رقم الإيداع: 2025-34784
الترقيم الدولي: 978-633-8418-06-9
الفهرسة: 1 - القصص العربية.
أ- النهش.
813

للتواصل

+ 201005432405

kotopia

info@kotopia.org

العنوان: 14 شارع أبو نواس - ميامي - الإسكندرية - مصر

يمكنكم طلب إصداراتنا عبر متجر كتوبيا الإلكتروني
https://kotopia.store

جميع الحقوق محفوظة © كتوبيا للنشر والتوزيع

يمنع منعا باتًا الاقتباس أو إعادة النشر سواء بالطباعة أو النشر الإلكتروني أو التصوير الضوئي للمحتوى أو أي جزء منه إلا بإذن كتابي من الناشر

ART_OF_BOOK

إهداء

أنا وأنت، وبضعة حيوانات طيبة، وأكواب قهوة وموسيقى لا تنتهي... ثم على الدنيا السلام.

إلى زوجي الحبيب؛ ملاذي وَقت النهش.

@ART_OF_BOOK

هنِهرَب من النَّهاردَه ونِهرَب من المَكان...

ياسر

585 كيلو مترًا.

رحلة تمتد لأكثر من سبع ساعات.

أركب السيارة الميكروباص من شرق البَندَر؛ قلب مدينة أسوان، وأجري كالنزيف من عروق المدنيَّة والمألوف.

تجري إلى جواري البيوت والمحلَّات والمستشفيات، والصيدليات والأراضي الزراعية على الطريق، أو أجري أنا منها؛ أفِرُّ... أُنفَى.

ننعطف عند مزلقان كيما، لنسير بمحاذاة شريط القطار، فأوقِن أنني حقًّا أغادر، وأنني لا أحلم.

ندخل طريق العَلَاقي.. أنا أتجه جنوبًا وغربًا على غير ما حلمت به طَوال حياتي. لو أنني سافرت شمالًا المسافة ذاتها من أسوان إلى حلايب لوصلت إلى حدود الجيزة؛ المدينة والوَعد والأمل.

لكنني أنزف من شريان أسوان وأسيل إلى كَعب الأرض المُتَشَقِّق الشَّقيَان. أتسرب بين شقوقه التي يقولون: إنها طريق أسوان حلايب. ما هي إلا شقوق في كعب كُتِب عليه أن يواجه الأرض أبدًا، كُتِب عليه أن يُسحَق ويُداس.

@ART_OF_BOOK

عن يميني ويساري تكوينات جيولوجية بلا اسم. هذا هو منفى مَن تُسَوِّل له نَفسُه اختلاس قضمة من رغيف الكِبار. العُمال معي في الميكروباص غير مبالين، بل إن بعضهم متحمس للعمل في المباني التي تُنشئها شركة المقاولات الهندسية التي نعمل فيها؛ لأن «فلوسها حِلوة»، وكل فلوس خارج القرية حلوة بشكل أو بآخر. حتى أنا عشت حياتي أفكر في حلاوة فلوس «مصر»، مثلي كمثل أي قَرَوِي جاهل يركب خلفي.

السائق أيضًا من أبناء أسوان، ويحلو له السفر في شقوق الكعب هذه على أن يعمل في المدينة. فلوسها حلوة وللغُربة هيبَة لا تُنكَر أيضًا.

أسأله وأنا أفرد الشمَّاسة على زجاج النافذة المجاورة:

- كم بقي لنا حتى نصل؟

- تَخَاطِيف. ساعة مثلًا.

فات الكثير ولم يتبقَّ إلا القليل.. للأسف.

- هذه أول مرَّة لكَ هنا يا باشمهندس؟ سنقف في مَرسَى حميرة لنستريح قليلًا ونشرب الجَبَنة أولًا و...

- لا أريد، شكرًا.

- كلنا يقف هناك. آخر مكان في عَمَار الشلاتين قبل أن ندخل حلايب.

لا بد أنه يبالغ. الشلاتين قرية كأي قرية كما بدت لي من الطريق، ولا بد أن أبا رماد

مشابهة. لا يمكن أن يسوء الأمر أكثر. أُغمِض عينَيَّ اللتين ألهبهما الغبار الكثيف على الطريق، والذي يتماوج على سطحه الأسفلتي كأنني أسافر في حلم مسطول أثقَل في التعاطي. أشعر بالسيارة تبطئ ثم تتوقف. ماذا الآن؟! أفتح عينَيَّ لأرى قطيعًا بلا أول ولا آخر من الجِمال والماشية والأغنام يعبر الطريق. منذ متى يعبر وإلى متى سيستمر عبوره؟ الله أعلم.

لا أرى مع القطيع إلا عِدَّة كلاب وحَمِير، وراعيًا واحدًا يقف أمام السيارة، لا يفصل بيني وبينه إلا الواجهة والمِسبَحَة المتدليَّة من المرآة الأمامية كبندول. الرجل داكن السمرة لا أرى سوى عينيه المُتجمدتين وسط الغبار الذي يثيره القطيع. أسأل السائق:

- ألا يمكن أن يوقفهم لنمر ثم يكمل مسيرته؟

- حمَّاد يسير على مزاجه. دعه يمر. لِمَ العَجَلة؟ لا يصل أحد قبل موعده يا باشمهندس.

يتحاشى السائق النظر إلى الراعي كأنه قلِق. الرجال في المرآة خلفي لا يكترثون، إلا أنني ألمح رجلين ممَّن اعتادا العمل في المنطقة يتهامسان وهما ينظران إليه.

القطيع لا ينتهي وكأنه ينبع من سحابة الغبار أو من التِّباب على جانب الطريق. رائحة الماشية تثير معدتي.

المسبحة تتأرجَح وتَتِك.. تِتِك.. تِتِك...

لا أعرف متى بالضبط صِرنا وسط القطيع، يمر من أمامنا وخلفنا وحولنا. يمر جَمل

قرب نافذتي المغلقة، يقرب رأسه ببطء شديد، ينظر لي بعينيه المكوَّرتين الجاحظتين، ثم يحرك شفتيه بدفع الهواء من حَلقِه وينثر اللعاب على الزجاج فأجفُل، ثم أتمالك نفسي. إن الراعي ينظر لي بعد. ينظر لنا جميعًا بشكل ما.

وتتأرجح السيارة على مساعدَيْها إثر ارتطام بهيمة ما بنا، ثم تتأرجح أكثر مرة أخرى، والمسبحة تتأرجح بعنف أكبر.. تِتِك تِك تِك تِك..

تحجب أعناق الجِمال الطويلة والغبار شيئًا من نور النهار، فيزداد إحساسي بأنني في كابوس. كابوس شخص سَكِر « طِينَة» بخمر رديء، فقَلَبَ معه بنَكَد.

المرآة الجانبية تُصدِر صوتَ طقطقة عنيفة، لا بد أنها خُلِعَت. يتمتم السائق: « خير.. خير..»

بارِد! بارد والدم يغلي في عروقي ويطهو أحشائي! يكفي هذا. أمُد يدي أضغط نفير السيارة، فيُبعِد السائق يدِي عنه في خشونة ويصيح:

- أبعِد يدك! دَعه يمر في سلام، لا تؤذِه ولا يؤذينا.

أفتح باب السيارة وأترجَّل وسط احتجاج السائق والراكبين. إن روحي في أنفي ولن أمضي اليوم هنا. أقف أمام الراعي فتلفحني رائحته المقيتة، لا ليست رائحة مواشي، بل ألعَن. أهتف:

- أوقف هذه البهائم ودعنا نمر، أمامنا يوم طويل.

ينظر لي الراعي ولا يرُدُّ. أتأمل عمامته البيضاء وشعره الخشن المنفوش من تحتها،

@ART_OF_BOOK

وجلبابه الأبيض مفتوح الصدر، والصديري الذي يُخفي مَقبِضَيْ خِنجرين يربطهما حول خصره. يضرب الراعي مقدمة السيارة بعصاه مرتين وينظر لها ثم لي. هل هو أبكَم؟!

أشعر بيد تمتد من خلفي تجذبني، وصوت أحد الركاب يطلب مني الركوب والانتظار. لا يُحَل الرباط بين عينَيَّ وعينيه إلا عندما ألمَح شيئًا بجانب عيني؛ جَدي يجُرُّ شيئًا بفمه، شيئًا داميًا... جزءًا من حيوان آخر؟

أتحرك بضع خطوات تجاه الجَدي، فيجذبني مَن يجذبني مرة أخرى. أُبعِد يده عني وأقترب خطوتين مما رأيتُ، لكن الجدي يختفى وسط الزحام والغبار.

أتراجع إلى السيارة وأنا أنظر في تحدٍ إلى الراعي، وهو ينظر لي كتمثال مُصمَت. بعد دقائق ينتهى عبور القطيع، وتتحرك السيارة أخيرًا ببطء في البداية، فأرى كومَة محمرَّة على جانب الطريق، ثم تُسرع السيارة منطلقة إلى المنفى فلا أستطع أن أتبيَّن أكثر.

***

ART OF BOOK
@ART_OF_BOOK

يَلَّا بينا تعالوا.. نِسيب اليوم فى حاله

وكل واحد مِنا يِركب حصان خياله

دِرِجِن درجن درجن درجن

هنهرب من النهارده.. ونهرب من المكان

ونطير ونطير ..

نطير مع نسمة شاردة ونروح لأيام زمان

***

دي إيه؟ دي مدبغة علشان صنع الجلود

ودي إيه؟ دي مصبغة علشان صبغ الجلود

لكن ورا الصباغة والألوان والدباغة

فيه جِلد كان جَمَل، وجِلد كان حَمَل

وأهه كله بيتعمل جزمة وحزام وشنطة

فيه جِلد مالهش لون وجلد بألف لون

لو تغسله بصابون يطلع لونه أونطة

سيبك م المدبغة وصباغة المصبغة سيبك

وبص بص شوف، شوف الناس والظروف

يمكن تلقى الديابة لابسة فروة خروف

يمكن تلقى الغلابة في أول الصفوف

دِرِجِن درجن

سيد حجاب

***

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

دِرِجِن.. دِرِجِن!

صوفيَّة...

تبدأ أي رواية بخط يفصل بين الواقع...

والخيال.

تمامًا كالأفق الذي يفصل بين السماء والأرض، إلا أن سماءنا رمادية ملوثة بالكِمِتريل والعوادم وما عَلَق فيها من آثام البشر في رحلة صعودها إلى السموات. وأرضنا سَبِخة بلا نخلة ولا شجرة، ماء نتِن فوق رمال وطين لا تُنبِت شيئًا سوى الشحناء والمَقت.

لِنَشدَّ إذًا خطًّا بين ذلك الواقع...

وبين الخيال. وندعو الله ألا يتداعَى هذا الخط أو يتقوَّس فيسحقنا تحته.

أو يسحقني أنا، فأنا التي ستكتب فصلًا جديدًا من مسيرتها المُخزِيَة في الكتابة. كتاباتي ليست مُخزِيَة، بل المسيرة نفسها طبعًا، لذا لا بد أن أكمِل.. والآن قبل غد.

لو تحرَّكت قليلًا لأفرِد ساقي الخدِرة، لانهارَ المقعد الخشبي تحتي، ولغصتُ في رمال الشاطئ المبتلَّة. المدُّ قد يصل إلى الأكواخ - أُسَمِّيها أكواخًا أو عِشَشًا،

ART_OF_BOOK

يسمونها مُعتَكَفَ كتابة- ليُكمل سطور فقرة النَّحس التي بدأت منذ شهر، من يوم غادرت بيتي لأول مرة في رحلة طويلة إلى الشمال، ثم إلى الجنوب وصولًا إلى مرسى حميرة.

كنت أشاهد صور الكاتبات في معتكفات الكتابة المُقامة في الخليج أو الأردن أو حتى أوروبا، وأتمنى لو يرسل لي أحدٌ دَعوة. ما كنت لأُلبيها قبل عام، لكن معناها سيكون أكبر من مجرد دعوة. دعوة قبول وَسط آخرين، يعتبرهم المشهد الثقافي «كريمة الثقافة»، و «صائدي الجوائز»، و«أصحاب الكتابة الماتِعة المائِزَة». أعرف أن كتاباتي ماتِعة مائزة، لكنني لا أُشبههم مهما تشبَّهت بهم. أنا ابنة الجيران، صاحبة الدُّمَى التي يلعب بها الجميع، ولا يريدون مشاركتها اللعب.

لماذا؟ لا أعرف.

لا أصل إلى تفسير مهما اجتهدتُ وشَطَحت بخيالي السَّام.

لن أفرد ساقَيَّ، بعد قليل لن أشعر بهما.

أُكمِل رسم الخطوط الأفقية واحدًا تلو الآخر عساني أجد بداية للرواية التي جئت أكتبها.

ميكيل يأتي من خلفي، ويمشي ببطء نحو البحر. الشمس الغارِبة تجعله «سلويتًا» أسود، لكن في وجود شمس أو لا، بشرة ميكيل أسوَد من أي لون بشرة رأيتها من قبل، مع أنه صومالي ولم يتوغَّل في الـ «الأفرَقَة» إلى هذا الحَد.

@ART_OF_BOOK

أو هكذا فكرتي عن الأفارِقة...

يقف على الشاطئ والماء يغمر منتصف قَصَبة ساقِه، ويرفع رأسه ينظر إلى النوارس القريبة التي تَحُوم على ارتفاع قليل. تقترب من الشاطئ، ثم تدور وتعود إلى داخل البحر بضعة مئات من الأمتار، ثم تقترب مجددًا. لي هنا ساعتان تقريبًا ولا تنفك تكرر هذا السلوك الذي أراه لأول مرة كما أرى كل شيء بالفعل لأول مرة.

كل شيء جديد، كل شيء يوحي لي ببداية جديدة، فلماذا لا أتستطيع أن أكتب؟

ثم أرسم خطًّا...

سأكتب عن ميكيل..

لا أعرف مَن هو تحديدًا ولم أكلمه من قبل مع أنه يقوم بأغلب العمل الشاق في المُعتَكَف، لكن لنركب حصان الخيال.. دِرِجِن، دِرِجِن..

ميكيل؛ سوداني أو نوبي، ميكيل مُنحَدِر من سلالة من الكهنة أو رعاة الطقوس القديمة لقبائل البِجَا أو الدَناقِل، يحفظ لغة الحيوان والأرض والسماء.

ميكيل؛ مهاجر غير شرعي كان في طريقه إلى أوروبا، وغرقت سفينته، ونجا بمعجزة، ومن يومها عاش على السواحل متخفيًا.

ميكيل؛ ليس بشريًّا، بل هجين من البشر والدلافين السوداء، يعيش بين سحابات

النوارس أحيانًا، لذا يراقبها بهذا الشغف، وينحني من وقت لآخر يراقب الماء.

الموج غريب، مع انعدام خلفيتي عن حركة الأمواج الطبيعية وعن كل شيء تقريبًا سوى الكتابة، لكنني أعرف أن الماء لا يتحرك بهذه الطريقة عمومًا. ما أكَّد لي شَكِّي أن ميكيل متصلِّب منذ دقائق يرنو إلى الموج الذي يتراجع في نقاط بعينها، فيما يفترش الأرض في باقي المواضع بطريقة عاديَّة.

ليتفكَّك المقعد إذًا، لن أكتب في يومي هذا على ما أعتقد، ولو جلست أكثر متحاشيةً فَرَدَ ساقَيَّ سأندم لاحقًا. أي شخص جاوز الخمسين سيندم على أي ثَنْي أو فَرد غير محسوب لمفاصله.

أقوم، أمشي على ساق والأخرى مجرد امتداد لجسدي لا أشعر به. أضع الدفتر الصغير في جيبي وأنسى أن أضع خطًّا تحت الأسطر القليلة التي كتبتها.

أمشي والخَدَر ينسحب أمام مَدِّ الألم. لو لم أرسم خطًّا بعد ما كتبته اليوم، سيسيل ويغرق بياض الصفحات الواعِدة التالية. ستصير روايتي كلها لطخة من حبر قَلم «بيج» أزرق رخيص.

- ميكيل، هل تتكلم الإنجليزية؟

لم أسمَع منه إلا بضع كلمات إنجليزية طوال فترة إقامتي، فلربما لا يعرف منها ما يسمح لنا بتبادل الحكايات. يلتفُّ نحوي وعيناه بعد على الأمواج، ويقول باسمًا:

- أتكلم العربية أيضًا لو هذا أفضل لكِ.

@ART_OF_BOOK

لُكنته جميلة، ويبدو أن مفرداته محدودة لكنها تكفي. لا يحتاج المرء إلى مُعجم لغوي ليُعَبِّر عن نفسه.

- إلامَ تنظر؟

- الموج. قضيت أغلب عمري في البحر، ورأيت مثله كثيرًا... في البحر الأحمر. لكن ليس كما هو الآن.

الموج يتحاشى الاقتراب فعلًا من مواضع معينة، ولا أرى عوائق تمنع ذلك.

- إذًا هي ظاهرة طبيعية زادت فقط على الحَد. لا يلاحظ أحد اللحظة الفارقة بين الطبيعي والغريب.

لو لم نرسم خطًّا، ونبني سدًّا، سيختلط الطبيعي بالغريب، ولن نلاحظ إلا متأخرًا..

ربما بعد الخَمسين.

لكنَّ أنفي حساس للروائح، لذا أشم رائحة الصدأ والـ«زفَارة» الدموية قبل أن ألاحظ خيوط الدم في الماء. أتراجع في اشمئزاز، فتخونني ساقي الخَدِرة وتخونني الأرض، فأسقط جالسة. يهرع ميكيل نحوي ويمد يده ليساعدني على النهوض. أحدق إلى يده السمراء واللَّفتة العفويَّة، وأعي الفترة التي لم يلمسني فيها بشري. أشهر؟ سنوات؟ أضحك ارتباكًا وربما حزنًا، وتنفلت مني بضع قطرات من البول. أي امرأة جاوزَت الخمسين ستندم لو ضحكت بقوَّة في مكان عام. لكن سروالي ابتَلَّ على أي حال ولن يلاحظ أحدٌ، خاصة مع غروب الشمس.

أتكئ على ذراع ميكيل- وضع مُخجِل- ونمشي عائدَيْن إلى العشش؛ التي هي مزيج من البناء الحجري والقش والبوص وما وإلى ذلك من كَراكِيب يستعملونها لإضفاء طابع البوهيميَّة الذي يسحر السائحين والـــ «مُستاحين» على حد سواء. لكنني لا هذا ولا ذاك، وهذه عشش، لا معسكر أو مُعتَكَف، وقد شربت مقلّبًا لن أحكي عنه لأحد.

يعلو صوت النَّوارس أكثر، ويقول لي ميكيل وهو يفتح مدخل الشيء الذي نقيم فيه:

- المفترض أن تحط النوارس على الشاطئ بعد غياب الشمس. منذ أيام وهي تطير ليلًا. أنتِ كاتبة. سأحكي لكِ قصة..

ندخل؛ نجلس على المقاعد الخشبية ذات الوسائد في الداخل. الإضاءة خافتة، نابعة من مصابيح صفراء خلف المزيد من البوص الملفوف كأنه أباجورة بوهيميَّة مفتعلة ككل شيء آخر.

- يقولون: إن النوارس، أو الكُنيت كما نطلق عليها، أرواح بحَّارة غارقين.

- هل هي أرواح غاضبة؟

- لا أعرف. بماذا ستشعرين لو غرقتِ؟

- بالراحة.

أتفقَّد هاتفي المحمول لعلَّه التقط رسالة من إدريس؛ ابني. يبدو أنه ما زال غاضبًا حتى بعد مرور شهرٍ من شجارنا، وحتى مع عشرات الفيديوهات التي أرسلتُها له من حفلات توقيعي في المحافظات المختلفة. أعرف أنها أيضًا فيديوهات مخزية؛ إذ لم

يحضر أحد أغلب الحفلات، لكني ظننتها ستكسر الجليد بيننا حتى لو بشجار آخر.

يأتي سليمان عبد الرازق ليجلس معنا هو وهبة البخيت. كفاني ما رأيت من الجميع خلال الأيام الأربعة الماضية، ولا أريد رؤية أحد الآن وإلا تذكرتُ المقلَب. يبدو أن جلوس ميكيل معنا غيرُ مناسب من وجهة نظرهما؛ إذ أمره سليمان بصنع قهوة للجميع، وتجهيز غرفة « العصف الذهني» وتشغيل المَرَاوِح لعلها تطرد شيئًا من حَر أغسطس.

لعلها تطرد رائحة الدم من أنفي. أنفي الذي اعتاد على النزف ثلاث مرات في الأسبوع على الأقل، حتى صارت حساسيته لرائحة الدم أكبر من حساسية قرش.

- ماذا كتبتِ اليوم يا أستاذة صوفيا؟

- صوفيَّة، أو صفيَّة كما ينادونني. لم أكتب شيئًا. لم أعتَد على المكان بعد.

تقول هبة وهي تفتح لاب توب صغير مقشر الطلاء عند الحواف وتقرأ علينا ما كتبَتْه من غَوْص في المشاعر الدفينة التي لا تهم أحد سواها؛ لكن يبدو أن سليمان مهتم. إن كان هذا ما يبحثون عنه في جائزة بريزما فلا سبب عندي للبقاء هنا سوى انتظار أن يُعِيدوني بالأوتوبيس إلى القاهرة.

يأتي ميكيل بالقهوة الأمريكية؛ إذ لا يشرب أحد هنا الـ«جَبَنة» التي يصنعها ميكيل على الحطب أحيانًا. ربما أعتبر هذه القهوة العطرة برائحة الزنجبيل هي المَعلَم الوحيد الحقيقي هنا.

غير البحر، والسماء، وبينهما خط.

يفتح ميكيل نافذة غرفة الـ«أيًّا كان ما يسميها سليمان»، فأرى الخط بين السماء والماء قد زال أخيرًا وحلَّ الليل فجأة بعد دقائق من الغروب.

ربما هو تأثير الإضاءة مع الظلام بالخارج.

الظلام، فيما عدا نقاط بيضاء لا تهمد. النوارس... الكُنيت.. أرواح البحَّارة الهائمة.

يصرخ ميكيل صرخة مكتومة وهو يغطي وجهه بذراعه؛ إذ دخلت إحدى تلك النقاط البيضاء من النافذة، أو لنقُل اقتحمتها، ثم دارت حول الحوائط لترتطم بكل شيء ممكن، وتكسر مصباحًا.

يصيح النورس وهو يمطرنا بالريش وقطرات الدم. تصرخ هبة وتجري إلى الغرف الداخلية، فيما يحاول سليمان إحاطتي بذراعيه ليحميني- هذا اللَّزِج- فأبعده وأختبئ دون تفكير خلف المقعد.

أخيرًا يرتطم الطائر بعمود ويسقط وسط القاعة الضيقة، يرفرف للحظات ثم يهمُد. أخرج من مخبئي، ويقترب سليمان وهو يرتجف، ويحاول إخفاء رجفته بمِشية متبخترة متصابية لا تليق بعمره. ينحني على الطائر، لكن ميكيل يهتف به بالإنجليزية (التي يبدو أنه يرتديها درعًا هنا):

- انتظر. سأجلب مكنسة وجاروفًا.

لكن سليمان يمد قدمه داخل خُفٍ جلدي مفتوح ليحرك الطائر لسبب غير محدد، ربما لإثبات أنه لا يخاف أو أنه شديد الذكورة. ينتفض الطائر، ثم يُطبق منقاره على

إصبعه الأوسط البارز.

يفقد سليمان وقاره هذه المرة ويركل بجنون وهو يحاول تمزيق جناحي النورس، لا إبعاد جسد الطائر نفسه. يعود ميكيل بسرعة، ويهوي على الشيء الأبيض الدامي بالمكنسة عدة مرات حتى يهمُد.

يرتمي عضو لجنة التحكيم في جائزة بريزما الموقرة على الأريكة، ويمسك قدمه وهو يسُب النورس وميكيل، ويضرب وعاء زينة على طاولة إلى جواره فيهشمه. هذه بداية نوبة غضب. لا بد أن أتراجع وأحتمي بشيء. أتحسس أنفي لا شعوريًّا وأنا أقف خلف العمود الذي قتل النورس فأراحه.

يخرج كل مَن في الحجرات مترددين في البداية، ثم يتجمعون حوله مع مدير العشة؛ المعتكَف، الذي اعتذر ووَلوَل ومسح عرقه وتوتَّر وبحث عن موبايل فلم يجد تغطية شبكة، و...

وميكيل يطل من المدخل ويطيل النظر، ثم يقول:

- الأفضل أن نغلق النوافذ الليلة. الأفضل ألا يخرج أحد.

أسأله عن السبب، فيجيب أن المَدَّ قوي، والنوارس مهتاجة، والموج غريب الشكل. يقول رامي؛ الشاعر الـ « وَسَط بَلَدي» الذي قرر خوض تجربة كتابة الرواية فجأة بعدما جاوز منتصف العمر:

- سمعت عن تصاعد فقاعات غار الميثان في البحر الأحمر وما يفعله بشكل

@ART_OF_BOOK

الأمواج. أعتقد أن هذا طبيعي.

فتجيبه نوارة الراشد، كأنها في إحدى ندوات صالونها الثقافي الذي لا يرتاده أحد:

- وما المشكلة؟ هذه كلها مصادر وحي وإلهام. لو كنا نرغب في مكان آمِن لا يجدُّ فيه جديدٌ، فلماذا جئنا؟

جئنا يا مدام نوارة؛ لأننا دُعينا فيما لم يَدعُنا أحدٌ من مستوى أفضل. جئنا؛ لأن ضمن الموجودين عضوُ لجنةِ تحكيمٍ نعرف جميعًا أنه يحب التزلُّف وبعض الأمور الأخرى التي لا تبرع فيها سوى النساء- وقليل من الذكور- وهذه مغامرة كافية للوصول إلى القائمة الطويلة، أو حتى للحصول على دعوة لحضور حفل توزيع الجوائز الذي هو فرصة أفضل للتعرف على مَن هم أهم بكثير منه.

والتعرف يجلب التقدير، والتقدير يجذب النظر، والنظر مهم للترشُّح، والترشُّح ضروري للتأهُّل، وربما الفوز.

لم يبدُ أن ميكيل اهتم لما يقولون؛ تبادل نظرة مع مدير المعتكف مفادها أن الحفاظ على سلامة المكان أولى من الطقوس الفارغة التي يبغي هؤلاء ممارستها.

والصباح رباح.

***

وفي الصباح نقف على الشاطئ ننظر إلى ما أخرجه ميكيل ورجلان آخران من المحليين من البحر. المحليون هنا داكنو البشرة أيضًا؛ ويتكلّم أغلبهم بلهجة قريبة من

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

مفهومي عن اللهجة السودانية، لكنهم لا يتكلمون كثيرًا، ويتحاشَوْن تلاقي الأعيُن. تشهق الصهباء سارة التي لا أعرف مُنجَزها الثقافي بعد، ثم تميل لتقيء الإفطار على الرمال.

إن مصدر الدماء في البحر أمس لم يكن سوى جثَّة بشرية منهوشة حرفيًا. لا يمكن لكائن بحري أن يمزق كل هذه التمزُّقات الصغيرة المتجاورة. هذه عضَّات صغيرة كنقرات الدجاج.

وأنظر إلى النوارس التي لا شُغل لها اليوم سوى التحليق حول مكاننا كالنسور.

يهتف رفعت برهان مالك العشَّة:

- لِنَبْعُد يا جماعَة، مجرد غريق نرى مثله من وقت لآخر.

فيسأل رامي:

- قدم الأستاذ سليمان متورِّمَة منذ عضَّة ليلة أمس. هل من مستشفى قريب هنا؟

- في شلاتين. الطريق طويل ومرهق يا جماعة، والجو حار. ثم إن الالتهاب وارد ونراه كل يوم هنا. لو واظب على الكمَّادات والمطهر سيكون بخير. أعتقد أن لديَّ مضادًّا حيويًّا في مكان ما، ومضاد التهاب كنت أستخدمه بعد خلع ضرس العَقل..

وانسحب- أو لنقُل هرب- رفعت من بين الناس ليبحث عن الأدوية. أين مُنظمو هذه الكارثة؟ لقد دفعْنا ثمن مشاركتنا بالفعل ولم تكن دعوة مجانية. قيل لنا: إننا سنشارك بنسبة فقط، والباقي على حساب جائزة بريزما، لكن ما دفعناه يغطي المصاريف كاملة

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

وزيادة عشر مرات، ثم يرفضون نقل مصاب إلى مستشفى؟

لقد دفعت من قبلُ عمري ولم ينقلني أحد إلى المستشفى في آخر الشارع وأنا أنزف. يبدو أن هذا طبيعي، وأنا فقط لا أعرف شيئًا خارج حدود البيت. ما يحدث بالداخل هو ما يحدث في الخارج... لا جديد..

يعود الجَمع متراخين، ويجُر ميكيل والرجلان الجثَّة إلى موضع بعيد عن الماء. أقترب أنا قليلًا وأسأله بالعربية التي أحب سماعها منه:

- ألن تتصلوا بالشرطة؟

- طبعًا. أعتقد أن الأستاذ رفعت سيتصل. ليست مسؤوليتي.

ثم يترك الجثة والرجلين ويمشي كأنه يدعوني للابتعاد معه. أمشي متحاشية أن أقترب منه أكثر من اللازم أو أبتعد أكثر. أمشي على حبل مشدود..

- الجروح غريبة. لاحظتِ؟

- نعم. لكن رفعت قال: إنها عاديَّة.

- تشبه جروح النسور. لكنها ليست نسورًا، بل طائر مختلف.

- أي طائر؟ هل رأيت جروحًا مشابهة من قَبل؟

- لا.

- أنتَ صومالي؟

@ART_OF_BOOK

- مَن قال هذا؟

- سمِعت.

- وسمعتِ أنني قرصان. هه؟

ابتسم في حَرَج. هذا ما حكاه عنه رفعت. ميكيل قرصان تائب فرَّ من الصومال ليبدأ من جديد هنا، ولسبب ما لم أصدِّق هذه الحكاية. سألته عن بلدِه مرة أخرى بعدما أخبرته أنني من القاهرة، فأجاب وهو يركل الماء:

- يمكن أن أخبرك بمكان ولادتي. بورتسودان.

- إذًا أنت سوداني؟

- لو كان أبي سودانيًّا فأنا سوداني. هذه مشكلة أغلب الناس هنا.

أسأله عن سبب قِلة محصوله اللغوي العربي، فيتحاشى الرَّد. أعتقد أن ميكيل في الثلاثينات، لكن عينيه عينا حكيمٍ هَرِم. أحترم صمته، وأفكر في العودة إلى عشتي لأكتب عنه. لا ينفك عقلي يعود إلى بداية الرواية، ويبدو هذا الشاب بداية واضحة مُلِحَّة لسبب ما. أسأله فجأة وأنا أخرج هاتفي المحمول الموصول دائمًا بشاحن متحرك:

- هل تريد أن تظهر في لايف معي؟ أعتقد أن الشبكة أفضل في الصباح. لقد صوَّرت لايف أوَّل أمس وظهر للناس.

ابتسَم وحرَّك كفيه بمعنى لا داعي، ثم اقترح أن يصورني هو، فأعطيته الهاتف

ART_OF_BOOK

وقفت أمام الكاميرا أهندم حجابي وأرتدي نظارتي الشمسية الوردية وأنظر حولي لأرى زاوية تُظهر جمال المكان ولا تُظهر العشة، ثم أعطيه إشارة البدء فيضغط على أيقونة البث ويرفع لي إبهامه.

- مساء الخير أيها القراء الأعزاء. هذا خامس يوم في معتكَف بريزما الكتابي الأوَّل في مصر. مرسى حميرة مكان هادئ وملهِم حقًّا، ووجود هذا الحشد من الكُتَّاب المتحققين يزيد...

وأكذب.. وأكذب..

يتغيَّر وجه ميكيل بعض الشيء وهو ينظر إلى الشاشة، ثم يفتعل الابتسام. أرتبك قليلًا وأنا أتصور أن تلك التعليقات المُهينة قد تكررت مرة أخرى، وألومُ نفسي على سماحي له بتصوير اللايف والاطلاع على لوحة الخزي الخاصة بي.

إذًا هو يقرأ العربية ويفهمها؟

أنهي اللايف بدعوى أن الهواء يطيِّر حجابي ولا أستطيع التركيز، ثم أمد يدي آخذ منه الهاتف وأسأله:

- هل من شيء أزعجك؟

- لا. فقط حركة النوارِس وراءك. خشيت أن تهاجمنا.

ثم يمشي في اتجاه العشش، وأسير خلفه أتحقق من التعليقات على اللايف. لقد عادوا ينهشونني مجددًا، ويلومونني على تَركي ابني واللَّفَّ في البلاد على «حَل

@ART_OF_BOOK

شَعري». أعرف مَن الذي أطلق هذه الحَملة منذ عودتي للكتابة والنشر، لكن ما يحيرني هو مَن لا يعرفونني ولا يعرفون طليقي، ويتطوعون بالسبِّ والسخرية.

هذه طَرحتي التي أخفي وراءها فجوري. تلك كتاباتي التي تكشف كَبتي الجنسي. ها هي المرأة تتنزَّه وترمي ابنها المتوحِّد في الشارع.

أريد أن أختبئ.. أريد أن أختفي.. أريد أن أتحاشى اللكمات والرُّعاف. أنا أم لا تستحق الحياة وزوجة ناشز وكاتبة مُدَّعِيَة.

هل يقرأ ميكيل العربية أم أن النوارس فقط هي ما عكَّرت مزاجه؟ أحاول فَهم مِشيته، وصمته، وتحاشيه الحديث معي. إن كنت بارعة في شيء فأنا بارعة في قراءة الناس لا لفهمهم، بل لتحاشي ردود أفعالهم. وددت لو أسأله إن كان يقرأ العربية، لكنني خشيت أن يرد بالإيجاب. خشيت أن أخسر رفقته.

ثم وصل إشعار آخر، أحدهم شارك اللايف وكتب أن حركة النوارس خلفي غير طبيعية، وأنه أول مَن كتب عن تصرفات الطيور البحرية الغريبة ولم يكترث له أحد.

أنادي ميكيل وأريه المنشور، فيأخذ الهاتف مني ويفتح حساب من شارك اللايف، ويبحث فيه حتى يجد فيديوهات صورها الرجل بنفسه في الساحل الشمالي، توضح حركة مماثلة و... فيديو آخر محجوب لمحتواه الدموي. يضغط ميكيل أيقونة السماح بالعرض، فنشاهد طائرًا بحريًّا ما ينقضُّ على قِط ويمزقه، فيمزقه القِط بمخالبه، وينتهي الأمر بهما كومة دامية من الفراء والريش.

- ألا يصطاد النورس الأسماك يا ميكيل؟ أعني أنه يأكل اللحوم.

يجيبني بأن النوارس ليست بريئة كما يعتقد الناس، بل هي من أشد الطيور البحرية شراسة إذا قلَّ الغذاء أو تغيَّرت بيئتها. يقول أيضًا: إنه رآها كثيرًا تصطاد حمامًا أو عصافيرَ، وفي مرة انقضت على قِط صغير ورفعته إلى السماء قبل أن تتركه يسقط ليموت، ثم تلتهمه، بل إن بعضها بدأ ينبُش القمامة ليلًا في الموانئ بعد أن اعتادت على الضوء الصناعي، وهي ظاهرة شاذة؛ لأن النوارس بطبيعتها لا تطير ليلًا.

أتنفَّس الصُّعَداء. لماذا التجهُّم إذًا يا ابن الناس؟ نوارس جائعة، وجثة مزقها شيء ما. لماذا الكآبة وحَمل الهَم؟!

مع أن الإقامة هنا لا تعجبني؛ لأنني خُدِعت بشكل ما، لكنني أفكر حقًّا في الانعزال في مكان ما في المنطقة والعيش كما أريد. هل سيمانع إدريس؟ الأمر يستحق المحاولة. إدريس ليس عاجِزًا تمامًا ويفهم جيدًا، لكن وصمة التوحُّد تكبِّله كما تكبِّلني. يجب أن يخرج إدريس من الصندوق المظلم، لا لأن حِمله ثقيل عليَّ بل لأنه قادر على التحليق مثلي.

فلماذا التجهُّم؟ ولماذا تنظر إلى البحر هكذا يا ميكيل كأنه نذير شؤم؟

***

بعد العَصر نعرف أن حالة سليمان تدهورت، وأنه محموم يهلوس ويتشنَّج. هل أصيب بالسُّعار أو الكُزاز (التيتانوس)؟ هل تظهر أعراضهما بهذه السرعة؟

يخرج رفعت من غرفة سليمان مهمومًا متوترًا، ويقول للحشد الصغير المجتمع في

- لا بد أن ننقله إلى المستشفى. سأستدعي أبا أحمد...

يقاطعه رامي في قلق:

- لماذا أبو أحمد؟ هل سينقله بالأوتوبيس الذي جئنا به؟ لا أعتقد أن الأمر يستدعي أوتوبيسًا. انقُله بسيارتك أسهل.

يعقد رفعت حاجبَيْه ويدس يديه في جيبَيْ سرواله القماشي ذي الكسرات من الأمام ويقول:

- ولماذا سيارتي؟ ما ذنبي؟ هل تعرف المسافة بين شلاتين وهنا وكم ستستهلك من بنزين؟ إنه مسؤوليتكم، ولستُ أبا النورس ولا خاله كي أتحمَّل ما فعل.

أفكر في الاعتراض على أنانيته، لكني أبتلع كلماتي؛ خشية الهجوم، خشية النظرات التي ستجتمع على وجهي. يصيح رامي:

- إن كانت نوافذ هذه الخرابة ذات أسلاكٍ ما كان النورس ليدخل أساسًا!

- إن كانت خرابة حقًّا، فلماذا اخترتموها؟ هه؟

تغمغم هبة أخيرًا وقد حانت لحظة الحقيقة:

- نحن لم نعرف مستوى المكان إلا عندما وصلنا. لقد...

فيقاطعها رفعت:

- إذًا لا دخل لي، ولن يمسَّ أحدٌ سيارتي.

يتدخَّل ميكيل أخيرًا فيسأله:

- هل يمكن أن أنقله بسيارة المُؤَن؟

وسيارة المؤن هي سيارة تويوتا قديمة نصف نقل، رأيت ميكيل يستخدمها منذ يومين، يجلب في صندوقها الماء من محطات التحلية، والوقود اللازم لتشغيل المولِّد، وطعام المقيمين الذي يحضره أحيانًا من قرية مرسى حميرة القريبة. يقترب رفعت منه، يرمقه بنظرة ازدراء وهو يجيبه بدايةً بالعربية، ثم يتحوَّل إلى الإنجليزية فجأة:

- ما شاء الله!! وهل صارت السيارة ملكك الآن؟ تذكَّر يا ميكيل، أنت عامِل لا أكثر. تذكَّر أيضًا فَضلي عليك، وإلا كنت في السجن أو ملقًى في الصحراء جثة.

يتبادل الناس النظرات! سجن؟! لكن ميكيل لا يتحرك من مكانه، ولا يخفض نظره إلا بعد انسحاب رفعت إلى غرفته (الوحيدة ذات التكييف الصحراوي). يذهب واحد من الكُتَّاب- لا أتذكر اسمه أو حكايته- لاستدعاء أبي أحمد لنقل سليمان إلى شلاتين، وكان أبو أحمد قد وجد راحته مع مجموعة رعاة في المنطقة، ويغيب معهم أغلب اليوم ولا يعود إلا في المساء.

أقوم أنا وأنزوي في غرفتي، أراجع ما كتبه المتابعون على اللايف؛ وأمحو من التعليقات ما تيسَّر وأنا أتساءل إن كان ميكيل يقرأ العربية، ويعرف الآن أنني مُومِس متنكرة، وامرأة غير مسؤولة.

يمر الوقت، وأنا أنتقل من تعليق إلى آخر ومن منشور إلى آخر على غير هُدًى، حتى قرب المغرب. أخرج من حجرتي الحارة لأجد البعض يكتب، والبعض يحاول صيد الوحي أو صيد الجنس الآخر بدعوى مشاركة الأفكار والتبادل الفِكري.

هذه أسوأ مجموعةِ مُدَّعِين يمكن أن أقابلها في حياتي. لكن ألا تقع الطيور على أشكالها؟ ألم آتِ إلى هناك للتزلُّف لسليمان حتى وإن انتويت الحفاظ على الحدود الجسدية؟

أجلس وحدي، أمسك دفتري وأحاول مجددًا، لكن بقعة دم النورس الباهتة على الأرض تجذب نظري، وتجذب أنفي فتذكِّره وتؤلمه. تقول نوارة كأنها تستدعي روح الصالون مرة أخرى، فتقطع حبال التواصل « الأدبي» بين الجالسين:

- أعتقد أن الأفضل ألا نأكل اللحوم هنا. هل قرأتم هذا الخبر؟

تلف نوارة شاشة هاتفها نحونا، فلا يرى أغلبنا ما تقصده بسبب سوء الإضاءة، لكن رامي الأقرب منها يقول:

- حُمَّى مالطية تصيب بعض القطعان في جنوب مصر.

تغمغم سارة الكاتبة الرقيقة:

- لا بد أنها شائعة، ثم إنهم يقولون في الجنوب. نحن لسنا في الجنوب جدًّا، صح؟

يبتسم كاتب ما نسيت اسمه ويقول:

- نحن في أقصى الجنوب، والمكان كله يعيش على الرعي. كنت أخطط لتذوق

الشِّواء في حلايب لو اتسع الوقت، لكن حمدًا لله ألكِ ببهتِنا.

يُضيف رامي، وقد تبينتُ أنه أكثر ثقافة مما ظننت:

- إذًا لنخبر ميكيل بألا يجلب لنا لحومًا أو ألبانًا أو أجبانًا غير مبسترة. الحرص أولى.

تسأل سارة مرة أخرى، وقد تبينتُ أنها أغبى مما ظننت:

- هل المرض مُعدٍ؟!

تجيب نوارة:

- يقولون هذا. ماذا لو تفشَّى في باقي البلد؟ هل ستنكر الحكومة كعادتها وتتركنا نمرض كلنا؟ أنا بصراحة لا أثق في التصريحات المطمئِنة. لقد تربينا على أن الأسوأ مخفيٌّ دائمًا، وسينفجر في وجوهنا في أي لحظة.

يقول قائل: إن الحرص هو الحل، ثم المراقبة. لو ظهرت أعراض على الناس، وقتها ستضطر الحكومة للاعتراف بالمصيبة، ربما بعد فوات الأوان. لم أفكر في شيء سوى في إدريس، الذي يعشق الأكل من المطاعم، ولا بد أنه الآن يعيش عليه. أكتب له رسالة، أنصحه بالاعتماد على الأسماك أو الدجاج إن كان لا بد له من شراء طعام من الخارج، ثم أرسلها. أعرف أنه لن يجيب، وأعرف أنني أتوق للعودة الآن أكثر من أي وقت مَضَى، لا بسبب شائعة المرض بل لأن إدريس أوحشني.. حقًّا.

تقول قائلة- لا أميزها بشيء- أنها تنسى دائمًا أن الإنسان من الثدييات، يصيبه بعدُ ما يصيبها، مهما كبر عقله وتمدَّن وابتعد عن الحيوانية، فإنه لا بد مواجِه ما يذكِّره بأصله،

مثل تلك الحمى المالطية. قبل أن يوسوس لي عقلي بالمشاركة، يخرج ميكيل من غرفة رفعت ممتقع الوجه، فأسأله بالإنجليزية عما به، فيجيب:

- الأوتوبيس.. الأوتوبيس انقلب في الطريق.

- كيف عرفت؟

- أرسَل أبو أحمد رسالة نصَّية إلى هاتف رفعت المحمول. لا أعرف متى أرسلها تحديدًا، لكنها وصلت الآن.

تسأل نوارة في قلق:

- ماذا ستفعل؟

- سأذهب بسيارة المُؤَن لجلبهما. حتى يأتي الصباح ونجد مَن يقطر الأوتوبيس إلى شلاتين.

أقترحُ عليه أن ينقل سليمان والسائق إلى المستشفى في شلاتين، فهذا منطقي أكثر، فيقول: إن الأوتوبيس انقلب بالقرب من هنا، ثم يضيف بصوت منخفض حانِق: إن رفعت لن يوافق على دفع ثمن وقود نقلهما، والمؤن عندنا تكفي يومين آخرين، فلا داعي من وجهة نظره لتحريك الشاحنة. أهتفُ:

- سأدفع أنا! ما هذا الخنزير؟! أنا أيضًا سئمت يا ميكيل، وأفكر في العودة إلى القاهرة من شلاتين. لو أنك ستذهب فخذني معَك.

ثم أندم فورًا على التفوُّه بآخر عبارة؛ ماذا قلت؟ هل سأذهب معه وحدنا؟ ماذا

سيقولون عني؟ هل تركت التملق لسليمان والمثقفين، وأجري وراء شاب، أتحجج بالإنقاذ لأنفرد به ليلًا؟ لو افترضت حُسن نيتهم- وهو أمر مشكوك فيه نظرًا لما سمعت من الناس طوال حياتي- فأين سأقيم في شلاتين حتى الصباح؟ لن أجد مواصلات الآن. لكنني سأدفع قَطعًا ثمن الوقود مهما كرهت سليمان ومهما زاد حَنَقي من المكان الذي رمانا فيه. يقول ميكيل وهو يُخرِج مفتاح السيارة من جيبه:

- لا مشكلة، سأدفع أنا...

يخرج رفعت من الغرفة، ويهتف في ميكيل:

- لن تتحرك السيارة، مفهوم؟

أفكر في التدخل، لكنني أخشى رَدَّ فعلِه. يضيف رفعت: إن السيارة ستُستهلك فيما لا طائل منه، وأن ميكيل سيضطر للمبيت في شلاتين إن استدعى الأمر، ولا يوجد هنا عامِل سواه. يختتم كلامه أخيرًا:

- ماذا سيحدث لهما لو أمضيا الليل في مكانهما حتى نرسل لهما مَن يساعدهما في الصباح؟ لا شيء. الجو حار، وربما تمر بهما سيارة تساعدهما، فنوفِّر على أنفسنا.

يرفع رامي- الذي يبدو أنه كان يسكب الشعر في أذني سارة- رأسه نحو رفعت وسأله:

- لم أتصوَّر أن تفكر بهذه الطريقة. هذا وضع طارئ قد تتعرض أنتَ نفسك له!

- لو تعرضتُ له، سأقود سيارتي بنفسي وأنفق مالي الخاص على علاجي. هات المفتاح.

ينتزع رفعت المفتاح من يد ميكيل، ثم يعود إلى غرفته ويُغلق بابها بعنف. نتبادل النظرات جميعًا، فيقول القائل ذاته الذي لا أميزه:

- كم المسافة حتى هناك؟ هل هما مصابان لا يقدران على العودة مشيًا؟

يجيب ميكيل:

- مسافة مشي ساعتين تقريبًا. ليست مسافة كبيرة جدًّا، لكن سليمان يعجز عن المشي، وأبو أحمد طالب بنجدتهما. إذًا هما في مشكلة.

أقترحُ أن يذهب إليهما ثلاثة أو أربعة منا، ليتعاونوا في حَمل سليمان إلى هنا، لكن رامي يقاطعني:

- لو أن الأوتوبيس سَلِيم، فمكوثهما هناك أفضل. في الصباح نبحث عمَّن يستطيع نقل سليمان إلى المستشفى وتصليح الأوتوبيس.

تضيف نوارة:

- لا بد من تصليحه، وإلا عَلَقنا هنا! سأراسل صفحة الجائزة. لا يصح ما يحدث هنا! مهزلة!

راسليهم يا أستاذة نوارة، وأتمنى أن تصل إليهم رسالتك قبل فوات الأوان؛ لقد بدأت أتشاءم، وأستشرف نهاية سوداوية لروايتي التي نسيت أن أرسم خطًّا بينها وبين ماضيَّ. سيظل الأخير يطاردني بنَحسه حتى يلقي بي من فوق حافة العالَم.

يقول ميكيل لرامي:

- إن أبا أحمد أرسل يطلب منا النجدة. لم يذكر ما مشكلتهما، لكنَّ انقلاب أوتوبيس يعني أنهما أُصِيبا قَطعًا. سأمشي أنا إلى قرية مرسى حميرة، وقد أستطيع اقتراض سيارة من أحدهم.

يقوم رامي من مجلسه ويفرد ساقيه كأنه يستعد للتمرين، ويقول:

- سأذهب معك. الليل حَلَّ، ولو لم تجد سيارة ستحتاج إلى مَن يساعدك في نقلهما لو أصيبا.

- لو أصيبا؟ ماذا سنفعل لهما دون سيارة تنقلهما؟

- سنسعفهما إن أمكن هذا. هل من حقيبة إسعافات أوليَّة هنا؟

أقرأ في ملامح ميكيل الرفض والقلق، وربما شيء من التوتر. أراه ينظر إلى رامي، يتفحَّص بِنيَته الجسدية المتوسطة؛ ابن مدينة تضخَّم رِدفاه من قلة الحركة. أخيرًا يقول:

- لا داعي. سأذهب وحدي، وتوجد هنا حقيبة إسعافات.

يعارضه رامي:

- كيف؟ أنت تخاطر بسلامتهما بهذه الطريقة. ثم ما هذه النظرة؟ هل تعتقد أنني غير قادر على مساعدتك؟ لقد خدمتُ ضابطًا إحتياطيًّا في الجيش ثلاث سنوات، ولست طريًّا كما يرى أبناء الصحاري أبناء المدن.

لدهشتي، لم يعلق ميكيل على أي شيء مما قيل سوى:

- لستُ من أبناء الصحاري.

يخرج ميكيل، يتبعه رامي رغمًا عنه. أسأل الجالسين إن كان رقم هاتف الشاعر معهم، فتجيب سارة على استحياء أنه معها، لكن أي فائدة تُرجى من الاتصال في حال عدم وجود شبكة؟ ترد نوارة في ثقة:

- على الأقل ستصل رسائلنا أو رسائلهما في وقت ما.

أقوم لأراقب الرجلين في الخارج وهما يستعدان للرحيل. النوارس تدور بكثافة في السماء فيما يملأ ميكيل زجاجات ماء من الصنبور الخارجي الموصول بالخزان فوق مكتب رفعت المسقوف بالخرسانة، ويحضر من السيارة حقيبة الإسعافات.

يقترب نورسان من النافذة التي أقف خلفها، فأجفُل، ثم أغلقها تمامًا، ليغيب عني الليل وميكيل ورامي وكل ما قد يطرأ في هذا العالم غير المألوف؛ غير الأليف.

***

في جِلد كان جَمَل، وجِلد كان حَمَل

ميكيل...

لا أعرف من اللغات إلا التي أستطيع التعبير عن نفسي بها، لذا لا أعرف أي لغة على وجه الأرض، حتى وإن تكلَّمت بكلماتها.

أمشي ورامي على مَدَقٍّ بين التِّباب، متجهين نحو الطريق وقرية مرسى حميرة. المشكلة كلها تكمن في الصحراء... ورامي.

في الصحراء أضطر إلى الحديث مع مرافقِي، والحديث يولِّد الألفة، ثم المودَّة، ثم التعلُّق. قانون العيش على الحدود وكل ما هو « بَينَ بَينَ» ينص على ألا أتعلَّق، وألا أحب.

في الصحراء أضطر إلى تذكُّر الطُرُق والاتجاهات، وإلى تذكُّر المخاطر التي قد يتعرض لها مرافقِي. ظننت أنني تركت كل هذا الهَم خلفي، وأنني لن أتحمَّل العودة إليه ولو لساعات.

لكني مضطر..

تبًّا لك يا رفعت، وتبًّا لي.

في الصحراء أرى وجهه الفَتى البريء الذي لفحته الشمس، وشقق شفتيه الظمأ، وبخَّر صهد الفيافي أحلامه. مر عامان من وقتها، ولا زالت الصحراء تذكرني بالوجه الصغير المستدير.

في الصحراء تعود إليَّ « المطمورة» بجثثها المحدِّقة إلى السماء، كأنها تستشرف فيها رحلة النجاة التي لم تكتمل لها في الأرض. لم أضطر إلى التخلص من جثة الغريق بنفسي اليوم، لكني أخشى أن أضطر إلى التخلص من الجثث في وقت لاحق. أخشى أن يطاردني الغرقى والموتى والقتلى، فأضطر إلى الهرب من جديد.

يسألني رامي وقد تهدَّجت أنفاسه من المشي في الرمال:

- لم أتصوَّر أن يكون المكان موحِشًا إلى هذا الحَد.

- أي مكان خارج رقعة الضوء هو مكان موحِش.

- مَن يعيش هنا بلا أي خدمات هكذا؟

- المضطرون.

- هل كنت تعمل في خدمة المعكسرات منذ زمن؟

- قال رفعت لكم: إنني قرصان تائب. لا أعتقد أنك خائف مني وإلا ما أتيت.

- ماذا كنت تعمل إذًا إن كان كلام رفعت افتراء؟

أشير إلى أضواء بيضاء خافتة عند الأفق، وأقول:

- القرية. وصلنا تقريبًا.

تشبه قرية مرسى حميرة شلاتين أو أبا رماد في الفقر والبؤس، إلا أنها أشد بؤسًا، بسكانها الأربعمائة، وبيوتها المتفرقة المصنوعة من الصفيح. أعرف أن فيها ثلاث

سيارات نصف نقل وربما أكثر، وأتمنى لو أستطيع استعارة إحداها.

أنتقل مضطرًّا إلى الحديث بالعربية أمام عيني رامي المدهوشتين. أطرق على الأبواب أسأل وأشرَح، فيُغلق الباب في وجهي تارة- أنا الغريب « المُريب»- ويُرَحِّب بمساعدتي تارة، حتى أصل إلى صاحب سيارة يعمل في نقل الفَحم من الجنوب. لقد رآني مرات في القرية لكنه لا يعرفني، ولا يأتمِنني على سيارته، لكنه وافق على اصطحابنا إلى حيث الأوتوبيس المقلوب.

نركب معه، أنا ورامي إلى جواره في أريكة السيارة الأمامية، ويخرج بنا إلى الليل مرة أخرى. تقف الغربان على أشجار آلَفُها، لكن تعجز اللغات عن تسميتها؛ مثلي، تنعِق وتتشاجر بعنف، وهو ما أحلم أنا بفعله، لكني مقيَّد، عاجز.

الرطوبة عالية، الضباب يهبط على الطريق سريعًا، لكن راضي- صاحب السيارة- يُطَمئِننا، فهو معتاد على القيادة وسط ضباب المنطقة الدائم، والذي هو مصدر المياه الوحيد تقريبًا للنباتات الصحراوية. لا يكرهون الضباب هنا، وكنت أعتبره أنا في الماضي وسيلة نجاتي، ونجاة مَن معي.

لكني الآن أكرهه.

أحاول الاتصال بأبي أحمد طَوال الطريق، وأجد هاتفه غير متاح. يقلل الضباب كفاءة شبكة الاتصال والإنترنت، وكذلك الرياح، وكذلك الأمطار، وكذلك الحر الشديد. كل شيء هنا مُعادٍ، عتيق، يجذب إلى الماضي ويحبِس فيه. يُبطِئ راضي وقتًا نظن أننا اقتربنا كي لا نفوِّت الأتوبيس المقلوب. تمر دقائق حتى يلمح رامي ضوء مصابيح

خافت.

- **الأوتوبيس! ها هو ! توقف!**

نتوقف، ونترجَّل ونضيء كشافاتنا. أمشي أسرع منهما نحو الأوتوبيس وأنا أنادي:

- **أستاذ سليمان؟ أبا أحمد؟**

يأتِيني الرد واهنًا، فيشتعل قلبي قلقًا. الأوتوبيس مقلوب على جانبه، لا تزال كشافاته تعمل لحسن الحظ، لكن يبدو لي بدن السيارة نفسه غريبًا بعض الشيء، مما فرض عليَّ سؤالًا مهمًّا: ما الذي قلب الأوتوبيس؟ ما الذي ارتطم بجانبه فحطَّمه بهذا الشكل؟

أتسلَّق أسفل السيارة- الذي هو جانبها الآن- ثم أمد يدي أساعد رامي على الصعود، فيما يشق راضي طريقه بنفسه. ندخل من النافذة المفتوحة، لنجد سليمان ملقًى على النافذة المقابلة المهشَّمة، ملوثًا بالرمال، وأبو أحمد متكوِّر في آخر الأوتوبيس، ينظر إلينا من وراء ظهر مقعد، ويشير إلينا بألا نصدر ضجة.

نمشي بصعوبة فوق النوافذ وبين المقاعد، ونعتلي ظهورها أحيانًا حتى نصل إلى أبي أحمد المرتجف، المتشبث بهاتفه المحمول. أسأله همسًا:

- **هل أنتَ مصاب؟**

- **نعم..**

ويُبرِز لي ساقيه الداميتين. مستحيل أن تنتج هذه الإصابة من حادث. كأن ذئبًا مزَّق

لحمهما. الرجل سيموت لا محالة، فقد نزف ما يكفي، وإنها لمعجزة أن يظل واعيًا حتى الآن، حتى مع ربط ساقيه بحزام الأمان. يسأل رامي وهو يطلُّ برأسه من خلف كتف راضي:

- ماذا حدث؟ كيف انقلبت السيارة؟

يرتجف أبو أحمد ولا يجيب، لكنه لا ينفك يضع إصبعه على شفتيه وينظر تجاه سليمان. أسأله أنا:

- هل هو نائم؟ لا بد أن نُخرجكما ونتقلكما إلى شلاتين حالًا. هيا..

أنحني لألفَّ ذراعه حول عنقي لأحمله، فينمكش ويرتجف في ذعر. الذعر وارِد، وقد قابلته كثيرًا. أقول لراضي:

- معك حبل؟ أحضره، سأحمله حتى النافذة وأربطه، وأنت ورامي اجذباه من أعلى.

يخرج راضي والشاعر سريعًا، فأعبر أنا من فوق المقاعد مرة أخرى إلى حيث سليمان في الأمام. ساقه متورمة لدرجة لم أكن أتخيلها، جسده محمرٌّ يستعِرُ بالحُمَّى. أمد يدي إلى وجهه وأهمس:

- سليمان؟ سليمان؟

يفتح الرجل عينيه ببطء، ثم يغمضهما مرة أخرى. الصحراء هادئة إلا من صوت بعيد غير مألوف. ما هذا؟ الأرض تتذبذب تحت قدمَيَّ!!

يعود السائق والشاعر ويُدليان الحبل، فأربط أبا أحمد من تحت ذراعيه، ويرفعانه.

يقطرُ الدم على وجهي، فأتألَّم. لا يعرف أحد مدى الألم الذي قد تُحدثه قطرات الدماء إلا مَن هم مثلي.

صوت طلقات نارية متتالية، بعيدة..

أمسح وجهي، وأحمل سليمان؛ الأثقل وزنًا، فيما يحاول رامي فتح نافذة أقرب لي كي لا أضطر لنقله حتى آخر الأوتوبيس. أسمع سليمان يهمهم بتخاريف الحمى. أربطه ويرفعانه، ثم أتسلَّق أنا خارجًا. أقف فوق جانب الأوتوبيس، ويتاح لي أخيرًا فرصة التدقيق في الآثار على المعدِن؛ آثار ضربات عريضة، وطعنات حادة، وخدوش ودماء جافة. يقول رامي:

- سننزل وتُدلي الرجلين لنا من جهة سطَح الأوتوبيس أفضل. ميكيل؟ إلامَ تحدق؟

- ما الذي قلب الأوتوبيس؟ هذه ليست آثار سيارة أخرى.

- هل لاحظتَ صوت الطلقات؟ يبدو بعيدًا...

ثم يعلو الصوت الذي لم أميزه من قبل، لكنني أميزه الآن؛ وقع حوافر على الرمال. لقد حضرتُ سِباقات الجِمَال كثيرًا، وعاشرت الرُّعاة وتجَّار المواشي، وأعرف هذا الصوت، إلا أن الصوت ليس صوت أخفاف جِمال فقط..

أسلِّط ضوء الكشاف إلى مصدر الصوت، وكذا يفعل رامي وراضي دون تفكير، فنرى سحابة غبار تقترب وسط الضباب. ينقل راضي ضوء الكشاف نحو سيارته؛ فنعرف دون كلام أن الوصول إليها الآن غير آمِن. نحن هنا في أمان أكثر... لكن مِن أي شيء؟

إن الغريزة أسرع من أي تفكير أو تمييز. لا تعدو القطعان بهذا الشكل دون سبب، إما أن الخطر فيها وإما فيما يلاحقها، وفي الحالتين يجب أن نختبئ.

أقفز إلى داخل الأوتوبيس مرة أخرى، وأتلقَّى سليمان المربوط بين ذراعَيَّ، يليه أبو أحمد الذي أغرقنا دمًا، ثم يقفز رفيقاي إلى الداخل، وننتظر.

لا تمر دقيقة حتى نسمع الهول الذي يرتطم بالأوتوبيس من جهة السقف (الجانب الآن). تهتز العربة بنا، وأبو أحمد مُصِر على وضع إصبعه على شفتيه كي نصمت. قرنُ حيوان ما يخترق السقف، ويظل مكانه. تتزايد الانبعاجات أكثر، ونتشبَّث بالمقاعد. البهائم تدور حول الأوتوبيس في إصرار، تضرب، تحاول اختراقه. تمر دقائق حتى يبتعد ما يهاجمنا، ولحسن حظنا أن النوافذ بالأعلى، وإلا...

أقوم ببطء، أتسلق المقاعد وأُطِل خارج النافذة، ثم أضيء الكشاف فلا أرى شيئًا من الغبار والضباب. أخرج، وأزحف لأرى ما الذي اخترق سقف الأوتوبيس، لأجد ثورًا ضخمًا عالقًا، يتشنج وينزف. أوجه الكشاف نحو سيارة راضي، لأجدها قد انزاحت إلى الجهة الأخرى من الطريق، تميل نحو الرمال، وواجهتها مهشمة وصفيحها منبعج.

أنقل الخبر إلى راضي، فيقفز خارجًا، ثم ينزل إلى الطريق ويعدو إلى سيارته وهو يكرر نَدْبًا بلغة نسميها (الروطانا). كلها لغات وإن ميَّزتها، فلا أريد أن أجيد أيَّها؛ ما الفائدة من لغات لا تعبر عما في نفسي؟

يظهر رأس رامي من النافذة إلى جواري، يسألني:

- ماذا سنفعل؟

- سننتظر حتى الصباح، أو حتى يمر بنا مَن يساعدنا.

- هل هذا القطيع هو ما قَلَب الأوتوبيس؟

- أعتقد، لكن لماذا عاد؟ هل جذبه صوت سيارتنا؟

هل جذبته رائحة الدماء؟!

- بل السؤال هو: هل من المعتاد أن تتصرف القطعان بهذه الطريقة؟

لا أجيبه، وأفكر في السُّعار أو حُمى الوادي المتصدع. سمعت من مجلس الكُتَّاب أن شائعة تسري مفادها أن الحمى المالطية تتفشى في الجنوب، فهل هذا مِن أعراضها؟

إن كان هذا القطيع الضخم مصاب بوباء ما، فنحن في خطر شديد. وأتذكَّر النوارس...

***

تمضي ساعات الليل وأنا مستيقظ، أنصِت إلى أي حركة بالخارج، وأنصِت إلى أنفاس المصابَين الواهنة. رامي وراضي مستيقظان أيضًا، يبدو على راضي الهم وشيء من الكراهية لنا؛ نحن السبب فيما حدث لسيارته. أَخفَق ثلاثتنا في تعديل وضعها وإعادتها إلى الطريق حتى. لقد تسَّرب الوقود منها على أي حال، ولن تتحرك.

لن نتحرك جميعًا حتى تأتي النجدة.

يهاجمنا القطيع مرة أخرى قُبيل الفَجر، أضعف قليلًا من المرة السابقة، وحين يمُر أخيرًا، يتوقف أبو أحمد عن التنفس. أُغمِض عينيه وأخلَع ستار النافذة وأغطي به وجهه، ثم أبلِغ مُرافقَيَّ بالخبر، فيرددان الفاتحة في خشوع. أجلس مكاني مرة أخرى، وأفكر في شيء لم يخطر لي من قبل. ما الذي نهش ساقَيْ أبي أحمد؟ هل هو ذئب تسلَّق الأوتوبيس وهاجمه؟ لماذا لم يهاجم سليمان؟ لعلَّ السائق قاومه أو ضربه فهرب قبل ذلك. نعم، هذا هو التفسير، وإن كنت لا أستسيغه.

الذئب مفترس انتهازي، يهاجم البطن والمواضع الطريَّة، ولا يعض السيقان فقط ثم يبتعد؛ لأن رجلًا أعزلَ زعق في وجهه مثلًا.

هل هو كلب مسعور؟ لا يتسلق الكلب المسعور أوتوبيسًا... ولا الذئب أيضًا.

أسمع مع أول شعاع ضوء صوت سيارة يقترب. أتسلق إلى النافذة سريعًا، وأقف فوق جانب الأوتوبيس المقلوب ألوح للقادم من جهة الشلاتين. تتوقف السيارة الميكروباص على جانب الطريق، فأهبط وأشرح للسائق الموقف، فيرحب بتوصيلنا إلى القرية في طريقه إلى أبي رماد.

نركب بين الركاب الذين تكوَّموا فوق بعضهم البعض كي يفسحوا لنا مكانًا، وللجثة معنا. تسير السيارة كأنما في جنازة، فيما يحكي راضي للسائق بلغتهما المشتركة ما جرى.

يسأل السائق بالعربية:

- لقد مررنا بشاحنة أخرى مقلوبة على الطريق، لكن لم يكن فيها أحد.

يسأل رامي:

- هل لاحظت شكل الخدوش على بدنها؟

- كما وصفتم بالضبط. رأينا الدماء تلطخ ما حول السيارة لكننا لم نجد راكِبيها. كانت تحمل أرقام القاهرة.

- هل في المنطقة وباء الحُمى المالطية حقًّا؟

- لا بد أنها شائعات يا أستاذ. شيء كهذا لن يختبئ كثيرًا.

يغمغم راضي وهو يفكر:

- حِمار جارنا نَفَق أمس بعد إصابته بالسُّعار.

أسأله عن التفاصيل، فينكر أنه يعرف شيئًا أكثر مما قال.

نوارس، سُعار، ماشية مهتاجة، ذئب لا يتصرف كالذئاب...

ماذا يحدث؟

***

نصل إلى قرية مرسى حميرة في بكور الصباح. الأطفال يمشون إلى المدرسة الابتدائية القريبة، والأهالي يجتمعون حول مطعم الفول والفلافل الوحيد هناك. لا أعرف أين ذهب راضي بعدما تركنا، لكنه ساعدنا في الحصول على عربة يجرها حِمار، توصلنا والجثة إلى المعكسر.

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

الطريق أسهل في الصباح، وإن كان أصعب برفقة مصاب وميت. نمشي والظل يمتد خلفنا طويلًا، حتى نشم رائحة اليود القوية... والدم.

لا أعرف ماذا حدث في أثناء غيابنا، ولم تصل إلينا إلا رسائل تطمئن على ما وصلنا إليه حتى الثانية صباحًا، لكن ما أراه ثبَّتني إلى الأرض، كبَّلني بذكرى لن تُمحى، مهما فررتُ منها.

***

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

ونطير ونطير ونطير..

صوفيَّة

الرابعة صباحًا، ولا شيء عن ميكيل ورامي.

ينام الجميع وأبقى وحدي، أدور على النوافذ أغلقها، كما كنت أفعل في المنزل وإدريس صغير، أحميه من نسمة الهواء؛ لأنني أعجز عن حمايته مما هو أخطر.

ما يؤذيه- يؤذينا- قادر على فتح أي باب في تلك الشقَّة.

تمر نصف ساعة، فأشعر باختناق شديد من الإضاءة الخافتة اللعينة، والرطوبة الخانقة، ومنظر دم سليمان على الأرض ومقاس صندله المطبوع عليه، وصوت شخير رفعت في غرفته المكيفة.

أفتح باب العشة فلا أرى سوى الأبيض، كأنني أفتح الباب على سحابة. صوت النوارس عالٍ، لكني لا أراها ولا أرى أيَّ شيء.

أخطو بضع خطوات إلى الخارج، ثم أجلس على الدَّرج، أفتح هاتفي المحمول لعلني أجد شبكة، فلا أجد.

أضيء كشاف الهاتف، وأمشي بضع خطوات ببطء في الضباب.

النوارس تتصايح.. رفرفات أجنحتها تثير قشعريتي، فأتراجع إلى العشة، أهرب لأختبئ كعادتي. يضرب ظهري شيء، فأجفُل وأدور حول نفسي ألوح بذراعٍ، وبالأخرى أحمي

@ART_OF_BOOK

وجهي.

ضربة أخرى مصحوبة بصوت رفرفة أجنحة، لا جناحين فقط. أحمي وجهي وأرفع الهاتف أمامي لأنير الطريق. أتعثر على الدرجات القليلة، شيء يمزق كتفي. أصرخ. أصعد الدرجات بسرعة. أدفع الباب وأدخل، يدخل معي شيء أو شيئان ناصعا البياض؛ نورَسان. رُوحا غريقين غاضبين. هل يُغضِب الموت إلى هذا الحد؟

أُمسِك وسادة منقوشة وأطوحها يمينًا ويسارًا وأنا أختبئ خلف الأريكة. أصرخ. يجذب النورَس طرف الوسادة، فأجذبها؛ لن تأخذ مني درعي الطرية السخيفة.

صوت باب يُفتِح، وصوت أحد الكُتَّاب معنا يأمرني بالاختباء ريثما يتصرف. أتكوَّر خلف الأريكة وأغطي رأسي بالوسادة وأرتجف.

صيحات. تهشم خشب. صراخ. ضربات. زعيق النوارس يمزق طبلتي أذني. ماذا يحدث؟ الأريكة تهتز، وأحدهم يسقط بالقرب مني، فلا أرى منه سوى ذراع تنتفض.

أبعد الوسادة عن عين واحدة، أنظر بها إلى الفوضى المريعة. لقد اخترقت النوارس إحدى النوافذ، وهي الآن تدور كإعصار في المكان الصغير المُدَّعى.

نوارة تغطي رأسها بغطاء الفراش وتحاول الوصول إلى الباب. تفتحه وخلفها سارة تصرخ. وجهها دامٍ، تغطي إحدى عينيها بكفها. ما إن فتحت نوارة الباب حتى تدفقت عشرات النوارس الأخرى. أصيحُ:

- خلف الأريكة! هنا!

@ART_OF_BOOK

تركض نوارة وهي تجذب الشابَّة العوراء إلى حيث أختبئ. تتكوران إلى جواري، ونفرد الغطاء فوقنا. درع أوهى من درعي، لكنها على الأقل لا تسمح لنا برؤية ما يحدث، ثم نسمع صوت طلقات. تميل نوارة من فوقي، ترفع طرف الغطاء وتصف لي ما تراه:

- رفعت معه بندقية!

يعلو صوت الرفرفة، ثم صوت صرخات وسُباب رفعت.

- الطيور تهاجم رفعت و... إنه يخرج من المكان!

تنتحب سارة وهي تهتز كأنها بندول. هل الخارج أكثر أمانًا من هنا؟ يبدو لنوارة أن النوارس تقصد مطاردة الموجودين وتمزيقهم لسبب ما. يبدو لي أنا أن النوارس قد أنذرتنا بما فيه الكفاية، وها قد جاء وقت العقاب.

العقاب على أي شيء؟ هل من بشري بلا ذنب؟

هذا كابوس.. ما يبدأ بالضباب ينتهي بالاستيقاظ في الفراش آمنة.

هل الفراش آمِن حقًّا أم أنه مجرد تعبير استهلكناه في الكتابة، والحقيقة هي أن ما يبدأ بالضباب ينتهي دائمًا بالدم؟

تقول لي نوارة وهي تمسك يدي ويد سارة:

- هيا بنا. سنخرج خلف هذا البغيض. سيارته بالخارج، ويمكننا الاحتماء بها.

تهمس سارة بصوت مرتجف:

- سنأكلنا الطيور قبل أن نصل إلى السيارة!

فتؤكِّد نوارة في حسم:

- لن تفعل. سنجري محتمين بالغطاء. لن ينالنا سوى نقرات بسيطة إن شاء الله.

تقوم، فيرتفع الغطاء ليكشفنا، فنضطر للوقوف مثلها. ألفُّ ذراعي حول سارة، وأرفع الغطاء قليلًا بالذراع الأخرى، فيما تقود نوارة المسيرة. شعرها الأشيب المهوَّش، وجلبابها القطني الفضفاض يُطمئِناننني كأنها أم أو خالة، مع أن الفرق بين عُمرينا لا يجاوز بضع سنوات.

يرتطم بنا أحد، أكاد أتوقف لأرى مَن يكون، فتصيح نوارة:

- لا تلتفتي. الغطاء لن يكفي عددًا أكبر. لهم الله..

أرى خشب الأرضية يسرع من تحت قدمَيَّ، ثم يسلِّم الراية للدرج الحجري، ثم للرمال. يرتطم بنا طائر، ويحاول آخر جذب الغطاء، لكنَّ عدد الطيور هنا أقل بالفعل. تخرج نوارة رأسها من الغطاء وهي تأخذ مني هاتفي لتنير به المكان، ثم تركض؛ فنركض خلفها ونحن لا نرى شيئًا.

أسمعها تدق على شيء، وتصيح:

- أستاذ رفعت، افتح لنا!

ثم صوت رفعت مكتوم من وراء حاجز يرُد في حِدَّة:

- ماذا تريدين؟! ستدخل النوارس لو فتحتُ لكم!

يا للخسيس!! الرجل مختبئ في سيارته، ولنحترق جميعًا!

- معي مصابة يا أستاذ رفعت، سنغطي الباب بالغطاء وندخل بسرعة. أقسم لك.

- اختبئوا في أي مكان آخر. أنا أعرف النساء وكيف يتخبَّطن ويُفسدن كل شيء.

ثم أسمع صوتًا سمعته مرارًا في الأفلام، صوت شيء ما يجذبه الرجال في أسلحتهم قبل إطلاق الرصاص. إنه يهددنا...

ترتجف سارة الملتصقة بي أكثر وتردِّد سُبَّة لا تليق برقَّتِها، تصف بها انعدام رجولة الجبان المختبئ. شيء يضربنا، فأكاد أنكفئ على وجهي، وأتشبث بها.. أعتذر.. ترتجف.. تميل وأظنها ستقيء، لكنها تلتقط شيئًا من الأرض، ثم تدفعني وتخرج من الغطاء فينزاح عن ثلاثتنا. أراها تندفع نحو نافذة سيارة رفعت، وتضرب زجاجها بيد ملخطة بالدم وهي ترفع حجرًا وتزعق:

- افتح وإلا هشمت الزجاج، ولنمُت جميعًا!

النورس يهاجم مؤخَّرة رأسها، يجذب شعرها. نوارة تلقِي الغطاء عليَّ وعليها، وتجذب سارة محاولة تهدئتها، لكنَّ الفتاة تزداد جنونًا كلما تألَّمت.. كلما بئِسَت.

تضرب الزجاج وهي تصرخ، يخفي صوتها عن أذنَيَّ رفرفة الأجنحة وتمزق اللحم، وضربات الحجر على الزجاج. تصيح نوَّارة بها:

- لو هَشَّمْتِ الزجاج فلن تصلح السيارة لشيء.

أسمع صوت محرك السيارة يدور، فتتحرك، وأتخيَّل عجلاتها تثير الرمال. لماذا لم يتحرَّك رفعت مبكرًا؟ هل هو مصاب؟

وأتذكَّر السيارة الأخرى، فأقول لنوارة التي جذبتني حتى تتمكن من تغطية سارة التي سقطت على الأرض تصرخ وتسب رفعت:

- نوارة، لنختبئ تحت السيارة نصف النقل.

تنظر لي نوَّارة لثوانٍ، قبل أن تُفسح مجالًا لعين من عينيها، تحدد موقع السيارة المذكورة، ثم تجذبنا تحت الغطاء نحو ما أظنه مخبئًا جيدًا.

لماذا لا أسمع صوت سيارة رفعت؟ لماذا توقَّف؟

نركع.. ننبطح.. نرتجف.. نلهث.. نزحف..

النوارس ترتطم بأي شيء في طريقها، وكل شيء.

الغُبار يدخل أنوفنا فأسعل، نتلاصق تحت السيارة منبطحات، نُحِكم الغطاء قدر المستطاع حولنا... ونسكُن.

أنا أكثرهن سكونًا، فيما لا تنفك نوارة تطل برأسها من وقت لآخر، تنقل لنا ما يجري، وسارة تبكي وتنهنه، وتشكو من ألم قدمها؛ إذ مرَّ فوقها إطار سيارة رفعت.

هذا الخنزير القذر.

وتمر الدقائق ثقيلة طويلة، ونكتم أنفاسنا؛ خشية أن تعرف النوارس مكاننا- أحقًّا

نختبئ من نوارس؟- وخشية.. أن يشاركنا أحد المكان المحدود، أو يحاول طردنا منه.

مرت ساعة تقريبًا حتى ابتعدتِ النوارس، وإن لم تختفِ تمامًا. ربما تنتظر خلف الضباب، تتحين خروج المختبئين حتى تنقضَّ مجددًا. تأخذ نوارة الحجر من سارة، وتزحف ببطء لتخرج، ساحبةً الغطاءَ من فوقنا. تهمس:

- لن نظل هنا للأبد. سألقي نظرة سريعة.

وتخرج نوَّارة، تبتعد بضع خطوات، ثم تتجرأ وتصيح:

- هل من أحد في المعكسر؟!

تنتظر دقيقة، ثم تكرر النداء، ولا مجيب. هل هلك الجميع؟ معقول؟!

- اخرجا.. أمان.. على ما أعتقد..

وتفرد الغطاء، فننضم إليها تحته، وتتقدمنا نحو العشة مهتدين بكشاف موبايلي. لا نجد داعيًا للغطاء بعد دخولنا، فتحمله نوارة على كتفها وهي تحرك الكشاف في أرجاء المكان. أرى الآن المذبحة العجيبة التي وقعت... لن يصدق أحد أن مئات النوارس مَزَّقت أعين وأعناق كلِّ هؤلاء، والتهمت من أجسادهم الكثير... تمامًا مثل ما حدث مع الجثة التي أخرجوها من البحر!!

رباه! رائحة الدم والبول تفوح من المكان؛ رائحة ما كنت لأتخيَّلها حتى في أحلَك رواياتي. سارة ترنو لكل الجثث بعين واحدة، ولا يحرك فيها هذا شعرة. إن الفتاة مصدومة، وحالة ساقها تؤكد هذا، فهي تسير عليها بلا اكتراث لتورُّمها واحمرارها.

تقول نوارة في حزم، وبعينين دامعتين:

- اجمعا حاجياتكما، وفتشا عن ناجين. لا بد أن في مكتب رفعت أسلحة أخرى، وربما هاتف أرضي.

أسألها:

- وهل تجيدين استخدام السلاح؟

- لا طبعًا. لكنه مهم. أي شيء نجده مهم. سكاكين مثلًا.. ارتجلا..

ثم تضيف وهي تنظر إلى ما داخل غرفة رفعت:

- المُنحَط اختار الغرفة الوحيدة المسقوفة، وترك باقي أسقف الخرابة مبنيَّة بالطين والبوص. النافذة مهشمة، لكن يمكن تدعيمها ب... بهذه الخزانة مثلًا.

لقد صنع لنا الرجل سرابًا يليق بأحلامنا وقت وافقنا على المجيء إلى هنا. سرابًا تذروه النوارس. نجمع حاجياتنا، نخطو فوق الجثث التي لم أتشرَّف بمعرفة أصحابها، بل وظننت السوء بهم.

إنه الخزي يا صوفيَّة. الخزي والعار من نفسك وأفكارك..

قبل أن نفتش المطبخ أنا وسارة، نسمع صوت خطوات، ونرى رفعت يدخل. أخبئ سارة خلفي لا شعوريًّا، وأشير لها بأن تصمت. لا أعرف لماذا فعلتُ، لكن بدا لي أنه قد يؤذِينا.

نوارة وحدها في غرفته..

أسمعه يقول لها:

- ماذا تفعلين يا مدام في غرفتي؟ اخرُجي. خذي أغراضك وتوكلي على الله. لم يعد لأحد مكان هنا.

- سأرحل لكن في الصباح، وبعدما يعود ميكيل ليوصلنا، إن كان سيعود أصلًا.

- اخرجي إذًا وانتظري في الخارج. الغرفة فيها أغراضي الخاصة.

- لكنها الوحيدة المسقوفة بسقف غير البوص القذر الذي سقَّفت به هذه الخرابة.

- هذا ما يحبه السائحون، وهذا ما وافقتم عليه. أعرف أن المكان لا يهم طالما اتفق العاشقان على اللقاء... أم أقول العُشَّاق؟

- أي عشاق؟ أنت سافل!

- كما تشائين، لكنها الحقيقة، وهذا المكان لا يَقرِق عن أي شقة مفروشة قذرة في حواري القاهرة، ولا أحد يشكو هناك.

- أنت مصمم على هذه الإيحاءات القذرة؟

أسمع صوته يضحك، ويكرر أمره لها بالخروج، فتخرج. يُغلَق الباب، فأظهر أنا وسارة من نهاية الممر القصير حيث الغرف. تقول لنا نوارة بصوت منخفض:

- هذا السافِل الوضيع مصاب وينزف، لذا لم يبتعد. على أي حال، معي هذه...

ورفعت أمام أعيننا حقيبة الإسعافات الأوليَّة الخاصة برفعت؛ تلك التي تحوي أدويته وأدوات إسعاف أفضل من تلك في الحقيبة التي أخذها ميكيل.

- خبئيها.

تشير لنا نوارة بالخروج من الخلف. ما إن نخرج حتى تلوِّح لنا بمفاتيح سيارة رفعت نصف النقل. تسألنا:

- هل مِنكما من تستطيع القيادة؟

في بؤس نهز رأسينا نفيًا، فتزفر وتضع المفتاح في جيب جلبابها، وترفع مسدسًا صغيرًا من حقيبتها الصغيرة وتعيده إليها في يأس، لا علم لنا بعالم الذكور هذا. تجلس على الأرض، وتحاول الاتصال بالرجال... لا شبكة.

نجلس، ننظر إلى الضباب، وتسأل سارة في شرود ونوارة تضمد قدمها:

- ماذا حدث؟ ولماذا؟! أريد العودة إلى القاهرة..

تعانقها نوارة وهي تكمل حبل التساؤلات:

- لا أعرف سبب هذا الهجوم العدواني. شيء غير منطقي يحدث. هل له علاقة بالحُمى المالطية أو وباء مشابه تفشَّى ولا يعرفون ذلك بعد؟

أقول لها:

- أو يخفون عنا الحقيقة. أو لا يبالون.. كيف سنعود إلى القاهرة إن.. لم يعد رامي

ART_OF_BOOK

- لا أعرف. ربما نرغم هذا الخنزير بالداخل على توصيلنا للقرية، أو ربما يظهر الرجال الذين يساعدون ميكيل، أو الرعاة أصدقاء أبو أحمد. نحن لسنا في الفضاء الخارجي. سيظهر أحد.

أنظر إلى قدمَيَّ في الكوتشي المبتلِّ بالدماء، وقدمَيْ نوارة الحافيتين، وإلى فَردة الخف المتشبع بالرمال والدم في قدم سارة السليمة، وأمد يدي إلى رأسي... شعري البني الكثيف مكشوف كالفضيحة؛ لقد فقدت حجابِي. دون حرف، أفرد غطاء نوارة فوقنا، وأحكِم طرفه حول شَعرِي...

***

أظنني غفوت وأنا أسمع حوارًا هامسًا بين نوَّارة وسارة. كلامًا عن الحب والهجر وإلقاء الذات في بحور الكتابة؛ هربًا أو انتحارًا، ثم مخاوف عن الماضي والحاضر والمستقبل، عن الناس والنوارس والرصاص والمناقير والصحراء والبحر والليل والنهار والموت والحياة.

ثم أستفيق على هزَّات نوَّارة لجسدي وهمساتها:

- لقد جاء ميكيل. أسمع صوته!

تتسع أذناي- إن كان هذا ممكنًا- ويدق قلبي. لقد جاء أحد أخيرًا. تقوم نوارة من تحت الغطاء، تعدو نحو ميكيل ورامي والعربة التي يجرُّها حمار هزيل. أبحث في

@ART_OF_BOOK

حقيبتي عن إيشارب آخر، وأغطي به شعري، ثم أُعِين سارة على القيام.

تعانق نوَّارة ميكيل ورامي في سعادة، ثم تنظر إلى حمولة العربة وتغطي فمها بيدها ذعرًا. أمشي وسارة إلى المجموعة خلف الضباب الخفيف. أبتسم وألوِّح لهما وأنا أذكِّر نفسي بمحاذير التلامس الجسدي التي عاهدت نفسي عليها. احذري؛ منطقة خطر! جهد عالٍ!

يسأل ميكيل ورامي يلف ذراعه حول سارة، يهدهدها:

- ماذا حدث؟!

وهو السؤال نفسه الذي طرحته فور رؤيتي جثة أبي أحمد، وسليمان فاقد الوعي. تحكي نوارة ما حدث بسرعة، ثم تختم:

- لا بد من طلب مساعدة أو الاتصال بالشرطة أو أي شيء! و.. ماذا حدث لكم؟ وما هذه العربة؟

لا يجيب ميكيل، بل ينطلق إلى العشة بمِشية عصبية تكاد تُشعل النار تحت قدميه. يحكي لنا رامي ما حدث، فتتسع أعيننا، وتتعالى الشهقات. نحن في كارثة حقيقية... كارثة غير متوقَّعة! بهائم تنطح أوتوبيسًا وشاحنتين وتقلبها، ونوارس تقضي على عشرة أشخاص على الأقل؟!

يقول رامي:

- يجب أن نفكِّر بهدوء. أولًا سنجمع حاجياتنا ونركب شاحنة ميكيل إلى شلاتين،

ومن هناك نعود إلى محافظاتنا بأي طريقة. المكان غير آمِن، خاصة مع هذا الخُصّ المتداعي.

تهمس سارة:

- وستعود عيني سليمة، أليس كذلك؟ سنذهب إلى المستشفى؟

- نعم.. لا تقلقي. بسيطة..

أرى ميكيل عائدًا ومعه رفعت المُسَلَّح، بسروال متسخ بالدماء الجافة، وقد ربط خصره بقطعة قماش. يقول رفعت في غضب:

- ما لي أنا ومال كل هذه الجثث؟ إن كان سليمان سيموت أو يذهب إلى داهية فليفعل بعيدًا عني. هو مسؤول عنكم.

تقول نوَّارة في تحدٍّ:

- أنت مسؤول عنا أيضًا. أين اشتراطات السلامة في هذه الخرابة؟! سنقاضيك حتى تبيع سروالك الداخلي يا رفعت!

- قاضيني! أعلى ما في خيلك اركبيه! وأنتَ يا ميكيل، لا تضغَط عليَّ أكثر من هذا. اترك سيارتَيَّ وشأنهما. الشرطة قادمة والأفضل أن تختبئ عن أنظارها حتى ترحل. مفهوم؟ وأنتَ أيها الشاب؛ يقصد رامي، يكمل رفعت وعيناه تنضحان اشمئزازًا كأنه يكلم ديدان:

- ... لن تذكر اسم ميكيل. أنت عرفت بأمر انقلاب الأوتوبيس، فذهبت مشيًا

ART_OF_BOOK

إلى القرية و... أُكمِل ما حدث دون ذكر وجوده على أي حال. هذا لمصلحته، لا لمصحلتي.

لا أصدِّق ما أسمعه، لكن ما قاله تاليًا زاد شعوري بأنني في كابوس حقيقي:

- آه، وبمناسبة القضية.. مَن قال إن هذا المكان منتجعًا أو معسكرًا؟ هذا بيت خاص، وأنتم كنتم ضيوفًا فيه، أتى بكم سليمان لقضاء بضعة أيام على البحر. قاضِني؛ لأن بيتي غير مطابق للاشتراطات، لكن استُرِي نفسك أولًا.

تلتوي شفتاه المكتنزتان تحت شاربه الكثيف بابتسامة قذرة وهو ينظر إلى ما كشفته الشمس من هيئة جسد نوَّارة وما ترتديه تحت جلبابها الفضفاض الأبيض. أمدُّ لها يدي بالغطاء الذي سحبتُه معي تحسُّبًا، فتضرب يدي وهي لا ترفع نظرها عن وجه رفعت. تقول:

- استر أنتَ نفسك وأحكِم سترها. أنا امرأة ولا عيب في ذلك، وأنت خَنِث!

تحمرُّ أذناي من وقع الكلمة، بالإضافة إلى ألمِ كفي إثر ضربتِها. أتراجع ببطء عن دائرة الشجار، ورامي يهتف:

- هذا ليس وقت شجار. وأنت يا أستاذ رفعت، تحمَّلنا وكن أنت الكبير حتى النهاية. سننتظر الشرطة، وسنطلب منها نقلنا إلى شلاتين، ولن نذكر ميكيل. أهذا يرضيك؟

هزَّ رفعت رأسه ببطء، ومشى مترنحًا إلى العشة. ظل ميكيل متصلبًا، حتى سأله رامي:

@ART_OF_BOOK

- هل أنت في مصر بلا أوراق رسمية؟

وافقه ميكيل بلا كلمات، فأضاف الشاعر:

- أنت هارب أم مهاجر غير شرعي أم ماذا؟

تلمح نوارة ضيق ميكيل من السؤال، فتقول وهي تجذبني نحوها، تربِّت على كتفي اعتذارًا:

- ليس هذا وقته. لنجمع حاجياتنا هنا وننتظر الشرطة. ماذا ستفعل يا ميكيل؟ إلى أين ستذهب؟

- سأكون في الجوار. لا تقلقي.

يبتعد ميكيل إلى مكان لا أعرفه، ويجُر رامي الحمَّار العنيد جرًّا نحو العشة، كي نريح المريض في الظل، وننقل المتوفَّى إلى حيث الآخرين، ثم نجلس نحن الأربعة؛ أنا ونوارة وسارة ورامي، على الدَّرَج الحجري، ننظر إلى النوارس فوق البحر، وننتظر.

***

وننتظر حتى العصر... ولا يأتي أحد. يعود ميكيل محمَّلا بحقيبتَيْ ظهر من حقائب التخييم، يضعها أمامنا ويقول بالعربية:

- لن يأتي أحد. إما استهتارًا، وإما... وهذا ما أخشاه... المشكلة أكبر من قدرة الشرطة هنا على التصرف.

فيقول رامي:

- كلام معقول. لا يمكن أن يكون القطيع الذي هاجم السيارات هو الوحيد، ولا بد أن النوارس هاجمت منتجعات (حقيقية) أكثر أهمية من هذه. أنا أشك أصلًا في أن رفعت اتصل بالشرطة.

- سنركب الشاحنة. رامي، املأ الجراكن البيضاء بالماء من الخزان، وأنا سأبحث عن أخرى لملئِها بالديزل من مولِّد الكهرباء.

تسأله نوارة:

- هل رفعت مصاب؟

- نعم.

- هل ستتركه؟

- معه سيارته، ولديه غرفة محصَّنة لو هاجمت النوارس. هو حُر.

- هل تحتاج إلى هذا؟

وترفع نوارة أمام عينيه مفاتيح الشاحنة. يكاد يمد يده يأخذها، لكنه يقول لها:

- احتفظي بها معكِ حتى أطلبها. أستطيع تشغيل السيارة دونها على أي حال. شكرًا.

وذهب الرجلان ليُتِمَّا التجهيزات. بعد دقائق أسمع رفعت يخرج من غرفته وهو يسأل

@ART_OF_BOOK

بصوت مُنَغَّم خبيث:

- مَن منكن أخذت مسدسي وحقيبة الإسعافات الأولية؟ طبعًا القوّادة الكبيرة.

التفتنا خلفنا لنراه يتحرك بصعوبة نوعًا، ووجهه محمرٌّ متعرِّق، يرفع بندقيته نحونا ويكرر:

- هاتي السلاح والحقيبة.

- ليس معي شيء. فتشني.

- بكل سرور.

وينقضُّ عليها- لم نتوقَّع هذا- فتسقط على ظهرها على الدَّرَج وساقاها إلى أعلى. يجثم الرجل فوقها، يثبتها في مكانها بين فخذيه، ويصوب فوهة بندقيته نحو جبهتها ويقول:

- هاتوا أغراضي.. ولا تُصدِرِنَّ صوتًا.. اتفقنا؟

أرتجف.. أصارع الهرب والاختباء. ينحشر صوت في حلقي، فيما تحدق سارة إلى السلاح كأنها تمثال. تركل نوَّارة وهي تمسك ماسورة السلاح بيديها، تحاول إبعادها فلا تستطيع. ينقل رفعت فوهة السلاح إلى نهدِها -وله فحيح كالأفعى- ويغرسها فتصرخ نوَّارة ألمًا، وهو يكتم فمها وأنفها بكفه:

- اسكتي.. لا داعي للصراخ الآن. سيكون الفراش لنا ليلًا لو طاوَعتِني.. هه؟

أعتقد أن الرجل محموم. كلامه ممطوط غير مترابط، وعِقال لسانه مفكوك، حتى أنه راح يوضِّح ما سيفعله بها لو وافقت على المكوث معه في الأمان. يضيف الخنزير أخيرًا وهو ينظر لسارة:

- لا، أنتِ صغيرة لن تتحملي..

ثم ينظر لي وهو يبتسم، وأرى رغوَة بيضاء تتكون في ركني فمه وهو يقول:

- أنتِ تصلحين، خاصة لو فعلناها وأنتِ ترتدين الحجاب.. أو النقاب.. أو أيًّا ما تفضلينه يا حلوة. أنا أفضَل من ذلك الأسوَد، لكنَّ للسود سُمعة لا يستحقونها.. جربيني.. لست خبِث كما تقول.

تميل نوَّارة بجسدها بقوة، فأصرخ خشية أن يطلق الرصاص، لكن رفعت يهتز قليلًا، فتعضَّ نوارة كفه بقوة حتى يصرخ هو، ويطلق الرصاص ليصيب الدرج الصخري ويرتد عنه إلى أعلى. الصفير يصم آذاننا، لكن نوارة تستمر في العض، حتى يسيل الدم من كفه.

يبتعد عنها أخيرًا ويجثو على الأرض يمسك يده. تبصق نوارة الدم ورامي يأتي مسرعًا، ينادي بأسمائنا. يرى المنظر، فيهرع إلى البندقية يمسكها من طرف، ويمسك طرفها الآخر الخنزير المحموم.

تصيح نوَّارة:

- صوفيَّة! تحركي!

يعجز مخي عن نقل الأمر إلى عضلاتي. كل ما أرغب فيه هو... الركض والاختباء خلف الأريكة نفسها التي حمتنا من هجوم النوارس، فتقوم نوارة مترنِّحة، تبحث عما تضرب به رفعت على ما أعتقد. يجذب رفعت البندقية وهو يسُب ويقول:

- يأتي العُهَّار هنا من كل مكان، ولا أذوق منهم شيئًا كأنني أجرَب! دعني أتذوق وسأدعك تتذوق! اتفقنا؟ هه؟

يركل رامي وجه رفعت، فيفلت الأخير البندقية. يهتف رامي بنا أن نذهب إلى الشاحنة، ويصوِّب البندقية نحو الشيء الخبيث الدامي المكوَّم على الأرض.

- لا أريد أن أقتل أحدًا. إبقَ مكانك وسنرحل ونتركك وشأنك..

- اترك الزانيات هنا، وهذا ما جئن له.. أنتَ تعرف..

تصيح بي نوَّارة كي أخرج من مخبئي، نظراتها الحانقة تنعتني بالجبن، تلومني، تكبِّل حركتي. للحظة لعينة سوداء أفكِّر في المكوث هنا. ليرحلوا هم.. هنا أكثر أمنًا.. لو داهنتُ رفعت ربما سيزهَد فيَّ.. ربما لن يؤلمني.. ربما...

- هيا أيتها الجبانة!

وترحل نوَّارة مع سارة التي لا تنقل عينيها عن البندقية، حتى أنها لفَّت رأسها إلى أقصى درجة كي لا يغيب السلاح عن عينيها.

يقول رامي في صبر:

- هيا يا مدام صفيَّة!

رفعت يقيء على الأرض، يتألَّم، ينتفض.. ثم يرقد على جانبه وهو يضحك ضحكات واهنة، ويتخيَّل أنه يضاجع نوَّارة، ينعتها بأقذر الألفاظ، ثم تختلط النساء في ذهنه. نوارة، صوفية، هبة.. سارة.. مديحة.. رحمة ميرفت تريشا راشيل...

أخرج من خلف الأريكة ومعي الوسادة السخيفة، أخرج بسرعة ومن خلفي رامي ينادي على ميكيل.

نصل إلى الشاحنة، ونفطن إلى أننا تركنا سليمان هنا. يقول رامي:

- سيأتي ميكيل وسنعود لأخذ سليمان. لن أعود وحدي.

أنظر إلى سارة.. وجهها محمرٌّ، عينها المتبقية محدِّقة خاوية...

ما المرض الذي نقلته النوارس إلى سليمان ورفعت، وأصابهما بالحمى بهذه السرعة؟ أمد يدي إلى جبهة سارة لأجدها محمومة بالفعل. أتبادل النظرات مع رامي ونوارة، فتُخرِج الأخيرة حقيبة الإسعافات وهي تقول:

- ربما ساعد المضاد الحيوي سليمان على.. لا أعرف.. على التماسك.. امسكي..

وألقت إليَّ بعلبة مضاد حيوي وشريط مضاد للالتهاب فيه أربعة أقراص. دسست قرصًا من كل نوع بين شفتي سارة، وسقيتها من زجاجة مياه معي. ابتلعت القرصين بصعوبة، ثم فتحت نوَّارة كابينة السيارة وأدخلتها، وغطَّتها بالغطاء المبقع بالدم.

- أين ميكيل؟

سؤال مهم يا رامي.. أين ميكيل؟

***

يبحث رامي عن ميكيل، ويمر الوقت بطيئًا. الشمس فوق رؤوسنا، ونخشى العودة إلى الظل بالداخل. صوت نهيق الحمار يعلو وهو يجر العربة ويقترب منا ببطء. الذباب يجتمع حول عينيه وفمه. ينهق.. يرفس..

نوارة خلف المعكسر تغيِّر ملابسها، فأنادي عليها:

- نوارة.. الحمار.. لا يبدو بخير..

تخرج نوَّارة بسرعة وهي تزرِّر بلوزتها الجينز الطويلة، وتضيق عينها لترى ما أراه. تهتف:

- إلى السيارة.. بسرعة..

يعلو النهيق، يتوقف الحمار وسط الرمال قليلًا، يأكل من الكيس المعلَّق حول رقبته، ثم ينثر ما أكله في الهواء، وينهق..

صوت إطلاق رصاصتين قريبتين. ننمكش أنا وسارة في مقعد السائق، وتجلس نوَّارة خلف المقود، وتضع المفتاح في الكونتاكت. لن نتحرَّك طبعًا، لكن يبدو أن نوَّارة مستعدة للارتجال في أي لحظة.

- نوَّارة.. لو تحرَّكت السيارة في اتجاه خاطئ فربما ندخل على البحر أو نضرب حائطًا..

@ART_OF_BOOK

- هل من بديل لو هاجمنا الحمار كما هاجمت الماشية الأوتوبيس؟ احتمال النجاة بارتجالي أكبر.

أتمنى ألا نضطر لهذا.. يقترب الحمار أكثر، يدور حول جدار العشة إلى حيث ملابس نوَّارة المتسخة بالدم، ويتشممها كأنه كلب، ثم يلوكها!

تدير نوَّارة المفتاح، فتمزجر السيارة كأنها تضحك، وتلقي بنا إلى الأمام ولا تتحرك.

تدير نوَّارة المفتاح إلى الخلف وتنظر لي مستنجدة. أقول:

- لا أعرف! جربي مرة ثانية واضغطي مثلًا على أي دوَّاسة بالأسفل!

الحمار يلوك الجلباب وهو يقترب منا، يتشمم الأرض المبتلة بالدم المتجلِّط، ويجذب وراءه العربة التي عجز عن الوصول إلى خشبها الملوث. تدير نوَّارة المفتاح مرة أخرى، وتضغط دوَّاسة عشوائية، فتقفز السيارة إلى الأمام مجددًا، وتتحشرج.

يمشي الحمار إلى جوار السيارة، يتشمم الباب وما علَّق به من دم نورس جاف، ويلعق... عيناه الداكنتان المحاطتان بالذباب تنظران إلينا في اشتهاء.. أهو هكذا يُخَيَّل لي..

تجرب نوَّارة مرة أخرى مع بدَّال مختلف، فتدور السيارة. تسألني:

- ماذا أفعل؟ دارت! كيف نتحرك؟

- أ... أ....

أستعيد ذكرى ركوبي السيارة مع طليقي -وقت كان خطيبي- الذكرى ضبابية، لا أرى

@ART_OF_BOOK

منها إلا إطار نافذتي والمرآة الجانبية.. أتذكَّر احتكاك كفَّه بجانب فخذي وهو يحرك ناقل السرعة، فأجفُل وأضم فخذَيَّ، وألتصق بالباب.

- إنهم.. يحركون ناقل السرعات.. جربي.

تجرِّب نوَّارة، فلا تتحرَّك. تضغط دوَّاسة أخرى، تبدِّل بين الدوَّاسات..

الحمار يضرب الباب برأسه بقوة.. ضربة.. تلو.. الأخرى..

- أسرعي!

- ماذا أفعل؟! إنها لا تتحرك!

تضغط نوَّارة النفير بكل قوَّتها وذعرها وغضبها، فيجفُل الحمار ويبتعد خطوة، ثم يعود.. للضرب.. مجددًا..

ضربة..

ضربة..

صوت النفير يحرق أعصابي، أسد أذنَيَّ بلا نتيجة. صوت طلقات نارية بعيدة.. طلقات كثيرة متفرقة..

يُلصِق الحمار أنفه اللزج بالزجاج، فتستدير سارة المحمومة نحوه ببطء.

صوت النفير.

طلقات الرصاص.

محرك السيارة يضحك ساخرًا..

تكشِّر سارة وتكشف عن أسنانها وتقترب فجأة من النافذة وتضرب عليها، وتسب رفعت. أحاول تهدئتها، فتدفعني وتضرب النافذة من جانبنا، ويستمر الحمار في الضرب من ناحيته.

أصرخ أنا في هيستريا:

- كفى! كفى!

لا أعرف كم ردَّدتها، ولا أعرف كم دفعتُ سارة عني ولا كم ركلت أرضية السيارة بقدمَيَّ. كفى! أريد ابني! أريد ابني! أريد غرفتي ومخابئي وأسلحتي القطنية!

- نوارة! افتحي الباب وأفسحي!

أفتح عينَيَّ، لأرى رامي قادمًا من خلف العشة، يرفع بندقية رفعت ويعدو كأنه مُطارَد. يلتفت إليه الحمار وينهق، فيطلق عليه رصاصة. تدفعني نوارة وتجلس فوق سارة حرفيًّا، ويركب رامي سريعًا.

- السيارة معطلة!

ينظر لها رامي متسائلًا للحظات، ثم يدير المفتاح بطريقة مختلفة قليلًا، ويبحث عن شيء ما حتى يجده:

- مكابح اليد كانت مرفوعة!

وتنطلق السيارة، تثير الرمال خلفها. يحاول الحمار الركض خلفنا، لكن العربة الثقيلة تُكبِّله، وجرح رقبته ينزف فيسقط على ركبتيه، ثم ينكفئ على وجهه.

ينهق..

تسأل نوَّارة رامي:

- ماذا حدث وأين ميكيل؟

يجيب رامي في اقتضاب:

- لم أجده، لكني وجدت أشلاء رعاة في كل مكان. لا أريد أن أرى هذا المشهد مرة أخرى تحت أي ظرف. يجب أن نغادر هذا المكان الموبوء.

***

عَجَبًا لغزال قتَّالٍ.. عجبًا!

ياسر...

أُمسِك ميكروفون المدرسة في الطابور الصباحي، وأقول بصوتي الأجش المكتوم- لا بصوتي المسرسع الطفولي-: هل تعلم؟ هل تعلم أن اليوم في أبي رماد 75 ساعة، أو 134 ساعة، وقد يمتد في بعض الأحيان إلى سنوات؟

هل تعلم؟ هل تعلم أنني أتدلَّى الآن من حافة مصر كمفتاح من ميدالية، وأنني أتدلى منذ خمسة أشهر، أو ستة سنوات، أو خمسة وثمانين قرنًا، أو دهرين إلا ربع؟

أضحك، وأضع فرشاة شعري -ميكروفون المدرسة المبتل ببصاق الأطفال- على المنضدة الخشبية أسفل المرآة ذات الإطار البلاستيكي. لا أرى في المرآة عادة إلا رُبع وجهي، ولو أردت أن أرى وجهي كله، فلا بد أن أبتعد مترين عنها.

لكنني لن أتحمَّل الابتعاد أكثر، ولن أتحمَّل رؤيته كاملًا. ما الداعي؟ كي أتزيَّن؟ لمَن؟ للجِمال والماعز والغبار والبحر والكلب الذي لا ينفك يعوي خارج باب مسكني المطل على الخواء؟

خمسة أشهر، 132 يومًا بالتمام منذ وصلت إلى أبي رماد، وهي أرض لها من نصيبها اسم. كانت هنا بحيرة فوسفات، والرماد هو رماده. تخيَّل أن تُنفَى إلى مكان أرضه رماد فوسفات، كأنه الجحيم بهوائه الكبريتي.

فكَّرت في غرس لافتة عند مدخل أبي رماد، أكتب عليها: يا مَن تدخلون إلى مثلث حلايب، اتركوا وراءكم أي أمل.

وتحتها بخط أصغر: مدينة أبي رماد ترحِّب بِكم، البحر أمامكم ولا شيء وراءكم.

الساعة السادسة والنصف، والبلدة مستيقظة منذ ساعات. مَرَّ شهر تقريبًا منذ توقَّفوا عن استقبال أي زوَّار راغبين في تذوُّق فطور اللحم المشوي- السلات- على الحجر، واكتفوا الآن بالفول والطعمية والجبن والبيض، ولبن الماعز أو الإبل الشبيه بماء غسيل أوعية الحَلب. أفتقد حليب الأبقار الدسم الذي تربيت عليه في بيتنا، وإن كان أهل أسوان يألفون بعض هذه العادات، إلا أنني لا آلَفُ إلا بيتَ أبي وأفتقده، كما أفتقد كل شيء كنته وكل ما كنت لأصل إليه.

يقال: إن الحُمى المالطية ضربت بعض القطعان في الجنوب، وقرأت الخبر على فيسبوك، بل ورأيت رعاةً يحرقون جثث حيواناتهم النافقة، لكن لم يتغيَّر شيء. الرعاة يرعون في جبل علبة، ويأتي التجَّار من الصعيد يشترون وينقلون القطعان إلى أغلب المحافظات، ناهيك بمسيرات الجِمال -الدبوكة- المهيبة التي تدخل من السودان عبر منفذ رأس حدربة، وتقطع قرابة خمسة عشر كيلو مترًا إلى شلاتين.

أي أن الخلاصة هنا أنني محاط بالبهائم ذات الحوافر وذات الأقدام. سيَّان، وكلاهما مصاب بالسُّعار أو الحُمى المالطية أو البلاء الأزرق الذي يجعل العيش هنا مستحيلًا.

لو خرجت في البكور- كما أفعل الآن- لتعثَّرت في حواوشي؛ الكلب البلدي باهت اللون الذي يلازمني كظلي، ولَلَعَنْت اليوم الذي اضطررت فيه لتضميد كسر في ساقه الخلفية. يظل حواوشي يلف حول قدمَيَّ ويعوي ويتقافز ويلعق يدَيَّ، فأضطر إلى ركله. حواوشي لا يشعر تقريبًا، فهو لا يكترث للركلة، لكنها تبعده قليلًا، وتفرغ شيئًا من حَنَقي قبل مواجهة العالم الجديد الضيق.

يوم وصلت إلى أبي رماد -منذ الأزل تقريبًا- رغبت في معرفة مساحة سِجني. كأن المساحة ستفرق، لكن أغاظني أنني لم أجد على الإنترنت أيَّ معلومة عن هذا المكان، وكأنه بالفعل مكان رمزي، عقاب روحي، أعراف؛ لا هي جنة ولا نار.

فتحتُ الخريطة على الهاتف، وضعتُ دبوسًا في مركز أبي رماد، وبدأت أحسب بطريقتي... طريقة المهندس الذي لم يبقَ له من الهندسة إلا العادة- لا تحتاج مساكن أبي رماد الجديدة إلى مهندس، بل إلى بنَّاء بأقراص الجِلَّة- وسحبتُ خطًّا صغيرًا شرقًا،

وآخر شمالًا، ونظرتُ إلى فرق الإحداثيات: حوالى 013.0 درجة في العرض، وقرابة 020.0 درجة في الطول.

درجة العرض تساوي تقريبًا 111 كيلو مترًا، والطول عند خط عرض 22 يكون أقل قليلًا، في حدود 103 كيلومترًا. أجريت ضربًا سريعًا، وجدت أن محصلة الأرقام تعطيني مستطيلًا صغيرًا، لا تتجاوز مساحته ثلاثة كيلو مترات مربعة.

هذه هي أبو رماد؛ البلدة التي يتعامل معها أهلها كأنها صحراء لا تنتهي، وحساب بسيط يكشف أنها لا تزيد عن بقعة يمكن مسحها بطرف ممحاة من على خريطة.

أحبُّ هذه الأرقام... صريحة لا تنافق، ولا تحمل معنى سوى معناها الحقيقي.

أمشي إلى موقع بناء وحدات سكنيَّة للمحليين، وهي وحدات أعرف أنهم لن يسكنوا فيها، إما لسعرها، أو موقعها، أو عدم وصول الخدمات لها، مثلها مثل ملايين الوحدات السكنيَّة التي تُبنى فقط لتمرير « سبُّوبة» من تلك التي مددت عينَيَّ إليها ففقؤوها لي. هذا طعام الآلهة أيها الصعلوك. لا بد أن أتذكَّر هذا، وقد نفَوْني إلى حيث أنتمي؛ إلى صحراء الدواب.

لم تتحسن علاقتي بالمحليين هنا، فأغلبهم لن يردوا عليك سلامًا إلا بعد الرجوع إلى شيخ القبيلة، وهي حجَّة طبعًا لتحاشي الحديث عن آرائهم في المعيشة أو الأوضاع السياسية أو أي شيء من شأنه إرسالهم إلى منفى المنفى، وجحيم الجحيم.

إلَّا أنَّ ما يجري منذ شهرين تقريبًا أزاح شيئًا من هذا التحفُّظ، وهو أمر لم يرُق لي، لكن هذا ما حدث. كان الصيادون في الميناء-أُنشئ لهم ميناء وأسواق ومصنع ثلج

ظلت كلها مرتعًا للكلاب والحيوانات الضالة- قد لاحظوا نفوق عدد من النوارس، ثم لاحظوا غرابة تصرفاتها وعنفها، وطيرانها الليلي، بل ومهاجمة الصيادين ليلًا. على صعيد آخر، لاحظ الرعاة اهتياج ما يرعون، ورفضهم لمأكل اعتادوا عليه منذ زمن. آخِر ما أثار عاصفة الشائعات أن البهائم تأكل بعضها البعض، بل وتلتهم الجِيَف أحيانًا.

أعتبر أن هذه الشائعات الأخيرة من قِبل الأساطير والحكايات لا أكثر. شيء يحرِّك مياة المعيشة الراكدة، ويمنح الرعاة بطولة وهمية، وحكايات يتداولونها عن الراعي المغوار الذي ذبح الجمل المسعور بعدما مزَّق عشرة رجال وعَشرُمائة عنزة، ومائتي مليون طفل. هذا عريس لا يُرفَض!!

مثل هذا العريس الذي دعوني إلى حضور زفافه اليوم. لم يُحدِث هذا لسبب سوى أن الحاج نوار البشاري- التسعيني- كان في أبي رماد مع جَدْيٍ هائلٍ، يبدو أنه كان سيبيعه أو يذبحه أو يرميه في البحر، لا يهم، المهم أن هذا الحيوان أفلَت منه وسط السوق، وكنت أنا هناك. لم يُفلِت بشكل طبيعي، بل عضَّ الرجل فجأة، وطاح في الناس يركل ويَعَضُّ حتى وجدته أمامي..

وكنت غاضبًا.. حانقًا مستعرًا.

ما السبب؟ أليس ما ذكرته كله سببًا يحولني إلى قنبلة نووية؟

لم أشعر إلا وأنا أقبِض على شعر الشيء المهتاج القبيح، وأكيل له الركلات في بطنه الطري. كنت أرى كل شيء أحمر، وللحظة اختلطت الوجوه السمراء ذات الجلابيب البيضاء حولي بصورة أهلي سُمر البشرة بيض الملبس. يلومونني.. يطالبونني بطول البال

والهدوء.. فأزداد حَنَقًا..

ألكُمُ عينَ الحيوان ورأسه، لولا لحق بي الشيخ واسْتَلَّ سِكينًا من نِطاقه فذبحه، لكنتُ أجهزت عليه.

هدأ الشيء المقيت أخيرًا، وهدأتُ وقد اتسخت ملابسي بالدماء. كنا نهارًا، فأخذني الحاج نوَّار إلى مقهى- مجلس تحت شجرة يغلون فيه القهوة بالزنجبيل- وشكرني وحكى لي حكايته التي لا أتذكر منها شيئًا. أحاط بنا يومها الناسُ من القرية، يسمعون الحكاية ويشاركون بما لا أهتم لمعرفته. جلاليب بيضاء فوقها صديري أسود، سراويل قماشية، تعلوها بطون خلف قمصان منقوشة متعرقة، سراويل جينز وتيشيرتات، نظارات شمس وأوشحة، كاسكِتَّات وعمائم، عَرَق وعطور وبخور وروث قديم. أشكال وألوان، خلطبيطة لعينة الهدف منها شُكري، ومعرفة ما يخفي الباشمهندس وراء نفيه.

في النهاية دعاني الشيخ إلى زفاف حفيدِ صديقٍ له من البشارية، وهو الزفاف الذي قد أذهب إليه اليوم، لا لسبب سوى رغبتي في معرفة ما أغفله عقلي المشتت من حكايات، ربما تفسر ما يجري هنا.. وهناك.. شمالًا.

***

خدمة الإنترنت هنا ليست جيدة، لكنها موجودة، القرية تعجُّ بالمَحَالِّ التي تبيع الموبايلات وتشحن الباقات. هذا جزء لا يتجزأ من خلطبيطة المكان. ما يهمني هو أن الإنترنت موجود، وأخبار الحياة تصل إلى هنا خلف ستار الموت.

أجلس الآن في الموقع، وحواوشي متكوِّر عند قدمي، أحاول التظاهر بأنني مهندس

عادي، في حياة عادية. وبما أنني مهندس منفيٌّ -مغضوب عليه مع الضالين- فإن عملي مزيج من رسم الخرائط، وتنسيق الأعمال، وتعديل بعض المخططات في الموقع، وتفسير بعض التعليمات الهندسية للعمال غير المتعلمين- مع الكثير من السِّباب الذي يَشفِي غليلي- والتأكد من استخدام المواد بشكل صحيح لتجنب الهَدْر، وإرسال تقارير قصيرة لآلهة الأوليمب عن التقدم أو العقبات، وفي أوقات فراغي يوكَل إليَّ مهمة تحميم العُمَّال وتغيير كَوافيلهم وتدفئة الرضعات لهم. كل شيء فوق رأس ياسر، كل شيء حتى جمع خِراء حواشي؛ لأنه سيلوث الصحراء الطاهرة. أليس كلبي؟

باختصار، كنت جالسًا على مقعد بلاستيكي ضربته الشمس حتى نخرته، أستمتع بالعمل مرمطونًا، وأبحث على الصفحات الإخبارية عن خبر قد لفتني منذ عدة أشهر- أو أعوام، أو قرون- تذكرته الآن وأنا أستعيد يوم معرفتي بالشيخ، وأتهيأ نفسيًّا لحضور الزفاف.

وأخيرًا وجدته...

أخبار ▾ رأي ▾ ميدان ▾ متخصصة ▾ محليات ▾ فيديو

هم الآن سوريا فلسطين السودان أوكرانيا

علوم

شاهد.. علماء يوثقون وجود سناجب آكلة للحوم لأول مرة

آخُذ سكرين شوت للخبر، وأبحث عن أخبار مشابهة، خاصة وشائعة الحُمى المالطية تتفاقم ويزيد عليها الناس من عندهم تفاصيل عجيبة.

وجدت أيضًا هذا الخبر القديم نوعًا:

الشرق الأوسط

سيدة تتصل بالطوارئ الأميركية بعدما طاردتها 100 راكون جائعة

حاصرتها وخدشت سيارتها ممارسةً سلوكاً عدوانياً

كان وَشَقًا قد عقَر مجموعة بشرية نجسة يقال عنها «إسرائيليون» وهو أمر غريب على طبيعته المنطوية الانعزالية. أتذكر الخبر جيدًا؛ إذ إنني وجدته وقتها طريفًا للغاية. ما الذي يمنع حيوانًا انعزاليًا من تمزيق مؤخّرات أولاد الزنا هؤلاء، إن كانت حيوانات أخرى متكلِّمة تأبى حتى الاعتراف بأنهم أحقر مَن أنجبتِ الأرض؟ الأرض قلّابة كبطن الأمهات، ومَن أنجبتْ بشرًا متخاذلين قادرةٌ على إنجاب حيوانات مُبادِرة تَشفِي الغليل.

أنظر إلى حواوشي، فينظر لي دون أن يرفع رأسه، أسأله:

- وماذا بعد؟ هل أذهب للزفاف؟

فيزوم ويهز ذيله كأنه استحسن الفكرة. سأذهب، وسأنصِت هذه المرة. أرفع عينَيَّ إلى السماء فأرى النوارس قد غادرت بحرها وتدور فوق الصحراء، بعضها يطارد أسرابَ حمامٍ بحري محلي، فيُسقِط بعضها.. لكن لا أحد يلاحظ.

***

مع أنني آلَفُ بشاريَّة قمحات في أسوان، ممن يربون الدجاج البجاوي الشهير الذي صار يسمَّى دجاجًا فَيُّومِيًّا فيما بعد، إلا أن قبائل البشارية هنا مختلفون، فهم البشارية أولاد بشار ابن كاهل من نسل الزبير ابن العوَّام من سيدة بجاوية. والبجا أولاد عم النوبيين كما يقال؛ لأن جدهم الكبير كوش بن كنعان جد النوبيين.

كل هذا كلام، ولا يفرق معي سوى دار أبي، أَصلِي غير المشكوك فيه، والذي اقتلعوا جذوري منه.

أجلس في المساء وسط الخلاء، في حلقة صغيرة من أبناء أبي رماد، وبعض البدو الرحَّالة والأدلَّة، يتوسطنا صحن شواء عملاق، وأكواب الشاي والقهوة. بدأ العرس مبكرًا، لكنني وصلت متأخرًا بعد انتهاء عملي في الموقع، وبعد الاستحمام، وبعد محاولة التخلص من حواوشي. قُربُنا خيام خَبْز يتصاعد منها رائحة عيش الجورة الذي يأتي إلينا في أكوام. يتفاخر الصغار حولنا بجديدهم من جلباب السواكتي، وصديري البوجا، يزفُّون « شيلة العروس»، ويغنون بلغتهم وهم يصفقون ويتقافزون.

أما الشيخ نوَّار الذي دعاني ودعا كل مَن جاء، فلم يحضر. كان مريضًا كما قيل لنا،

ويعجز عن الحركة حتى. خسارة، لقد كان متحمسًا لحضور عقد قران العريس المغوار الذي يشاع أنه استطاع السيطرة على بعيرٍ هائجٍ وحده. ربط ساقه وسيعطيه اليوم هدية لعروسه مع بضعة جِمال أخرى مربوطة إلى جوار بيت مبني بالطوب، يبدو أنه بيت أهل العروس أو شيء مثل هذا.

يسأل أحد الجالسين ممن يلبسون الثياب الإفرنجية عن سبب تعجيل الزفاف إلى اليوم؛ الخميس، بدًلا من الجمعة كما جرت العادة، فيقال: إن جَدَّة العروس تحتضر وتريد حضور زفاف حفيدتها. ويقال: إن العروس هي التي تحتضر، ويقال: إن العروس قد حاولت الهرب، وقد عجَّلوا بالأمر كي ينزلوا مسؤوليتها عن كواهلهم.

ويرقص العريس بسيفه الطويل، ودرعه المستديرة. يبارز افتعالًا شابًّا آخر، وحولهم يرقص الجميع رقصة الهوسيت. يصفقون وهم يميلون أمامًا وخلفًا، ويقفزون في أماكنهم، ويهزَّون السيوف والدروع الرقيقة. أنظر إلى اللحم في الصحن وأخشى الاقتراب منه. ماذا لو كانت الذبيحة معتلَّة؟

ثم تأتي فقرة تمثيل جَلد أصدقاء العريس بالكبراج، يجلِد العريس برفق، أو يضرب الأرض، ويمثل الجميع. تراقب النساء من بعيد رقصة التزاوج هذه، وتختار الأمهات ما قد يصلح لبناتهن ممن تحمَّلوا الضرب الوهمي وممن بارزوا أخيلتهم حتى انتصروا.

كلها طقوس تزاوج - لا زواج- بلا معنى. صخب ليداري الفراغ، ليدراي الهوة السحيقة..

وينهق حمار في مكان بعيد، فيرد عليه جَمَل قريب بِرُغاء عميق ملتاع، يهدأ على إثره

الصخب ويتلفت الناس نحو مصدر الصوت. إن آذانهم تميِّز جيدًا اختلاف أصوات حيواناتهم، ويبدو أنهم ميَّزوا شيئًا مختلفًا. أرى رجلًا من الراقصين يمد يده إلى خنجره المعلَّق حول خصره، وآخر يبحث عن سيف حقيقي.

ثم يصمت الجميع، وتتراجع النساء ملونات الملابس إلى المبنى، ولا يبقى حولي سوى الصحراء والليل والأبيض.

ويزمجر الجمل، وينخر، ويضرب الأرض، فيجيب عليه آخر ملاصق له، ثم يقضم عنقه الطويل. أقوم كما يقوم الرجال، بعضهم يفر، أغلبهم يهرعون نحو الجِمال المربوطة.

تزداد حركة ذيول الجمال، وتتصلب أعناقها، فيما يضرب الجمل جريح العنق صاحبَه برأسِهِ، كأنه ينطحه. تلتفُّ الرقبتان على بعضهما، وتتمزق الزينة الملونة حول رأسيهما. يقف راعٍ أمام الحيوانات، يقترب ببطء شديد، يحاول التفوة بأصوات هادئة. الرجال متجمدون؛ أي حركة مفاجئة قد تثير الجِمال أكثر.

شاب يمنع العريس من الاقتراب؛ فهذه ليلته، وسيتولى الآخرون السيطرة على الأمور.

صوت سيدة تصرخ، يليه أصوات نساء أخريات. أنطلق مع مَن انطلقوا لنجدتهن، فنلتقي بهن في حوش البيت الضيق، يهربن من شيء يخور بالداخل، شيء مهتاج يهشم كل شيء.

نفسح لهن المجال، ثم أستحي من الدخول، فأقف عند الباب أنظر إلى ما يحدث بالخارج مع الجَمَلَيْن اللذين انفصل عنق واحد منهما عن بدنه، وسقط على جانبه.

يصوِّب أحد الرجال بندقيته نحو الجمل المسعور المهتاج، الذي أظن أن العريس صارعه من قبل، ويطلق الرصاص، فلا يصيبه. يحاول الجَمَل الركض، لكنه عاجز عن ذلك بسبب ساقه المثنية المربوطة. يحاول مرتين، ثم يُمِيل عنقه بزاوية غريبة، ويَعَضُّ ساقه المربوطة.

يعلو صوت خُوار ممزوج بثُغاء ماعز، فألتفت خلفي، لأرى عنزة مفقوءة العين، مشجوجة الرأس، تترنَّح وهي تقترب نحوي... تحاول عضي.

أركلها، فلا تبالي وتهجم، أبتعد إلى الخلف وأنا أتهيَّأ لركلها مرة مجددًا، فأرتطم بأخرى تقف في الركن المظلم. أعتقد أنه جدي؛ إذ نطحني وألقى بي إلى الحائط القريب، ثم وقف على ساقيه الخلفيتين، يموء ويثغو ويخور.

زمجرة الجِمال تتزايد، صوت طلقات نارية، صرخات رجال ونساء، صرخة طفل منفردة تمزق الضوضاء.

ثم ينطحني الجدي مرة أخرى، وتغلق العنزة فكَّها على كتفي. فمها بلا أسنان، دامٍ، زَلِق. أدفعها، فيحاول الجَدْي نطحي مرة أخرى لكنه يصيب شيئًا آخر في الظلام.

شيئًا ينبح ويعوي؛ حواوشي اللعين!

أزحف مترًا ثم أقوم، أفكر في الفرار، ثم أرى الكلب الهزيل يكشر عن أنيابه، عن يمينه الجدي، وعن يساره العنزة المترنحة.

أخرج بسرعة، أبحث عن شيء أضرب به الجدي، فأجد بالقرب دِرعًا رماها أحدهم.

تلفت نظري الفوضى، وصِحاف الطعام المسكوب، والراكضين الفارين...

لا يهم هذا الآن.

أعود إلى المدخل، وأدفع الجدي بالدرع، فيما ينقض حواوشي على صدر العنزة، فيمزقه. ينطحني الجدي، وأدفعه. أستعيد غضبي وحَنَقي ومذلتي.. أدفع، ثم أقوم أركله، وأدور حوله، أمسك عنقه من الخلف وأضرب بوجهه الحائط. ينقض حواوشي على عنق الجدي، فأركله هو الآخر ليبتعد.

يدخل أحد الرجال، فيأمرني بالابتعاد، ويشهر حنجره، فلا أبالي. وأضرب الجدي مرة تلو الأخرى. العالَم أحمرُ، لا شيء فيه سوى الأحمر فقط..

أضرب..

وأضرب..

حتى يرتخي الجسد العضلي بين يدَيَّ، فأجثو على الأرض، ألهث. يجثو الرجل إلى جواري، ويفحص كتفي فلا يجد جرحًا، بل دم العنزة الهتماء. يقترب مني حواوشي ببطء، يريد أن يلعق وجهي، فأزجره مرة، لكنه يلعقه على أي حال.

يقول لي الرجل ذو الجلباب والصديري المتعرق:

- تعالَ. الجِمال تُطِيح بالناس.. ادخل إلى البيت الآن؛ فأدخل. الشقة صغيرة مزينة معبقة بالبخور. الفوضى في كل مكان، وفجوة في أسفل الجدار المقابل تشي بالطريقة التي اقتحم بها الجدي والعنزة المكان.

يزمجر حواوشي مجددًا، فننظر أنا ورفيقي لنجد جَديًا آخَرَ ينهش ذراع طفل في جلباب أصفر. أبحث حولي؛ فأجد غرفة صغيرة، أدخلها أنا ورفيقي وحواوشي، وأغلق الباب الخشبي؛ ثم أدعو الرجل معي إلى مساعدتي في جرِّ صندوق فيه أوعية طبخ، وفوقه بطَّانيات ثقيلة خشنة. هذا كل ما استطعتُ الاستعانة به في غرفة النوم الضيقة ذات الفراش الخشبي القديم، والنافذة المغطاة بالبلاستيك.

وينطح الجَدي الباب مرات، فيدفع الصندوقَ وظهرَيْنا اللذين يسنِدانه، وينبح حواوشي. يهرع الرجل نحو النافذة وينظر من فرجة فيها، ثم يقول لي:

- لنخرج من النافذة. سيارتي قريبة، والطريق خلف المنزل خالٍ تقريبًا إلا من...

ثم يصمت، ويقول بعدها بلحظات:

- لا.. هنا أفضل. الجِمال تطارد الناس. ماذا يحدث بالله؟

- أعتقد أن العريس قد جاء بالجَمَل المسعور بدلًا من قتله، فأصاب الآخرين بالسعار..

لكني أعرف أن هذا مستحيل. حتى وإن كان الجَمَل مسعورًا، فماذا حدث للبقيَّة، وماذا حدث للماعز؟ هذا ليس سعارًا.. ولا حمى مالطيَّة. هذا هو الشيء عينه الذي ذكرته الأخبار ولم يلتفت له أحد.

- ساعدني على فك هذا الفراش، و..

أبحث وسط أوعية الطبخ الجديدة في الصندوق، والجدي ينطح ويدفع، وحواوشي

يجذب بأنيابه أي شيء يتحرك في ظلام الغرفة. هذه أغطية الأوعية.. جيد..

- خذ لك غطاءً، إنه يشبه الدرع...

أزيل الحشيَّة الرفيعة عن الفراش، وأجذب لوحًا خشبيًّا من تحته، وأناول رفيقي آخر، ثم أعيد التفكير في العض وأنا أرى الرجل داكن البشرة معي يشمِّر جلبابه ليكشف عن سروال خفيف تحته. لو حمينا صدورنا بأغطية الأوعية، فهل سيقاننا آمِنة؟ يجب أن نخرج.. ويتهشم الباب الخشبي قبل أن أجد حلًّا، وأرى من الفجوة رأس الجَدي الدامية، وعينيه الزائغتين، وأسنانه المخلخلة..

- هيا!

أتراجع نحو النافذة، وأحاول القفز منها، فيما يضرب رفيقي الأرض باللوح الخشبي، ويمد يده الأخرى بالدرع المترجَلة.

المشكلة أنني بدين، منعدم اللياقة. كل ما يحركني هو طاقة الغضب الغاشمة، لو فقدتها لارتميت كجوال قمح مسوَّس.

- ساعدني!

سجد الرجل دون تفكير كي أصعد على ظهره، وهو ينظر إلى الجَدي الذي يعبر الفتحة، ويتعثر في الصندوق خلفها، فتتدحرج الأوعية فيه ويجلجل صوتها وسط الصياح والصراخ بالخارج. ينبح حواوشي ويتراجع خطوة أخرى، كأنه يهدد فقط ولن ينقَضّ. أصعد على ظهر الرجل فيكتم ألمه من وزني، وأدفع جسدي خارج النافذة، ومنها إلى

@ART_OF_BOOK

الخارج.

بعد لحظات، أجد رأس حواوشي يطل، وكأنه يفاضل بين القفز والفرار، وبين الصمود للدفاع عن الغريب الذي يراه لأول مرة. أقبض على عنق الكلب ثم على قفاه، وأحاول رفعه، فيساعدني الرجل وقد اختفت ملامحه في الظلام.

يخرج نصف الكلب العلوي، ثم يصرخ الرجل ويتركه، وأسمع ضربات قوية، ثم صوته يصيح:

- دخِّل المزيد! أسرع بالله! أسرع!

أجذب الكلب وألقي به خلفي، ثم أمد يدَيَّ إلى الرفيق المذعور، الذي لا أرى سوى ظِلِّه وبياض جلبابه وهو يضرب هنا وهناك، ويبتعد عن النافذة؛ فرارًا من ثلاثة حيوانات داكنة تحاول عضه بإصرار غريب.

وينبح حواوشي، ويحفر في الحائط بمخالبه.

- اقترِب من النافذة! لن أستطيع مساعدتك هكذا!

- النجدة!

ويصرخ الرجل صرخة مُبتَلَّة، فأعرف أنه لا فائدة من المحاولة. أنظر حولي.. لولا مدعوُّو الزفاف الفارون في كل اتجاه لهاجمتني الجِمَال، ولن يقف حَنَكي أمام تلك الديناصورات الضخمة.

أضواء السيارات تضيء ظلام الخلاء، تدور وتطلق النفير، تتوقف أحيانًا لتلتقط

الناجين، ثم تدور مرة أخرى. أعدو تجاه واحدة منها، وحواوشي خلفي. ليس معي سلاح سوى غطاء الوعاء الألومنيوم. أتعثر في جثة امرأة، وأقوم، وأركض. ألهث ويكاد صدري يتمزَّق من الألم. لست معتادًا على هذا المجهود.. لكن إن كنت سأموت، فلن أموت بين أسنان آكلات عشب غبيَّة قررت أن تتحول إلى الافتراس على حظي.

ألوِّح لسيارة نصف نقل، صندوقها مكتظ بالناجين. تتوقف ويصيح أحدهم من النافذة:

- اركب بسرعة.. بسرعة!

- أين؟!

- تشبث في أي شيء!

تمتد لي الأيدي السمراء، فأرمي دِرعي المضحكة وأتشبث بها. ترفعني الأيدي إلى جانب السيارة، وأتمسَّك بحاجزها المعدني من الخارج، وأثبت قدمَيَّ أسفله. أنظر خلفي إلى حواوشي الذي يصغر أكثر فأكثر كلما ابتعدت السيارة في الظلام، وأنادي اسمه..

وينبح حواوشي..

ويصغر

***

المرآة صغيرة، لا تسع وجهي.. فما بالك بجسدي كاملًا؟

أبتعد المترين، وأنظر إلى انعكاس كتفي المحمرٍّ من أثر (شِبه) العضَّة. معجزة أن أنجو. معجزة ألَّا أفقد عقلي.

أبتعد مترًا آخر، لأرى بطني العاري في المرآة. ذلك الكيان الثقيل الدهني، كأنه ذنبي يتدلَّى من جذعي، يغطي رجولتي ويفقدني أصلي ونوعي وجنسي. هذا الشيء هو تربية ليالي الإحباط والغضب والرفض. عدوي الصدوق الذي لولاه لقفزت عائدًا إلى الرجل بلا اسم، وأنقذته من الموت على أيدي أنعام دُنيا، كانت لحومها أمامنا على الصحاف قبل لحظات.

يقترب الفجر، ولا زالت القرية مستيقظة.

من له بيت مبنى بالطوب، أغلق بابه عليه، ومن كان بيته كوخًا من صفيح لجأ إلى المسجد أو مبنى الوحدة المحلية أو مركز الشباب. وأنا هنا، في سكن عُمال المشروع، وحيد، عار، مذنب، غاضب، وحيد.. وحيد..

تدور سيارات نصف نقل، تنادي في مكبرات صوت؛ بحثًا عن ناجين هنا أو هناك. يهيب شيخ المسجد بالناس أن يتحصنوا، وألا يخرجوا قبل إعلان الأمان.

أنزل المرآة من على الجدار، وأجلس على الفراش، أبحث على فيسبوك عن أخبار ما حدث.

عاجل: أبو رماد- محافظة البحر الأحمر...

تعرَّضت منطقة أبي رماد؛ مساء أمس الخميس، لحادث غامض في أثناء زفاف قَبَلي

في أحد بيوت البشارية. شهد شهود عيان هجومًا مباغتًا من عدد من الجِمال والماعز على الحضور خلال مراسم الزفاف، مما أدى إلى وقوع إصابات ووفيات لم يُعلن عن تفاصيلها رسميًّا حتى الآن.

أفاد السكان المحليون أن الحيوانات أبدت سلوكًا «غير مألوف» تجاوز الاهتياج المعتاد، هذا وتتحفظ الجهات الرسمية على التفاصيل لحين انتهاء المعاينات.

ومرفق بالخبر فيديو صوَّره أحد الناجين من داخل سيارة، يبين دوران السيارات الأخرى في الصحراء، وفرار الفارين، ورجل يعدو خلف واحدة وهو يحمل- ما بدا لي- ذراعه شبه المبتورة.

الجِمال تركض وراء الناس، تقضم لحومهم. الأعداد أكبر بكثير من تلك التي كانت مربوطة إلى جوار البيت، وكأن هِياج الجَمَل إيَّاه قد استدعى عشرات الحيوانات الأخرى من كل نوع. تحت الفيديو القصير تعليقات مثل:

«هذه حمى مالطية يا جماعة... اعزلوا الحيوانات المصابة»

«سُعار؟ مستحيل!»

«هذا جِن الصحراء وقد رأيته مرارًا. لا تتصرف الحيوانات هكذا».

«إنه محتوى مصنوع بالذكاء الصناعي، وهدفه تفريغ مثلث حلايب من سكانه. إبحثوا عمَّن له مصلحة في هذا. المنطقة ترقد فوق ثروة وأنتم نائمون في العسل»

«أين حدث هذا الهجوم بالضبط؟ أين تقع أبو رماد هذه؟!»

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

«الحكومة نائمة والناس تموت.. لقد استغاث قبل ذلك الكثير. عمي جزار وأعرف ما أقول جيدًا. البهائم مصابة بشيء وهم يعتِّمون عليه. لنا الله».

أنظر عبر النافذة إلى الشوارع الترابية، والمَحَالِّ المغلقة، وأرى حيوانًا ما، يجرُّ نفسه على الأرض ببطء وهو يَخُور، ويفتح فمه ويغلقه مرارًا، قبل أن يتوقَّف وسط الطريق ويَتفَق.

أقوم أخيرًا، أرتدي ملابسي وأبحث في المسكن عما يمكنني تقويته به. لا شيء. الحوائط مبنية بالطوب الأبيض، ولن تصمد أمام نطحات حيوانات مجنونة. السقف مصنوع من ألواح الصاج المموَّج، مؤقَّت ككل شيء في الجحيم الأبدي... لا بد أن تتداعَى في أي وقت، لا بد أن تجبرك على الفرار في أي وقت.

ليس معي أسلحة طبعًا، ولا طعام هنا سوى كيس خبز أسمر وعلبة جبن فِيتا، وزجاجات مياة معدنية. أي طعام آخر أشتريه وقتما أحتاج إليه، وأُجهِز عليه في وقته. لولا ما حدث الليلة لَأَجْهَزْتُ على الجبن والخبز وأنا في الفراش قبل النوم.

لم يتصل بي أحد؛ لا بد أن أبي وأمي نائمان. سيتصل أبي فور استيقاظه لصلاة الفجر، وسيطلب مني العودة فورًا. هو لا يعرف مدى تدهور الوضع هنا، لكني سأطمئنه. لن أعود؛ لأن بوابة العودة مغلقة وخلفها قلبي، ونفسي، وأحلامي.

هو نفسه لن يسعد برؤية عارِهِ أمامه كل يوم، وقد فقد عمله أيضًا وصار عالة.

أحمل المِكنسة اليدويَّة وأخرج إلى البرد الصحراوي القارس. أمشي نحو الحيوان النافق على الطريق، وأهزَّه بطرف المكنسة فلا يتحرَّك. خروف هزيل للغاية، نصفه

الخلفي مهشَّم، يبدو لي أن سيارة قد دهمته. أبعد شفته عن أسنانه السفلية، أجدها مهشمة دامية، بينها بقايا قماش. هذا فك لم يخلق للعض والافتراس، وطبيعي أن ينخلع من مكانه كما أرى.

إنه، ولا شك، وباء جديد، ولم يبدأ اليوم فجأة، بل سكت الرعاة عنه؛ حِفاظًا على قوتهم وثروتهم، حتى ما عاد السكوت ممكنًا.

يصدح مكبر صوت المسجد، فينتزعني من أفكاري:

- أهالي أبي رماد الكرام، سيقام اجتماع مع شيخ البشارية في المسجد بعد صلاة الفجر. رجاء حضور كل مَن حضر العقد، وممثل الوحدة المحلية الأستاذ...

يكرر المنادي نداءه، وأعرف أنني مُستثنى من الحضور مع أنني حضرت حفل العقد. أعرف النظام هنا... هؤلاء لا يجتمعون في حضور رجل لم يولد بينهم، ولم يَرِث صوته من أصواتهم، مهما تشابهت سُمرتنا وأرضنا ومآسينا.

ومع ذلك... لماذا لا أحضر؟ الوباء لم يطرق أبوابهم وحدهم، بل عضَّ كتفي أيضًا.

أرى رجالًا يخرجون من بيوتهم، يلفون الشيلان حول رؤوسهم،

يمشون كما يمشي المعزون في جنازة. لولا الصحراء، ولولا الوباء لظننتهم تجسيدًا لحكاية قديمة حكاها لي أبي. حكاية عن القرية النوبية، وخطر الغرق ووهم النجاة... أنفض الحكاية عن رأسي، وأمشي وراءهم؛ الكل في الجحيم سواء.

***

يؤذَّن للصلاة، فيُخرِجون النساءَ والأطفالَ إلى مبنى صغير مخصص لتحفيظ الأطفال القرآن، وحفظ القرآن أول صلتهم بالعربيَّة في مرحلة ما قبل الدراسة.

أقف خلف المسجد، أشاهد ما يُستَجَد في الليل، وما إن كنت سأجد علامة أخرى على وصول الحيوانات الموبوءة إلى هنا.

تخلو الطرقات تمامًا مع بَدْء الصلاة، ولا أرى أحدًا إلا عابرًا يسير وسط البيوت والأكواخ بثقة وثبات، يرتدي مثلما يرتدي الأهالي، إلا أن جيب جلبابه مفتوح، يبين صدره الداكن... وخلفه يمشي قاعودٌ ناصع البياض، لا يهتاج ولا يرغو، كأنه مَلَاك في العتمة. أتجمَّد في مكاني دقائق، حتى يختفي الرجل خلف البيوت، فأهرع لأقترب منه أكثر وأنا أنادي:

- أنتَ! انتظر!

ولا أجده مرة أخرى. لست ممن يهلوسون، وأعرف أنني رأيت ما رأيت. لعله دخل إلى أحد البيوت أو خلف منعطف ما. ويكرر المنادِي النداء، فأدور حول المسجد، وأخلع حذائي، وأدسه تحت إبطي. بالتأكيد سأفقده لو تركته وسط كل هذه النعال والصنادِل والكوتشيَّات الرخيصة.

أخترق حاجز الحَرِّ والأنفاس ورائحة التبغ والعرق والعطر والبخور والطعام والروث، وأحاول الذوبان في الخلطبيطة سمراء البشرة، كأنني في قاع سقر ودهن العصاة يقطر فوقي. أنا أيضًا أسمر البشرة، لكن روحي مختلفة، مستعرة، كلما قطرت فوقها عصارة البشر تصرخ، وستظل تصرخ حتى لو بقيت في القاع إلى الأبد.

أجلس في الركن المتاح، وأنظر تجاه المنبر؛ حيث الشيخ الشاب مألوف الملامح، الأزهري الذي أرسلته وزارة الأوقاف لوعظ الناس حسب الكتالوج، أو لعله الجاسوس الذي بُعِث لإحصاء أنفاس العالمين، ويجوز أنه مجرم فار من العدالة، جاء ليتوب على أيدي الناس هنا أو يتوبون هم مِن صلاحهم على يديه. كلهم الشخص ذاته، كلهم يدَّعون الفضيلة..

حتى ذلك الكبير الذي نفاني إلى هنا؛ لأنني عضضت رغيفه كان عائدًا للتو من الحج، وقرر أنني الذنب الذي لم يُغفَر له، فركلني إلى أقصى ما استطاع.

كلُّهم الشيء ذاته!!

يهتف الشيخ الشاب بالناس أن يهدؤوا، ويعين شيخ البشارية على صعود المنبر، ثم ينزل هو ليقف مع الناس.

شيخ البشارية هنا هو شيخ أحد فروع القبيلة، لا شيخ البشارية كلهم، وهو أقرب إلى كبير المنطقة، والوحيد الذي يأمر فيطاع. يقول شيخ البشارية الذي لم أهتم لمعرفة اسمه، وبالعربية التي يفهمها الكل، مراعاة لوجود غرباء بينهم:

- السلام عليكم يا إخوتي، عظَّم الله أجورنا وأجارنا في مصيبتنا...

ويستمر في الديباجة المعتادة، فأتأمَّل مَن حولي؛ رعاة وموظفين، أهالي وغرباء، عمال وصيادين، شبانًا وشيوخًا. في القرية مَن تجاهل الدعوة، بل وأنكر خطورة ما حدث، لكنهم قِلَّة. حتى من ينكر جاء فضولًا.

@ART_OF_BOOK

- ... وقد وصل إليَّ من نقطة الشرطة ما يُطمئنا إن شاء الله. لكن يجب أن تهدؤوا أولًا وتثقوا في أن كل ما يحدث سيمُر على خير. لقد شهدنا ما هو أصعب.

وهذه مقدمة لإعلان كارثي، كما استشِفُّ من نظراته التي تدور في الوجوه، تبحث عمَّن سيصدق كذبته التالية.

- إن الوزارة والهيئة العامة للخدمات البيطرية تعرف بما يحدث هنا منذ أسابيع، وهو وباء الحمى المالطية، وقد..

هيا.. قُلها.. ألقها في وجهي وأخبرني أن مفتاح الجحيم قد ضاع.

-... عَزَلَتْ مناطقَ حلايب وشلاتين وأبي رماد، حتى تتمكن من السيطرة على القطعان المصابة، وتمنع انتشارها إلى باقي البلد...

نعم، ضاع مفتاح الجحيم. تعلو الهمهمات، ويهتف أحدهم: «عزل مرة أخرى؟ مثل أيام الكورونا؟»، فيرُد آخر: « ليتها كذلك. هذا عزل كامل. لن يخرج من هنا أحد ولن يدخل. أيام الكورونا كنا نذهب حيث نشاء نهارًا». يصيح صائح في الخلف، في الركن المظلم: « هذا كلام فارغ يا شيخ. مَن يستطيع حبسنا في بيوتنا؟ من أين سنأكل؟! و...».

يقاطعه شيخ البشارية السِّتيني، الذي زاد عمره بمقدار عشر أضعاف كذبته وهو جالس أمامنا:

- سيصل إلينا الطعام والدواء والوقود بشكل طبيعي. لن نشعر بأي مشكلة. كل ما

هنالك أننا لن نخرج من المنطقة، وهو شيء لا يحدث كثيرًا يا جماعة. متى كانت آخر مرَّة سافرت فيها يا جمعة؟ أنتَ جمعة، أليس كذلك؟

يسأل راعيًا يرشق مشطًا خشبيًّا في شعره المهوش الكثيف:

- ماذا عن «هبِلنا»؟ سيصادرونها؟! لن يفحصوا كل غنمة وجَمَل! أكيد سيأخذون العاطل والطيِّب!

الكل يتحدث عن الحيوانات باعتبارها « هِبِلهم»، ومالهم وزرقهم. لو تلفَّظ أحد بكلمة حيوان هنا لاعتبروه مخنثًا. يثور الجميع لدى ذكر القُوت والعيش، لدَى ذِكْر ما يطلقون عليه: « حلالنا وعيالنا».

- صبرًا بالله يا ناس!

الكل يثغو ويرغو وينهق ويخور. بهائم مهتاجة لن ينفع معها العقل. يأتي صوت أجش ضعيف، مع ذلك جهوري، من الصف الأول، وأرى الشيخ نوَّار يقوم متكئًا على ذراع شابة، ويهتف:

- مَن يستطيع مَنع الناس عن أقواتها؟ هه؟ اجلسوا.. لو لم يأتنا ما نحتاج، ولو طال العزل، مَن يستطيع منعنا عن الخروج؟ مستحيل عزل منطقة بهذا الاتساع.. مستحيل.

ينظر شيخ البشارية إليه متفاجئًا، ويقول:

- لا أحد طبعًا يا شيخ نوَّار، لكن العزل لمصلحتنا جميعًا. قل شيئًا يا شيخ محمود..

يهم الأزهري بقول شيء يحث الناس على عدم الفرار من دار الوباء، لكن الشيخ نوار

يهتف:
ART_OF_BOOK

- هذه ديارنا. لا يعرف أحد البَرَّ مثلنا. تفهمون ما أقوله جيدًا، ولا حاجة لقول شيء آخر.

أنا لا أفهم، لكن ما قاله الرجل أسكت الجميع لسبب ما. استمر شيخ البشارية في تلاوة التوجيهات العُليا؛ اقتصدوا في استخدام الماء (سينفد وستموتون عطشًا يا حمقى، ولن يسأل عنكم أحد)، ولا تكنزوا الطعام (لا يوجد ما يكفي نصفنا كالعادة، فموتوا جَوعَى في هدوء)، ولا تحاولوا الفرار إلى البَر أو استخدام الممرات بين الجبال (هذا سجن لا فرار منه، ويجب أن تخافوا حتى من أرضكم وما تألفون).

هراء مُصَفًّى لآخر قطرة. هذه وجوه لن تُنصِت ولن تطيع، والشيخ نوَّار هذا قد جُن، أو أنه يعتمد على أن الفوضى آتية لا ريب، ولن يقترب منه أحد أو يؤاخذه بما قال.

لكن ألم يكن مريضًا؟

غيَّر شيخ البشارية الموضوع فجلس نوَّار. سأل عن المفقودين، فقيل له أسماء بعينها، منها العروس وأمها. لا أرى العريس بين الجالسين والواقفين، ولا بد أنه يبحث عن عروسة إما لإتمام طقوس التزاوج أو لذبحها. هذا إن لم تكن قد ماتت في مكان ما.

- نحتاج إلى متطوعين للذهاب إلى الخلاء. يجب أن نعيد القُقراء والمصابين...

والفقراء هم الفقراء إلى الله من الموتى. سمعت أبي كثيرًا يطلق هذا اللفظ على المتوفَّيْن، وأراه لفظًا شاعريًّا مقارنة بما سيلاقيه الميت في العالم الآخر.

@ART_OF_BOOK

يتطوَّع عدد كبير، ويخرجوا ليبدؤوا تجهيز السيارات. أشعر بشيء يتحرَّك حول قدمي، فأجفُل. أنظر لأجده قِطًّا بلديًّا مرقَّطًا. ألكُمه، فيتكوَّر على بعد مترين ثم يفُحُّ فيَّ، ويذهب إلى حال سبيله.

القِط سليم.. القِطط تصاب بالسعار ولا تصاب بالحُمى المالطية. لست ابن المدينة دائمًا، وأعرف شيئًا أو اثنين عن البهائم، البشرية منها والحيوانية... إن كانت هذه حمى مالطيَّة، فلماذا تفترس المواشي بعضها؟ إن كان هذا سعارًا، فكيف تفشَّى بهذا الشكل الوبائي وبسرعة؟ ماذا عن النوارس غريبة السلوك؟

كل هذا يؤدي بي إلى نتيجتين لا ثالث لهما؛ إما أن الحكومة تعرف حقيقة هذا المرض وتخفيه كي لا تثير الذعر، وإما أنها لا تعرفه و» تُضَبِّش» مثلنا. في الحالتين، العزل سيستمر طويلًا.. أطول مما يحسب أحد.

يزحف نحوي واحد من عمال الموقع، ويسألني همسًا:

- يعني هذا أننا لن نعود إلى البلد يا باشمهندس؟! والعيال؟ ألن نراهم؟ هل تحويل الأموال ممكن؟ ماذا عن اليوميَّة؟ ماذا عن..

- صبرًا.. النهار له عينان..

وأقوم من مجلسي أقصِد الشيخ نوَّار الذي يحجبه عن الناس ظهري محمود الأزهري وشيخ البشارية. لا بد أنه يحاسب حساب المَلَكين الآن إن صح تخميني بأن الأزهري ليس أزهريًّا والشيخ ليس شيخًا.

@ART_OF_BOOK

الوقت يجري، وفي الصباح سيفعل الناس ما فعلوه من قبل في كل الأوبئة. أخرج سريعًا وأنا أتصل بأبي، يرن الهاتف عدَّة رنَّات قبل أن يرد. الرجل لا يعرف شيئًا، ويبدو أنه لم يفتح التلفاز بعد. أخبره سريعًا بأمر العزل، وأطمئِنه، فلا يبدو فزِعًا. هل جهله بتفاصيل ما حدث في الحقيقية هو ما يطمئنه، أم أنه لا يهتم؟

أنهي المكالمة، وأفكِّر فورًا فيما يمكنني فعله مع الحفاظ على إنسانيتي. لن أسير وراء القطيع مهما عوَت معدتي وزاد التوتُّر شراهتي.

في النهاية ينتصر الجوع، أعرِّج على السكن، أضع الجبن في الخبز كله، وألتهمه واقفًا وأنا أتفقَّد الأخبار على الهاتف. التعليقات على خبر ما حدث هنا تتزايد، وهاشتاج #أبو_رماد يتصدَّر في أقل من ست ساعات. لماذا؟

لأن في كل مرة أرى منشورًا يحمل هذا الهاشتاج، أرى مشاركة لفيديوهات أقدم من مذابِح في القاهرة والشرقية والبحيرة، فيها حيوانات مهتاجة تعض بعضها البعض، وأخرى لأكوام ماشية نافقة تُحرَق في الصحاري، وحمير جَرٍّ تعض أصحابها.

لقَّد فجَّر فيديو واحد مئات الشهادات التي أنكرها الجميع من قبلُ. هذه هي لحظة التحوُّل التي لا يجوز بعدها الكذب.

***

نِمت رغمًا عني، فما أطيب النوم بمعدة ممتلئة عن آخرها!!

أستيقظ فزِعًا بعد ساعة تقريبًا، وأسمع هرجًا في الخارج. لقد عادت بعض السيارات

تحمل الموتى والمصابين. أرتدي ملابسًا نظيفة وأخرج لأشاهد الفوضى؛ صراخًا ولطمًا وعويلًا، حوقَلة وبسملة، ملاءات مهترئة تطير في نسمات الصباح لتكشف عن جثث ليست ممزقة، بل « معضوضة»، وليس للمنظر وصف أدق من هذا. الإصابات مريعة، تستهدف في الأغلب البطون واللحوم الطرية في الجسد.

أبتعد عن الرائحة البشعة والصراخ والنَّدب، وأدخل إلى عمق القرية، حيث لا رائحة إلا رائحة الرطوبة المعتادة؟

تصدح أصوات القرآن الكريم من المنازل، فيما يقف الأهالي أمام محالٍّ وعربات الفول والفلافل في حيرة. لم يُعِدَّ أحدٌ إفطارًا، ولم يَفتح بقَّالٌ حانوتَه.

يضرب رجلان على باب خشبي لكوخ من صفيح، وينياديان على أحدهم بلهجتهما غير المفهومة. يخرج أخيرًا مَن ينادِيانه، ويستمر الحوار العصبي بينهم، فيُدفَع صاحب الكوخ إلى كوخه، ويهرع الناس إلى دُكَّان وسط صف دكاكين مبنيَّة بالحجر الجيري، ويحاولون رفع بابه عنوة وكسر القُفل. يهرول آخرون من آخر الطريق الترابي، يحملون أسطوانتي غاز، ويركض وراءهما امرأتان تُسُبَّان.

يتمَّكن الناس أخيرًا من فتح متجر البقالة الأكبر في المنطقة الفقيرة، ويتدافعون عبر بابه الضيق إلى الأرفف، يخطفون ما تصل إليهم أيديهم؛ ويكسرون من تدافعهم برطمانات الصلصة، ويمزقون أجولة الأرز والدقيق، وينثرون أكياس البطاطس المقلية على الأرض، تنفجر تحت الأقدام مع مَن سقط من أطفال في أثناء النَّهب.

أتراجع.. أسير إلى جوار الحوائط وأنا أراقب هذا الهول. هؤلاء قوم لم يشعروا بأمان

لحظة واحدة. سنوات على كف عفريت تعود بكل خوفها وبردها وفقدها، تدفعهم دفعًا للبقاء ولو على جبل جثث. أمشي، أُسرع، أفكر فيما أريده الآن أكثر من أي شيء. طعام؟ طبعًا، لكن الأهم.. الماء.. خزانات الماء النقي.

في كل منطقة خزَّان ماء شرب، فيما تستخدم مياه البحر الُمعالجة في الأغراض الأخرى. أغلب خزانات الشرب تُملأ يوميًّا، وينفد ما فيها قبل انتصاف النهار؛ إذ يهرع الجميع بجراكنهم ودِلائهم لملء ما يحتاجون إليه، وما لا يحتاجون. مَن يضمن أن تُملأ الخزانات مرة أخرى غدًا؟

العيش على كف عفريت..

قبل وصولي إلى حيث الخزَّان، أكتشف أنه ليس معي ما أضع فيه الماء. أهرع إلى المسكن، أبحث، أفرغ ما في جركن الماء القديم في آنية بلاستيكية كنت أغسل فيها ملابسي، وأحمله ووعاء طهي وجدته، وأمشي إلى الخزَّان وأنا أكاد ألفظ أنفاسي. كل هذا المشي السريع سيقضي عليَّ. ظهري يتمزَّق ألمًا، وباطنا قدمَيَّ مشدودان.

لكني أرى الكارثة قبل وصولي. الخزَّان الأبيض المرفوع فوق أعمدة خرسانية على الأرض، مهشَّم، وما تبقى فيه من ماء مخلوط بالدم وجِيَف النوارس.

أقترب ببطء أكثر، فلا داعي للإسراع. أرى الوجوه الحائرة المنكوبة تنظر إلى الكارثة، وموظف من الوحدة المحليَّة يتحدَّث في الهاتف المحمول، يسأل عن موعد وصول سيارات نقل المياه.

كيف سقطت النوارس في الخزان؟ ألم يكن مغلقًا من الأعلى؟ إن كان مفتوحًا،

فلماذا سقطت كلها داخل الخزَّان، ولم يسقط أيها في المنطقة حوله؟

وأتذكَّر الماعز والجِديان يوم العُرس. من أين جاءت؟ ولماذا اقتحمت البيت والأسهل أن تهاجمنا، نحن الجالسين، في العراء؟

« هذا محتوًى مصنوع بالذكاء الصناعي، وهدفه تفريغ مثلث حلايب من سكانه. ابحثوا عمن له مصلحة في هذا. المنطقة ترقد فوق ثروة وأنتم نائمون في العسل».

إن كان الأمر بفعل فاعل، والغرض منه تفريغ المنطقة بالفعل، فماذا يحدث في باقي المحافظات؟ هل الهدف القضاء على المصريين كلهم؟

ماذا عن أخبار تحوُّل السناجب إلى مفترسات؟ إن كان ما يحدث وباء، ويوجد من يحاولون استغلاله، فمتى خططوا لاستغلاله، وما الفائدة من اقتحام منزل عروس أو إفساد ماء خزان قرية لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف شخص؟

ما لم تكن تلك الدواب تتصرف بناء على مخطَّط خاص بها! ضحكتُ. للدواب مخطَّط تتصرف بناء عليه وليس لدى البشر مخطط لأي شيء؟!

تضارب.. ثغاء.. خلطبيطة!

أعود إلى السكن، وأخرج ورقة وقلمًا، وأحاول أن أكتب ما أحتاج إليه بالفعل؛ وما أنا قادر على الوصول إليه قبل الآخرين، وما قد أستطيع استغلاله لاحقًا لو طال العزل؛ أو... أو ما أستطيع الفرار به من هنا لو لزم الأمر.

***

يا طير يا ماشي لي أهلنا

ميكيل...

أزفر..

رفعت يلتحف ببطَّانية ثقيلة، ويرتجف على الأريكة في ركن مدخل المعسكر الذي هشَّمت أوصالَه النوارس.

منذ يوم تقريبًا كنت أخطط لسلوك درب مختلف، لكنني أعرف أن الفَلاة متاهة، وكل الدروب تدور لتتقاطع، تتصادم، تعود بي إلى النقطة ذاتها؛ المعسكر، رفعت، البحر، الصحراء... الدم.

بعدما افترقت عن رامي والنساء، بحثتُ عن جراكن خلف المبنى، محاذرًا أن يلدغني كائن مما يختبئ وسط الأشياء القديمة هناك. أكوام من الخردة التي يأبى رفعت التخلي عنها، بحجَّة أنها قد تنفع لترقيع شيء، بدلًا من استبداله. عشرات الجراكن التي شقَّقتها الشمس، ومئات القطع الخشبية ولفائف البلاستيك والأسلاك. ضاعت ربع ساعة أو أكثر في البحث، بعدها قصدت مولِّد الكهرباء؛ لآخذ بعض الوقود منه. مَن منا يعرف ما قد نلاقيه على الطريق ويضطرنا للحَيد عن مسارنا واستنزاف الديزِل؟ إن رفعت يأبى إلا أن يملأ الشاحنة بما يكفي رحلات جلب المؤن، وكأنني قد أفر بها مثلًا. وكأنني كلبُه الذي يُطيل الحبل حول رقبته مقدار ما يخدم غرضه فقط.

كنت لأمزق الحبل وأفر في أي لحظة، لولا سئمت الفرار. لولا سئمت الرعب.

وبينما أجثو إلى جوار المولِّد عالي الصوت؛ إذ لمحت مَن يقترب من جهة الشاطئ. قافلة صغيرة من الأُبَّالة؛ أربع نساء وخمسة رجال، وبضعة مراهقين وأطفال ورُضَّع، محمولين على ظهور العربات التي يجرُّها الحمير، أو راكبين فوق ظهور الجمال، يتبعهم عنزتان وحمار آخر. حيَّاني قائدهم وسألني عن شيء لم أتبيَّنه من صوت المولِّد. اقتربت منه فأعاد سؤاله عن صيادين هنا. أعرف هذه اللهجة جيدًا. أجبته:

- أعرف بعضهم. داير منهم شِنو؟

- أسأل عنهم. صف لي طريقَ أي واحد منهم.

- هل تريد سمكًا؟

- هل يسكنون قريبًا؟

لن يخرج أحد بإجابة من الأُبَّالة الرُّحَّل، حتى وإن كشفت لهجتنا أننا أبناء أصل واحد؛ هؤلاء سودانيون؛ بِجَاويون تحديدًا.

- لن يخرج أحد اليوم، هاجمت النوارس الشاطئ.

وأشرت إلى النوارس المتناثرة، والتي لا أعرف سبب نُفوقها دون جروح واضحة. هز رأسه كأنني أخبره بما يعرف من قبل. لاحظت أنهم يربطون سيقان الحيوانات؛ فتمشي ببطء شديد، ويكممون أفواه الجِمال بحبال ليفية أو شرائط قماشية.

أشرت إلى كمامة الجَمَل، وأنا أنظر إليه متسائلًا. صوت المولِّد يكتم همهمة نطق بها، فأسأله صراحة:

@ART_OF_BOOK

- هل هي مسعورة؟ رأيت قطعانًا مسعورة كاملة الليلة الماضية، وقد قلبت عدة سيارات على الطريق الرئيسي.

نظرت إلى هَرِمٍ متربع فوق عربة جَر، فقال الهَرِم:

- ليست مسعورة. ما هذا المبنى هناك؟

لم تدهشني حِدَّة بصره، وإن قلقت من السؤال. بحثت تقائيًا عن أسلحتهم، لأعرف أنهم مدجَّجون بالخناجر، والرجال منهم يعلقون بنادقَ على أكتافهم. نظرة أخرى إلى العربات أكدت لي أنهم يغادرون، ولا يرتحلون فقط للبحث عن الكلأ.

- إن كنتم تبحثون عن صيادين، فلن تجدوا أيهم الآن.

وعدت إلى المولِّد وهديره المزعج. قبل أن أوقفه لأفرغ منه الوقود، ناداني الأبَّال وهو يقترب راجِلًا، يكاد يركض نحوي.

- اسمع. لقد مررنا بصيَّادين في الطريق، وكلهم أبوا أن يساعدونا. قلتَ إنك تعرف بعضهم، فهل يمكن أن تقنعهم بمساعدتنا؟ سندفع لهم ما يريدون.

- عن أي مساعدة تتكلم؟

- الخَلاء لم يعد لنا. الجثث تملأ الصحراء على طول الطريق. جثث وجيف على حد سواء. نريد أن نعيد أهلنا هؤلاء إلى السودان بحرًا. المسافة ليست طويلة. سنعبر الحدود فقط، وبعدها سنتصرف.

- البحر خطر. النوارس..

- ليس في مثل خطر البر. لقد رأينا ما لم تره.

- وأنا رأيت ما لم تره.

- توسَّطْ لنا فقط.

نظرت إلى أهلهم على العربات، وتذكرت ما لا أتحمَّل تذكره. البر قاتل، والبحر قاتل. هم فقط لا يعرفون. لكن مَن أنا كي أخيفهم من أمل كاذب؟ أنا من قُدت المئات إلى آمال كاذبة مسعورة؟

مشيت معه برفقة آخَر إلى أقرب صيَّاد أعرفه، ويبعد مسافة ربع ساعة مشي تقريبًا. لقد فعلت ما يمليه عليَّ ضميري، أو ما استعدتُه منه. رفض الصيَّاد الذي كان يجمع حاجياته من عشَّه المبني بأغصان السيَّال ليعود إلى القرية. قال:

- العمر واحد، ولي أهل هنا. لكم الله. معذرة يا ميكيل. أنت رأيت بنفسك ما حدث وما يحدث. ما رأيك أن تبحر أنتَ بهم؟

أجفلتُ، لم أتوقَّع أن يذكر معرفتي بالصيد والإبحار أمامهم. لست صيادًا قطعًا، لكني أبحرت بنفسي كثيرًا طالما لم أضطر إلى الخوض في عمق البحر... لكني لن أفعلها مرة أخرى.

وهكذا عدنا نجرُّ أذيال الخيبة، قال لي الراعي وقد وصلنا تقريبًا إلى حيث وقفت قافلتهم تنتظر:

- عندك طعام أو ماء؟ سنشتريه.

لا أعرف إن كان يحتاج إلى ما يقول أم أنها ذريعة ليقترب أكثر من المبنى. لو كانوا يريدون اغتصابه مني لانتهزوا فرصة غيابي الطويل. في النهاية، هل سأدافع عن مكان ليس مكاني؟ لقد أخذنا ما نحتاج إليه، وأعتقد أنني أسمع نفير السيارة. إنهم يستعجلونني.

- لقد دمرتِ النوارسُ المكان وقتلت مَن فيه للأسف.

- هل تعرف ماذا أصابها؟

- النوارس؟ أعتقد أنها مصابة بما أصاب القطعان على الطريق. أنت تعرف ما أتكلَّم عنه. أنا راحل، متجه إلى القرية.

- هذا المكان خالٍ؟

- جرب..

واستدرت أغلق المحرك، لكن الراعي الرحَّال قبض على كتفي يلفت نظري إليه، وطلب مني أن أصحبه إلى الداخل، وكرَّر مرة أخرى أنه سيشتري ما يحتاج إليه.

الرعاة سواء أبَّالة أو بَعَّارة أو غَنَّامة ليسوا لصوصًا بطبيعتهم، فعمليًّا ثروتهم مما يرعون أثمَن من أي شيء في الصحاري، والمكان اللعين ليس بيتي. مشيت معه بعدما اطمأنَنت إلى أن باقي رجال القافلة في أماكنهم. على الدرج لمحت رفعت ممددًا يرتجف، فلم أبالِ كثيرًا.

صعد الأبَّال خلفي وهو ينظر إلى الجثث المتناثرة بوجه جامِد. أخبرته أن المكان له

إن رغب في شراء شيء. نعم، سآخذ أيَّ ثمن يدفعه، أنا بلا مال إلا ما تبقَّى من راتب الشهر الماضي.

أرشدته إلى المطبخ، فنظر إلى ما فيه، ثم خرج يجوِّل في الحجرات، وأخيرًا قال: إنهم يحتاجون إلى استراحة، فهم يرتحلون منذ يوم ونصف. طلبت منه ثمن المبيت، فقال: إنه لم يذكر ثمنًا للمبيت.

قلت: إنني سأشتري الطعام والماء، ولا أجد هنا أيًّا منها.

رأيت رجلًا آخر منهم يقترب من المدخل، يدفع النوارس جانبًا بقدمه، ولا يكترث لرفعت.

خرجت، وتركت لهم المكان. أنا لا أريده؛ ولن أغلب رجلين مسلحين. فوجئت بأن الشاحنة غير موجودة؛ لا بد أنني تأخَّرت عليهم فرحلوا. الحمقى! الحمقى!

أين سيارة رفعت؟! ليس معي رقم أي من الفارين؛ ولن أعرف إن كان الوقود سيكفيهم، وإلى أي مدى سيبتعدون. هل يعرف رامي الطريق إلى القرية أصلًا؟ هل سيتمكَّن من قيادة السيارة على الطريق الوعر الضيق الذي مشينا عليه؟ هل..

إنهم كبار بما يكفي للتصرف. أعود إلى المبنى، وأفتش جيوب رفعت بحذر حتى أجد هاتفه المحمول. إن رغبوا في سؤالي عن شيء، فهم يعرفون هذا الرقم... على ما أعتقد.

ربما يساعدهم سليمان إن أفاق، فمعه الرقم ولا شك.

@ART_OF_BOOK

مَن أخذ سيارة رفعت؟ هل أخذوا السيارتين؟ ولم يفكروا في حاجتي إلى واحدة منها لأفر بدوري؟!

توافد الرعاة على المبنى، ولم أمانع. سأجد ما يمكنني خدمتهم به مقابل المال، مقدمًا. لا أعرف إلى أين سأذهب، لكنني تورطت معهم، ولن أستطيع طردهم من هنا وحدي. دخل الهَرِم إلى المكان، وسألني وهو يتربَّع على الأريكة المقابلة لي، ويتكئ على عَصَاه:

- ألن ترحل؟

- رحل مَن كانوا هنا وأخذوا السيارات المتاحة.

- لا تلومهم.

- لا ألومهم.

- ما رأيك أن تنضمَّ إلينا؟ لقد قيل لي: إنك تعرف البحر جيدًا.

- تقصد ما قاله الصيَّاد؟ أنا أصطاد فقط، وربما أبحر مسافات لا تزيد عن ساعتين أو ثلاثة. بالإضافة إلى أنني أرى الإبحار خطرًا الآن.

- مَن يبحر ساعة يبحر عشرة. نحتاج إلى قوارب تكفي عشرين شخصًا منهم صغار كما ترى. اشترِهِم لنا وسأدفع لك مقابل كل ما ستساعدنا به. إن كنت تريد شيئًا من هذا القطيع السليم، فسنترك لك ما تريد بعدما نعبر الحدود. إن كنت تريد العبور معنا والعودة إلى ديارك فلا مشكلة، سندفع لك هناك.

إلى أين سأذهب على أي حال؟ لا مال ولا مسكن ولا أوراق. هل سأتحمَّل مسؤولية كل هؤلاء الذين يملؤون حجرات المعسكر الآن؟ إن كنت سأعود إلى السودان فسأعود وحدي، لكن أي منطق يقول: إن الوضع في السودان أفضل من هنا؟ أي حدود تؤكِّد أن الوباء قد توقفه أسوار ومعابر؟!

أصارحه بما أفكر فيه، فيقول: إنهم يريدون العودة؛ لأن ديارهم هناك، وأنهم يرغبون في مواجهة ما يجري وسط أهلهم. يضيف الهَرِم الذي عرفت أن اسمه أبو هاشم:

- إبقَ هنا إن أردت. فقط أَحضِر لنا القوارب ومَن يُحِر بها.

أطلب منه مبلغًا لنفسي مقابل هذه الخدمة، فيوافق على أن يعطني إياه وقت التسليم. لن يثق بي أبدًا، ولن أثق بهم. أخبره بأنني سأفكر، فيتمدد على الأريكة ويدس يده تحت خده وينام.

لقد أخذ الحمقى حقيبتي أيضًا!

أخذوا أغلب الماء المتبقي. أخذوا الجراكن النظيفة التي قد أعبئ فيها ما تبقى من الخزان لأبيعه للرعاة. أخذوا الأدوية وحقيبة الإسعافات..

هكذا أجلس في المعسكر وسط الفوضى والزحام.

أشعَل واحدٌ منهم نارًا بالخارج، وأغلقنا المولِّد؛ خشية أن نحتاج ما فيه من وقود لاحقًا؛ لا نعرف كم سنمكث هنا.

في الصباح سأكتشف فداحة المصيبة، أما الآن فأنا مصدوم، حزين أكثر مني

غاضب. لقد انتقل حبل عنقي من يد رفعت إلى يد الرعاة. أنا حر بالفعل، لكنني مقيَّد بألف قيد، وكنت لأفضِّل عليها أغلالًا حقيقية، أو سجنًا بجدران وسجَّان، يُعتقني من الذكرى والذنب والألم والشتات.

لا يزال أبو هاشم مضجعًا على الأريكة، محاطًا بالأطفال، يدندن عناوين-رئيسية لم أسمعها منذ كنت طفلًا بدوري...

يا طير يا ماشي لي أهلنا

بسرعة وصل رسايلنا.

والشوق ما تنسى يا طاير

لكُل البِسألك عنَّا.

قولِّيهم على عهدي ما زلنا وما زلنا

ذكراهم أنفاسنا و مشاغلنا

كيف حال بستانا وخمايلنا

وربوتنا ومجمع حباينا

أنا في انتظارك يا طاير

على ناري

وصل رسايلي يا طاير.

يا طاير، لا تهاجمنا اليوم فضلًا. ارفق بنا..

تزعق النوارس ردًّا على خاطري، أو تهديدًا.

كومة الجثث خارج المعكسر تحدق فيَّ بعين واحدة هائلة. تحط عليها بِيضُ النوارس وسُودُ الغربان، تنهش منها ثم تطير، ثم تعاود النهش...

***

أستفيق في الصباح الباكر من نومي في إحدى الغرف على صوت دقّات وخبطات، وثرثرة وبكاء أطفال. لقد اعتدتُ عمري على الاستيقاظ على أصوات مشابهة، وظننت أنني لن أسمعها مرة أخرى، بكل ما يرتبط بها من خطر وثِقل وأوهام.

أقوم لأجد النساء قد فكَّكن عشة الصيَّاد الذي زرناه بالأمس، ويربطن الآن أغصان السيَّال بحبال الليف، ليدعمن نوافذ المعسكر المهشمة. خيرًا فعلن؛ سنحتاج إلى وقت للبحث عن قوارب، فقوارب الصيد العادية لن تنفع في نقل كل هؤلاء، خاصة في الصيف، والبحر هنا يكره الصيف مثلي، ويكرهني أنا والصيف بضبابه وحمولاته الهشَّة من الحالمين.

الرجال في الخارج يحلبون الإبل، ويغطون الجثث بما وجدوا وسط المخلفات وراء المعسكر. لم تظهر الشرطة، وهذا غير مُطَمئِن حتى بالنسبة لي. ألم يتصل بهم رفعت حقًّا؟

يُحَييني أحدهم، وقد عرَّفوني بأسمائهم ليلًا، لكني نسيتها عمدًا. هذه أجساد

متحركة لا أكثر. أجساد ترتدي الأبيض، وأخرى ترتدي الملوَّن الزاهي، وثالثة ترتدي خليطًا بين هذا وذاك.

يشير لي الهَرِم لأقترب، فأقترب، وأتناسى اسمه.

- تعالى يا ولدي. فكَّرت؟

- نعم. سنرحل إن وجدتُ ما يُمكِننا الرحيل به بأمان نسبي.

يستدعى الهَرِم الرجال، فيتركون اللبن للأطفال ينقلونه إلى الداخل، ويتربعون معنا حول الحطب وإبريق الشاي. يقول كبيرهم:

- ماذا تريد منهم؟ ماذا سنحتاج؟

- سنحتاج إلى طعام معلب. القرية قريبة إلى حد ما، لكننا لن نضمن الطريق قطعًا. هل منكم مريض أو يحتاج إلى دواء؟

يسألني أبَّال ذو شارب:

- كم ستستغرق الرحلة من هنا إلى الديار؟

- ساعات، أو يومًا على الأكثر. هذا في حال وجدنا قاربَ صيد بمحرك ديزل.

- وهل تعرف مَن يبيع واحدًا أو يؤجره لنا؟

- لن يبيع أحد شيء في هذه الظروف. لو طلبتَ كوب ماء من أحد لفكَّر في حاجته هو إليه. لو طلبت حجَرًا، سيفكر في استخدامه لضرب أي حيوان يهاجمه. لن يبيع

أحد شيئًا.

يتبادلون النظرات، فأضيف:

- سنعتمد على أخذ ما ليس له صاحب. نعم، هذه سرقة، لكنها قد تكون أسلوب حياتنا حتى نصل.

وقد يكون أسلوب حياتنا حتى بعد الوصول، إن كنا سنصل. إن كان أحد سيصل إلى أي مكان.

نقسَّم ساعاتِ اليوم والرجالَ على المهامِّ المطلوبة، وستكون وسيلة التواصل بيننا هواتفنا المحمولة إن كان الإرسال متاحًا، وإن لم يكن، سنعود كلنا قبل الغروب مهما حدث. لقد رأيت النوارس تهاجم ليلًا، ولا أعرف لهذا سببًا، لكن سأفترض أن هذه هي سُنَّة الحياة الآن.

- لا بد أن يبقى رجل مسلح هنا لحماية النساء والأطفال في حال هجوم الحيوانات.

أو البشر..

يقول واحد آخر:

- سيغلقون الأبواب عليهم. لن تستطيع الجِمال والماعز كَسر هذا الجدار السميك.

- قد تستطيع الأبقار. لن نتركهم وحدهم.

- لكننا نحتاج إلى جميع الرجال. يجب أن نحرق هذه الجثث، دفنُها مهمة شاقة لا

داعي لها. رحمهم الله جميعًا. ويجب أن نجلب الطعام والماء و...

أقاطعه:

- ستترك مَن يحرسهم هنا.

هتف واحد لم يتكَّلم من قبل وهو يقول غاضبًا:

- سيأمرنا مِن أولها وكأنه كبيرنا. ماذا يعرف أصلًا عن البر أو البحر؟

لا أدافع عن نفسي، وأتمنى لو يختارون منهم قائدًا، ويرحلون ويتركونني. لا أريد تحمُّل المسؤولية، لكن إن تحمَّلتها فلا بد من طاعة الجميع.

يشير الهَرِم لي إشارة مخفيَّة لأقوم، فأقوم وأتركه مع رجاله. أمشي بمحاذاة الشاطئ، وأراقب الموج المتمرد حديثًا، وأسترجع أماكن القوارب على امتداد الساحل. لا أعرفها جميعًا، لكني أعرف اثنين أو ثلاثة... ورابعًا لا أريد اللجوء إليه.

بعد دقائق، يطلب مني الهَرِم أن أبدأ التنفيذ كما أشاء، وكنت أعرف أنهم سينصاعون. سنستغل الصباح الباكر في السير شمالًا؛ بحثًا عن قوارب بلا أصحاب، وما أكثرها!! في وسعي اختيار المعطوبة منها كي أتحاشَى السرقة، لكن الوقت ضيق، وإصلاحها خطر. تسع عشرة نَفسًا في قارب لا يسع إلا ثماني أو عشرًا مغامرة لا تحتاج إلى مخاطر إضافية.

سنحتاج إلى ماء من القرية، وهي حمولة فوق حمولتنا لكنها ضرورية.

سنحتاج إلى تمر.

سنحتاج إلى أدوية وأدوات إسعافات أوليَّة.

سنحتاج إلى حِبال ومِضخة طوارئ، هذه قد نجدها في القارب نفسه.

سنحتاج إلى ما يقينا هجمات النوارس.

سنحتاج إلى ذخيرة للأسلحة.. وهذه ضرورة قصوى، خاصة عند الحدود...

***

لم نجد غايتنا في اليوم الأول من البحث. لم نعثر إلا على قارب صيد واحد معطوب، وقد سرق أحدهم محرك الديزل منه، وعثرنا على عدة قوارب هجرها أصحابُها.

سنقصد غدًا الجنوب، لعلنا نجدها.. أو نلجأ لما أَفِرُّ منه.

نعود في الرابعة والنصف عصرًا، لأجد أغرب مشهد يمكن توقعه؛ لقد استفاق رفعت، وهو يجلس الآن مع الهَرِم يشربون الشاي، والرجل الذي تركناه للحراسة يكدس الأخشاب فوق الجثث التي فاحت رائحتها رغم اختفاء معالمها خلف الخردة. يهتف رفعت:

- خيرًا إن شاء الله؟ هل وُفِّقتم؟

يجيبه رجل معنا أننا لم نوفَّق، وسنتفش جنوبًا غدًا. ينظر لي رفعت نظرة صافية لامعة ويقول:

- طالما ميكيل معكم، ستجدون حلًّا. تفضلوا شايًا..

@ART_OF_BOOK

نجلس معهم ويُعَرِّف كبير الأُبَّالة الأطراف ببعضها. هذا صاحب الدار، وهم ضيوفه. لقد بدَّل رفعت ملابسه بأخرى نظيفة، واغتسل، وبدى أنه منسجم مع الهَرِم الذي انخرط في حكاياتٍ عنه وعمَّن معه.

- إبراهيم هذا وُلِد هنا. كم عمره؟ خمس عشرة سنة؟

- عشرون.

- نعم. هو أول مَن وُلِد لنا هنا.

يضحك واحد منهم ويقول:

- ومن سنتها ونحن هنا. العودة صعبة وتزداد صعوبة مع الوقت. لن يُسمَح لأحد بالمرور من المعبر دون تصاريح محددة الوقت.

يقول رفعت:

- لكن لكم طرقكم، وسِكَّة أبي زيد كلها مسالِك كما نقول في مصر.

يستمر الهَرِم في الحديث كأن شيئًا لم يكن، ثم ينهي كلامه:

- كنا في انتظاركم. سنصلي على المتوفَّيْن، ثم نحفر لهم قبرًا.

ويضيف رفعت:

- اثنان. واحد للحريم وواحد للرجال.

أعترضُ:

- هذا إهدار للوقت والطاقة. لقد اتفقنا على الحرق. لا يضير الشاة سلخُها بعد ذبحِها، وهم موتى منذ يومين، وانتظار يوم آخر قد..

يقاطعني رفعت:

- لا أتحمَّل فكرة أن يُحرقوا أمامنا. هل عدنا للعصور الوسطى؟ يوم زيادة لن يفرق معنا، لكنه سيفرق في إنسانيتا.

- ما لم تلتهم النوارس ما تبقَّى منها، ستجذب رائحتها حيوانات أخرى.

يؤكد أحد الجالسين وجهة نظري، ويضيف أننا رأينا في رحلتنا اليوم ماعزًا يلتهم جيف ماعز وجِمال. أضيف أنا:

- وقد جذبت رائحة نزيف أبي أحمد القطيع للأوتوبيس مرارًا.

يقول رفعت بهدوء:

- يوم آخر لن يضرنا.

أنظر إلى الهَرِم، فيهز رأسه موافقًا. أقوم مُحنَقًا وأدخل إلى غرفتي لأجد صغيرين قد احتلا الفراش، يلعبان بحصى وأعواد خشب.

يلاحظان وجهي المتجهم، فيخرجان دون نقاش. أغلق الباب وأجلس لأفكر. لقد قام رفعت بعد الحُمَّى والإصابة الكبرى. لقد قام وعرف أن سيارتيه غيرُ موجودتين، ومع ذلك يجلس هادئًا يطالب بإكرام الموتى! إنه في خطر بلا سلاح، والرعاة يفوقونه عددًا.

@ART_OF_BOOK

***

@ART_OF_BOOK

الحق قال الأولون: (مات الذين يختشون!)

ماتوا.. وعاش الداعرون..

الفاجرون.

انظر إليهم يَعرِضون..

عوراتِهم.. مثل البغايا في المعابد!

ومثقفون..

فيما يقال.. مثقفون!

الحق قال الأولون: (مات الذين يختشون!)

نجيب سرور

***

مات الذين يختشون!

صوفيَّة

وأُدرِك أنني ما زلت متمسكة بالوسادة!

لا أتذكر ما حكاه رامي في أثناء رحلتنا إلى قرية مرسى حميرة، لكن أعي أننا توقفنا مرارًا ليُبعد جثة أو جيفة عن الطريق الضيق غير الممهد.

ينزل رامي عند بقَّال، فيبتاع بعض الطعام المعلَّب، ثم يقصد محلًا آخر مما لا اسم له وسط مفرداتي القاهرية، متجرًا ذا درجات إسمنتية، يعلِّق أدوات بلا مُسَمَّى، منها ما يشبه الجواريف ومنها ما قد يكون أوعية لشيء ما. يغيب رامي بالداخل قليلًا، تقول لي نوارة وهي تميل نحوي من فوق سارة الغافية، تستعر حُمَّى على كتفي:

- صوفيَّة.. صوفيَّة؟ هل أنت بخير؟ هل تحتاجين إلى أي أدوية حتى نصل إلى القاهرة؟ الصيدلية هناك...

- هه؟ لا.. أنا بخير. معي مُسكناتي.

- وأنا معي أمبول الإنسولين خاصتي. أتمنى فقط ألا يكون قد فسد في هذا الحر.

تلف نوارة الأمبول الزجاجي بكيس مع زجاجة المياة الباردة التي ابتاعها رامي، ثم تَكِزني لأرى ما اشتراه الأخير. كان يحمل حبالًا متشابكة، ويحمل البائع خلفة لفَّة سِلك شبكي مختلفة عن سلك النوافذ. ربما هو أقرب لسلك عشش الدجاج. يقف الرجلان قرب باب الشاحنة، وأسمع البائع يقول له بتلك اللكنة المحببة:

@ART_OF_BOOK

- لا أعتقد أن السلك سينفعك. سيُثقِل السيارة، وقد يمكِّن الأبقار من قلبها بسهولة أكبر. لماذا لا تبيتون هنا؟ ستظهر الشرطة قريبًا طالما اتصلتم بها.

- يجب أن نعود إلى القاهرة في أقرب وقت.

- إذًا أنصحك بالشبكة. أخف وأكثر مرونة. عمومًا يجب أن تنتظر حتى موعد مَلء خزان محطة الوقود. يوجد مطعم في نهاية الطريق على اليسار. ساعتان وتصل الشاحنة.

- لا بأس، لكني سآخذ السلك أيضًا.

وشرع الرجلان في تركيب الشبكة المصنوعة من حبال سميكة حول نوافذ وواجهة الشاحنة. لا أعرف إن كانت ستصمد أمام الهجوم الذي وصفه رامي، لكنها قد تمنع عنا العض في حال كُسرت النوافذ...

؟...

؟...

هه؟ ماذا عن النطح؟ هل للجِمال قرون؟ لا...

للماعز قرون... للأبقار قرون. قرنان عظيمان كقرنَيْ حتحور، تحمل بينهما الشمس. وثديان عظيمان كثديَيْ حتحور، تُرضِع بهما الصغار.. هل للبقرة أثداء أم ضُروع؟ أحيانًا لا تناسب الدقة اللغوية الواقع، وقد تُفسِد النَّص وتزيفه.

ماذا عن الثيران وقرونها وحوافرها وأقضِبتها؟

يركب رامي، ثم يمد ذراعه ليثبت الشبكة من الخارج، ثم ننطلق مرة أخرى إلى المطعم.

تُرى هل عاد ميكيل أم هرب... أم نُهِش؟ هل مع أحد رقم هاتفه؟ لن أسأل.. ليس لي شأن به ولا بأي رجل. أنا فقط أتساءل؛ لأن الوقود عنده، وربما يستطيع نقله إلينا بـ..

صمتًا..

أحكم الطرحة حول رأسي، وأشدها إلى الأسفل لتغطي صدري، ثم أتحقق من هاتفي.. لا إشعارات، لكن الشبكة موجودة. نصل إلى المطعم فأترجَّل مرتجفة الساقين، وتنزل نوارة من جهة رامي كيلا توقظ سارة. سنضطرُّ لتركها هنا.

تدخل نوارة دورة المياه، وأحرَج أنا من فعل الشيء ذاته. كل الجالسين رجال؛ وقد.. يتخيلون ما أفعله بالداخل.

أجذب طرف الطرحة أكثر، وأجلس في أشد الأركان حلكة. تعود نوارة وهي تنظر في حَنَق إلى هاتفها. تجلس أمامي وتنادي رامي ثم تعرض الشاشة أمامنا وتقول:

- تلقيت ردًّا من جائزة بريزما. لا يعرف أحد هناك سليمان هذا، ولا يقيمون معتكفات كتابة! لقد نصب علينا!

يرد رامي في برود:

- وهل كنت في حاجة إلى رسالة منهم لتعرفي؟ لقد نصب علينا، وأنا سعيد لتركه

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

هناك، مع أنني أشك في أن الحيوانات قد تقترب منه.

تحاول نوارة معرفة رأيي، فلا أتكلَّم. لسنا في صالون يا صديقتي. أريد أن أعود لابني، لغرفتي وفِراشي وبيتي وحِصني وسجِني.

أفتح الفيسبوك، أشاهد ما جد في العالم، فأفاجأ بعدد مرات مشاركة الفيديو الأخير الخاص بي. تخيلت أن أحدًا لن يلاحظني، وسيكون أغلب الحديث عن خلفية الطيور ورائي، لكن..

«مُعتكف كتابي؟ لنا الله. نساء ورجال في مكان منعزل كهذا والمفترض أنهم سيكتبون..»

«متصابية أخرى تحاول اللحاق بقطار الزواج».

«مَن هذه أصلًا؟»

«جائزة بريزما لا تقيم معتكفات كتابية. كفى ادِّعاءً!»

وسط هذه التعليقات أخرى مذعورة أو مُنكرة، وآخرون يدَّعون أن الوضع مشابه في القاهرة، ويُرفِقون روابط لأخبار هياج حيواني عند الجزارين والمدابح بل وفي عنابر تربية الدجاج!

ترتجف يدِي وأنا أكتب على فيسبوك منشورًا عما حدث لنا، لكنني أتراجع فورًا. سيلومونني على الذهاب إلى هناك. سيدعون أنني أريد لفت الانتباه. سينهشونني... وأحتضن الوسادة، أخفي بها جسدي.

يأتي الشاي، فنشربه ورفيقاي يتصلان بذويهما. ليس لي ذوي إلا ابني، وهو لا يردُّ.

***

تمر الساعتان، ونذهب لمحطة الوقود، فيخبروننا أنه لم يصل بعدُ. يقول لنا رامي وهو يُطِل من نافذة الشاحنة من تحت الشبكة:

- يقولون: إن الطريق إلى شلاتين مليء بقطعان مهتاجة، لذا لم تأتِ سيارة الوقود. أشك في هذا؛ شاحنات الوقود عملاقة ولن تتضرر من ارتطام القطعان بها.

تسأل نوارة:

- ما السبب في رأيك إذًا؟

- لا أعرف. لا أحد يعرف.

- وكيف سنخرج من هنا؟

- سأحاول العثور على مَن يُعِيرنا دِيزل. لكني لا أعتقد أن أحدًا سيقبل. الأخبار تطير بسرعة في القرى، والكل يعرف الآن.

- ما رأيك في أن... في أن تمشي إلى المعسكر وتحضر الوقود من هناك؟ لا يشترط أن تمشي، يمكنك استعارة عربة..

- لقد دمرنا شاحنة أحد الأهالي، ولم نُعِدْ عربةَ الجرِّ التي استعرناها! مَن قد يعيرنا أي شيء؟ ثم إنني لن أسير قطعًا في طريق مليء بالجثث. ماذا لو هوجِمت؟!

يركب رامي ويغلق الباب وراءه بعنف. يمد يده، يتحسس جبين سارة الملتهب، ثم يطلب منا أن نرطب شفتيها، ثم ننقلها إلى داخل المقهى. المقهى نفسه عبارة عن قوائم خشبية، وأقمشة وبلاستيك. هو أقرب إلى خيمة هائلة أو صُوان، يحمل لافتة عليها اسم المكان وصورة ابن مالكه الصغير. هذا مكان غير آمِن.. لكن لا بديل.

فننقلها، وتمر ساعات أخرى كئيبة حتى الظهر. لأول مرة أنصت إلى الأذان كاملًا دون مُشتتات، دون استعجال، دون شيء أرجئ لأجله الصلاة التي لم أصلِّها منذ عقود.

لا شيء أمامك يا صوفيَّة الآن. المكان والزمان متجمدان، ولن يُجدي شيء في تحريكهما سوى الشخصيات. هكذا كنت أفكر وأنا أكتب، وهكذا كنت أفك معضلة الصفحة الأولى.

أقوم فجأة، وأسأل أحد العاملين عن «مكان دورة المياه حتى أتوضَّأ». هكذا لن يفكر في شيء سوى امرأة في معيَّة الله.. يشير إليها، فأهرع إليها وأغلق الباب وأفعل ما خشيت أن يتخيَّلوه. المكان غير نظيف، لكن لا خيار. أتوضَّأ وأخرج لأسأل مرة أخرى عن مكان أصلي فيه، فيقال لي: إن في وسعي الصلاة خلف ساتر يستخدمون المكان وراءه للقيلولة.

ولم أصلِّ، فقط انهرت. جثوت ورأسي إلى الأرض أبكي بلا صوت. أنا مرتعبة.. أنا أخشى الألم.. روحي متقرِّحة لا تتحمل اللمس..

بعد ربع ساعة، أخرج إلى رفاقي لأرى سارة قد استفاقت، وجلست ملاصقة لرامي

رغم النظرات، يحاول أن يُطعِمَها شيئًا. أسألها

- هل أنتِ بخير يا حبيبتي؟

- نعم.. أحسن كثيرًا.

وتنظر إلى رامي بعين واحدة ذابلة، وتهمس:

- لقد أنقذتنا. شكرًا لك.

يبتسم رامي، ويُكمِل مهمته، وأتمنى أنا لو تبتعد عنه قليلًا، فلا ينظر إلينا الأهالي بهذه الطريقة.

ويمر الوقت.. ويحل العصر ولا جديد.

ويحل المغرب..

ولا جديد.

***

تغلق القرية مَحالَّها وبيوتَها قبيل المغرب. أعرف أن هذه ليست عادتهم صيفًا؛ إذ إنهم اعتادوا التسامر في الخارج وقرب البحر، وإشعال النار وشرب الجَبَنة، وأحيانًا إقامة حفلات تراثية صغيرة للسائحين. لكن اليوم مختلف.

يوصلنا صاحب المقهى لعائلة وافقت على استضافتنا، ويبدو أن الأغلبية لم يوافقوا، خاصة مع كوننا غرباء، والكل هنا متحفظ مع الغرباء. الناس هنا لا يُبدون إلا قشرة من

حقيقتهم، لا يبدون إلا لوحة سياحية على خلفية البحر والجبال.

ماذا عن المبيت في المخفر أو الوحدة الصحيَّة؟ إنها مكتظَّة بالأهالي المرتعبين والرعاة الجوَّالة والمصابين في هجوم النوارس. لا مكان للغرباء...

البيت الذي استضافونا فيه بعيد عن قلب القرية؛ حيث المباني الخدمية الحكومية. بيت مصنوع من الصفيح وألواح الخشب المضغوط والقماش والبلاستيك. خليط معماري لم أره إلا هنا، وأنا أعترف أنني لم أرَ شيئًا خارج حدود شارعنا إلا هنا.

إلا في خيالي طبعًا.

تُدخلنا ربَّة البيت إلى قطاع من المنزل، مفصول عن بقيته بستار من ملاءات قديمة. كانت بشوشة، جميلة، ملونة. تعطينا خبزًا وجبنًا وماءً، وتجلس معنا فيما يمكث رامي مع زوجها وأطفالها الأربعة في القطاع الآخر قرب الباب.

أعرف منها أنها تتكلم العربية؛ لأنها كانت تذهب إلى الكُتَّاب وهي طفلة. لا تزال طفلة في نظري، ابنه العشرين عامًا التي نحتتها قسوة العيش وحولتها إلى خمسينية مثلي.

ألاحظ أن قوائم الفراش المعدني الوحيد هنا مغموسة في أوعية ماء بلاستيكية، وأن رائحةً تشبه رائحة المواشي تفوح من المكان. تقول لنا حَسَنة:

- لنا أيام نواجه العقارب التي تزحف إلينا من الجبل. هذا غير معتاد. اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا.

أنظر إلى سارة متوقعة أن تنكمش في الركن أو تقفز واقفة خوفًا، لكنها تنظر إلى أوعية الماء في برود. تلاحظ حَسَنة هذا، فتضيف:

- هل تحبي أن أنظف جرح عينك؟

- أنا بخير.

- لا تتهاوني في العين، ولا تخافي. سأغسلها فقط بالماء.

إن عين سارة بشعة المنظر، مغلقة بتجلط دموي. رفضت الفتاة أن نغطيها أو نغسلها، لكنها الآن تبدو أكثر مرونة. تحضر حَسَنة الماء وقطعة قماش، وتبلل الدم المتجلط ببطء. لا تتألم سارة، لكني تألمت نيابة عنها. لا عقاب دون ألم، ولا بد أن ما يحدث عقابي أنا لا هي.

يدخل رامي علينا، ويقول في تردد:

- أ.. المكان غير آمِن تمامًا. هل تودون المبيت في السيارة؟

تقول نوَّارة وهي تحقن نفسها بالأنسولين قبل العَشَاء:

- كيف نقضي الليل كله فيها؟ نحن أربعة.

- إذًا، نضطر إلى ما اقترحه علينا أبو عَمَّار، وإلا مثَّلنا نحن خطرًا عليهم.

يسمح رامي لأبي عمَّار بالاقتراب؛ هو شابٌّ ثلاثيني، ربما راعٍ أو فحَّام أو عامِل باليوميَّة، ربما هو روح الأرض وجاءت تنذرنا بالعذاب لو لَم نكفِّر عن ذنوبنا.

يقول الشاب: إن ما يعرفه من أهالي القرية والرعاة يؤكّد أن الحيوانات صارت ترفض طعامها المعتاد، وتبحث عن لحوم حيَّة. رائحة الدم تجذبها، رائحة اللحم البشري أو الحيواني تجذبها. ربما يجذبها صوت الأنفاس أو ضربات القلب. لو كان متعلمًا لقال: إن رائحة الأدرينالين تجذبها، رائحة الهرمونات ورائحة الذنب المكبوت.

-لذا، ندهن أنفسنا بالروث. هذه رائحة منفرة لهم. لقد جرَّبنا. اعذروني.. لو رفضتم لن أستطيع السماح لكم بالمبيت هنا.

أرفع رأسي لأنظر عبر النافذة المدعومة بالأخشاب إلى الليل الزاحف. أين سنبيت؟ لن يفتح لنا موظفو البلدة مبانيها الحكومية. هذه مسؤولية كبرى.

أتكوَّر حول نفسي، فيما ترفض نوَّارة التجربة، وتقوم لتبيت في السيارة؛ ويوافقها رامي على هذا. ينظران إليَّ أنا وسارة، يدعواننا للمبيت فيها، لكنني أهزُّ رأسي؛ رفضًا، وأحتضن وسادتي. تقول سارة وهي تنظر بعينها الواسعة الوحيدة إلى رامي:

- اذهب أنتَ ونوارة. لقد اعتدتُ أن أكون آخر اختيار في حياة الآخرين.

فيقول رامي مدافعًا:

- كنت سأعرض عليكِ الذهاب معنا.

- اذهبا أنتما. السيارة ضيقة. سأكون بخير.

تنظر إلى وعاء الماء الواقي من العقارب، ثم تنظر إلى رامي. يقول الأخير مرتبكًا:

- اذهبي أنتِ ونوارة إذًا، و... سأمكث أنا هنا وأدهن جسدي بـ..

تلاحظ نوَّارة رغبتهما في إقصائها، فتقول وهي تتربع:

- اذهبا أنتما. سارة مصابة ولا نريد تلويث جرحها. سأتصرَّف أنا.

تقبِّل سارة نوارة في حماس، وتخرج مع رامي. يقف أبو عمَّار ينتظر أن نقوم معه لندهن أنفسنا بالروث. أقوم أنا أولًا، وتقوم نوارة خلفي مترددة، تسأل:

- هل سأدهن جسدي كله؟ ألا يمكن أن نكتفي بالملابس فقط؟

فترد حَسَنة:

- ادهني ملابسك فقط. سنغسلها في الصباح.

- لماذا لا تدهنون البيت نفسه من الخارج أفضل؟

- دهنَّاه، لكن ماذا لو اقتحمت الحيوانات المنزل؟

- لو لم يمنعها الروث من اقتحامه، فلن يمنعها عن التهامنا.

تتبادل المرأة وزوجها النظرات، ثم يصر الأخير على موقفه. تجادل نوَّارة:

- لن أدهن ملابسي ولا جسدي بهذا القَرَف. لسنا بهائم هنا!

يرمش الزوجان ولا يردان.

- لن أفعل هذا. أريد غطاءً لو سمحتما، وسأبيت في الشارع.

أسحبها بعيدًا عن الزوجين وأهمس لها:

- نوارة.. إما أن تفعلي مثلما سنفعل جميعًا، وإما أن تُصِري على المبيت في السيارة.

- لا هذا ولا ذاك. لن أتنازل الآن وفي يدي خيار ثالث. هم لن يَقبلوا بأن أبيت في العراء وقد قبلوا بوجودنا من الأساس.

- لكن هذا استغلال لهما! ماذا لو هاجمت الحيوانات البيت بسببنا؟

- ماذا لو كان ذعرهما غير منطقي! إما أن الروث يمنع الحيوانات، إذًا يكون طلاء الجدران الخارجية كافيًا، وإما أنه لا يمنعها، إذًا لا داعي للحط من أنفسنا!

- من أين لكِ بهذا الثقة كي تخاطري بهم؟!

- ومن أين لكِ يا صوفيَّة بهذه الثقة لتقبلي إهانة جسدك بلا داعٍ؟

- كلنا في مركب واحد، ونحن بالإجماع موافقون. لا يمكن أن تكوني أنانية إلى هذه الدرجة! ستكونين السبب في موتنا!

تتسع عينا نوَّارة تعجُّبًا، ثم تعلن:

- لن أفعل هذا. سأخرج.

- يا لغرورك!

وتخرج نوارة بلا غطاء ولا روث. تعتذر حَسَنة، وتشير إلى أطفالها، فأخبرها أننا جميعًا في ورطة ومضطرون لفعل أي شيء لحماية صغارنا... وأنفسنا.

***

الرائحة لا تطاق.. الملمس لا يطاق.. لكنَّ لكل ذنب تكفيرًا.

هل بالغتُ في تغطية جسدي بالروث؟ المبالغة أفضل من التقصير. كيف سأصلي العشاء؟ هل صليت المغرب والعصر حقًّا؟ لا أعتقد أن الانتحاب يُحتسب صلاة.

الوسادة إلى جواري، أجاهد نفسي كي لا أتسلَّح بها فتلوث.

لا ينام أحد هنا، ولا حتى الصغار. ننصت إلى كل صوت بالخارج، وإلى كل لفحة هواء، وإلى كل أزيز أو صرير أو طَرق.

سكون تام، سكون يستدعي حركة الشخصيات وإلا توقَّف السرد. فليتوقَّف السرد، فليحترق. لن أتحرَّك.

أشعر بالجدار خلفي يهتز قليلًا، فأكاد أصرخ، لولا أسمع صوت نوارة تهمس لي، وبيننا جدار الخشب المضغوط:

- أنتِ غاضبة مني يا صوفية؟

- أعتذر لكِ. ما كان لي أن أنعتك بالغرور والأنانية. أنتِ أنقذتني مرارًا.

تضحك نوارة وتقول:

- الجو بارد جدًّا.. رطِب، لكني مغرورة وكبريائي منعني من تكرار طلب غطاء.

- ليس عندهم أغطية إضافية على أي حال.

- ما الذي اضطرك إلى الانضمام إلى هذا المعتكَف؟ رواية جديدة تعايِدُك؟

- لسنا في صالون يا نوارة، أسئلتك أسئلة صالونات!

- اعتبريه صالونًا يا سِتّي لتزجية الوقت. سأخبرك أنا بسبب انضمامي. كنت أريد كتابة كتاب عن الصالون، عن فِعل الكتابة والسيطرة على الواقع وترويضه داخل صفحات. هذا عمل مبهر بالنسبة لي... غامض. أشبه بمراقبة إله يصنع خليقته.

- ليس إلى هذه الدرجة. لسنا آلِهة.

- يمكن أن نكون آلهة مصغرة، نتحكم في عالم مصغَّر.

- نحن حتى لا نتحكَّم في عالم متناهي الصِّغَر. انظري إلى حالنا.

- لكننا نختار. يجب أن نختار، والاختيار خَلق.

أتفق معها، فاختيار الشخصيات في الرواية يخلق أحداثها، حتى لو انعدم المكان والزمان. لكن الواقع شيء..

... والخيال شيء آخر. هذا الخط الخفي الذي أرسمه على الأرض يؤكِّد هذا.

- هل ترين سارة ورامي؟

- متكوران في السيارة. عصفوران...

- لا أراهما إلا تصديقًا لرؤية رفعت عنا. لم نأتِ للكتابة، بل للـ... لا أعرف.

- أتينا للحياة، للتجربة. أنا شخصيًّا لم أعِش. أنهكتني تربية الأبناء حتى ذهب كل واحد إلى حال سبيله، ورحل أبوهم رحمَه الله وتركني وحدي. قررتُ ألا أكون عالة على أحد، وأن أعيش.. لا أن أنتظر الموت كقريناتي.

- ألم تخشَيْ لوم الناس لكِ؟

- أنا أخشى الوحدة، أخشى الموت بالحياة.

وأنا يا نوَّارة.. وأنا.. لكن كلما قاومت، عوقِبت.

***

لم تهاجم الحيوانات أحدًا الليلة، وفي الصباح عرفنا أنها هاجمت حفل زفاف في الجنوب؛ في قرية أبي رماد.

تداول الناس فيديو صوَّره أحد الحضور، وظهر لي على فيسبوك. لم يكن لمرسى حميرة كلام سوى عن هذا الحدث المريع، حتى أن الأهالي اجتمعوا حول المخفر يطالبون بالحماية أو معرفة مصير المنطقة لو لم يسيطر أحد على هذه الحيوانات.

كان التجمهر مهيبًا، وخلت طرقات القرية من المارة والباعة. لم تفتح المحالُّ أبوابها، وقيل لرامي في محطة الوقود: إن المحافظة فرضت حظرًا حول المنطقة، لكنها وعدت بإدخال الطعام والوقود والخدمات الطبية فقط.

سأل رامي الرجل عن الوقود طالما ستدخله الحكومة، فقيل له: إن شاحنة الوقود التي

لم تصل أمس سُرِقَت... اختفت من على الطريق ولم يستطع أحد الوصول إلى سائقها.

***

نجلس أمام منزل أبو عمَّار، وقد اغتسلتُ من الروث الجاف في البحر وغسلت ملابسي، واستبدلت بها أخرى من حقيبتي. يقول رامي وهو يمسك رأسه كأنه مصاب بصداع:

- ماذا سنفعل؟ دون وقود لن نتحرك، وربما تنقطع الكهرباء قريبًا.

يرد أبو عمَّار:

- صبرًا يا أستاذ. لن تختفي كل الشاحنات التي تدخل إلينا بالتأكيد. لو اضطررنا، يمكننا شراء وقود من شلاتين لك ولنا.

- ستشترون وقودًا للقرية كلها؟ لا طبعًا. من قال: إنهم سيسمحون لكم بشراء ما يحتاجون هم إليه؟ الشيء نفسه سيحدث مع المياه والطعام والأدوية. كل منطقة ستنغلق على نفسها حماية لمواردها.

تضيف نوَّارة:

- هل من بنوك هنا؟

- في شلاتين.

- سيقل تداول المال إذًا. سترتفع الأسعار ويقل الدخل، لا سيما أن مصدر رزقكم

يعتمد كليةً على الرعي وبيع الحيوانات.

تقول سارة برقَّة:

- لكن هذا لن يستمر طويلًا يا رامي، أليس كذلك؟ لن أتحمَّل!

- لا تقلقي يا سارة. سأحصل لك على ما تريدين حتى يأتي الفرج.

لا أتكَّلم ولا أشارك. ربما لا أصدق أيضًا. لقد أجبرتنا الرواية على التوقف نحن والزمان والمكان. حالة جمود. فريد، تنشب أنيابها في الآن فقط.

تقول نوارة وهي تُخرِج من حقيبتها أمبول الإنسولين:

- فسدت هذه. هل يمكننا الحصول على أخرى؟ وهل من وسيلة لإبقائها باردة؟

وبينما نحن جلوس؛ إذ جاءت حَسَنة ومعها ابنها الأكبر؛ يحملان جراكن الماء الخاوية. قالت حسنة: إنها ذهبت لملئها، ففوجئت أن الماء ملوث بالدم.

يهتف رامي:

- سرقة شاحنات وقود، وتلويث خزان الماء عمدًا! مَن قد يفعل هذا؟ لا بد من فاعل!

وجه أبو عمَّار الحائر لا يملك إجابات. الغمُّ يكسوه، ونظرته إلى أبنائه تزيدني همًّا.

ما ذنبهم؟ تقترح نوارة على رامي الشارد بدوره:

- لو عدنا إلى المعكسر، سنحصل على وقود من هناك.

أسألها:

@ART_OF_BOOK

- وماذا سنفعل به؟ المخارج مغلقة.

- ربما.. ربما نشغل به المولِّد.. سنأخذ المولِّد نفسه!

- لماذا لا نعود للإقامة في المعكسر إن تساوت الأوضاع في كل مكان؟ رامي.. رامي.. ما رأيك؟

يجيب رامي:

- نعم؟ لديكِ حق، لكن مع العلم أنه كلما ازداد ما معنا من وقود وماء ومسكن، كلما زاد احتمال هجوم الناس علينا ومحاولة نهبنا.. وقتلنا. يجب أن نحصل على أسلحة وذخيرة أولًا. هل لديكَ أسلحة يا أبا عمَّار؟

- لا. أنا أعمل جامعًا للكلأ لا أكثر. ليس لديَّ سوى عِصِيٍّ وسكاكين.

- فكِّر في مكان قد يكون فيه أسلحة، فيما نخبئ الشاحنة. معنا ماء وبعض الطعام، وستكون مطمعًا للنهَّابين لو ظلَّت مكشوفة هكذا.

تعاون الرجلان على إنزال ما في الشاحنة من ماء ومتاع، ثم اقترح أبو عمَّار:

- أين سنخبئها يا أستاذ رامي؟ اسمع.. سنوقفها خلف المنزل، ونفك منها البطارية وإطارًا مثلًا ونغطيها بالتراب. لو سألني أحد عنها، سأقول: إن أحدهم تركها هنا ولا أعرف عنها شيئًا.

استحسن رامي الفكرة، وقد تحولت السيارة من مطمَع إلى عبء. ينفذ الرجلان

خطتهما ويخبئا في الكوخ ما لا نحتاج إليه الآن، ثم نذهب جميعًا إلى الوحدة المحليَّة؛ حيث اجتمع بعض الأهالي-الباقون مشغولون في البحث عن حل عملي للمعضلة المُستجدَّة- ويقال لنا: إن الوضع مؤقت وأن كل شيء سيكون طبيعيًّا ولن نشعر بأي تغيير، وأن علينا تسليم الماشية والإبل التي تُبدي أي أعراض غير طبيعية، وأنهم سيبيعون للأهالي البضائع مباشرة حسب الأنصِبة، لتحاشي السرقة والتدافع، وأخيرًا طالبوا الجميع بإحضار بطاقاتهم الشخصية للتسجيل في برنامج التسكين في المدرسة والوحدة المحلية لمن يحتاج إلى مسكن.

كلام كثير لم يؤثر في قرار رامي بالعودة إلى المعسكر. لكن دون أسلحة، لن نستطيع الدفاع عنه. لو انتظرنا أكثر، سيستولي عليه آخرون.. ماذا سنفعل؟ لماذا لا نقيم في المدرسة أو الوحدة مع الناس؟

يجيب رامي على اعتراضي:

- لأن موارد القرية لن تكفي إطعام كل هؤلاء. سرعان ما سيتقاتل الأهالي، ولن ينجو إلا مَن يملك قوته أو ما يبادل به ما يحتاج إليه. أوافق نوارة؛ لن تمر أيام حتى نرتد إلى البدائية ويفقد المال معناه. لكن دعينا ننضم إلى الساكنين في المدرسة مؤقتًا، على الأقل سنُعفى من دَهن أنفسنا بالروث... أو التكور مع الغرباء في سيارة وسط الظلام... لا ينقصنا ذنوب أكثر مما أذنبنا.

رضاك يا رب ومغفرتك.. رضاك ومغفرتك..

أتصل بابني مرة أخرى، فأجد هاتفه مغلقًا. أبحث في قائمة الاتصال حتى أصل إلى

اسم أبيه. يرتجف إبهامي ويتراجع مرارًا في الضغط على الاسم. لا أريد سماع صوته.. سيلومني.. سيصيح.. سيسُب.. سيذكرني بأنني غانية منفلتة.. ولن يطمئني على ابني عقابًا لي لا أكثر. بمن أتصل؟

أقول لنوارة:

- هل تصنعين لي معروفًا وتُرسلين أحد معارفك إلى عنوان بيتي ليطمئن على ابني؟ هاتفه غير متاح.

توافق نوارة على الفور، وتُجري اتصالًا، تعدني بعده أنني سأتلقى خبرًا يطمئنني في غضون ساعتين.

***

وقبل مرور الساعتين، يتصل أحدهم بنوَّارة، يخبرها بأنه ذهب إلى العنوان المذكور، ودق جرس الباب مرارًا ولم يفتح أحد، وأضاف إضافة زلزلت الأرض تحت قدمَيَّ.

- قال لي: إن شققًا كثيرة تفوح برائحة كريهة.. هو يقصد أن هذا أمر عام في القاهرة، لا في بِنايتكم فقط.. لا تقلقي..

- ماذا قال لكِ تحديدًا؟!

- قال: إن أحدًا لم يفتح له، وأنه شم رائحة كريهة، لكنه غير متأكد من مصدرها. هل يُخرِج ابنك؟

ابني لا يخرج وحده، حتى الجامعة كنت أوصله إليها وآخذه منها. كل ما طلبته منه

قبل سفري ألا يخرج! كل شيء سيصل إليه بخدمة التوصيل! ماذا لو أنه قد اتصل بأبيه فأخذه؟ إلى أين سيأخذه وزوجته لا تريد رؤية ابن طليقة زوجها « المتخلف»؟ هل خرج من تلقاء نفسه؟ هل تأخرت عليه خدمة التوصيل فخرج؟ هل ضل طريقه؟

تسألني نوَّارة:

- قد يكون نائمًا، أليس كذلك؟ سأرسل علوان للسؤال عنه مرة أخرى ليلًا. ما رأيك؟

- نعم.. أرسليه.. هل.. يمكن أن يأخذ معه نجارًا لكسر الباب؟

- هذه مسؤولية يا صوفية. لو معك رقم حارس العقار أو فرد الأمن فيه، اتصلي به واطلبي منه أن يفعل ذلك.

فكرة ممتازة لم تخطر لي، أنا التي أخشى الاتصال بأي شخص. أتصل بالحارس، أحكي له، أطلب منه المساعدة، فيقول: إنه يحتاج إلى موافقة زوجي؛ مالك الشقَّة! ألا أسكن أنا وابني فيها؟ ألا يعرفنا؟ ألا يكفي أنها حالة طوارئ؟

- معذرة يا مدام صفية. لا أستطيع. اجعلي الأستاذ يكلمني أو يأتي بنفسه أفضل.

لن أتصل بالأستاذ! لن أتصل به وأخبره أنني تركت ابني وحده وسافرت والآن أحتاج إلى مساعدته. نعم، هذا ابني أنا، وقد دفعت ثمنه من عمري!

أرتجف، أتعرَّق. تحيط نوارة كتفَيَّ وتعطيني بعض الماء.

كنا جالستين أمام عتبة الصيدلية، وقد حصلت نوارة على أنسولين، واتفقت مع الصيدلي على حفظه مؤقتًا في ثلاجة الصيدلية. هذا مكان لم يَنهَبه أحد أو يلاحظ

أهميته حتى الآن. لقد أرسل المخفر شرطيًّا بائسًا يجلس أمامه، وهو كل ما استطاعت القرية توفيره من حماية لمكان مهم كهذا.

الصيدلي من أبناء البلدة، وهو ليس صيدليًّا بالضبط، بل بائعَ أدوية، والمكان نفسه مرخَّص باسم صيدلاني يقيم في شلاتين.

تدخلني نوارة إلى الصيدلية؛ حيث مروحة سقف لا تنفع في تبديد الحر. ماذا سأفعل الآن؟

- اتصلي بطليقك يا صفية. لن يعضك. افرضي أن الولد في حاجة إلى مساعدة؟ افرضي أنه خرج وضل الطريق؟

أنظر إليها فزعة من الفكرة، فتضيف وهي تمد يدها لي:

- هاتي رقمه وسأتصل أنا به. لاحظي أن الهواتف لن تعمل طويلًا لو توقفت محطات الكهرباء هنا. يجب أن تطمئنّي على الولد في أقرب وقت.

أعطيها الرقم، وتخرج لتتصل به، ثم تعود محمرة الوجه وتهتف وهي تضحك:

- رجل صفيق بالفعل!

- ماذا قال لك؟

- لا يهم. المهم أنه سيذهب إلى الولد، وسيتصل بي.

لا شيء أمامنا سوى الانتظار.. سوى الأمل في تحرك الساكن.

***

ويحل الليل، ولا يَرِدُ إلينا ردٌّ.

نتكوَّم في فصل من المدرسة الصغيرة، والتي لا تحوي سوى خمسة فصول ضيقة، تغطي مراحل التعليم الابتدائي.

نجلس أنا ونوَّارة فوق شال صوفي من شيلان الأخيرة، وقد كوَّم الناس مكاتب الطَلَبة في ركن، وتمدد فوقها مَن أحضروا معهم حشيَّات.

نوارة ليست على ما يرام. نوَّارة ترتجف. يبدو أن الطعام غير كافٍ أو غير مناسب لمرضها. الإنسولين في الصيدلية ولن نستطيع الذهاب إليها إلا في الصباح.

مَن قال: إن الحيوانات لن تهاجم في الصباح؟

على الأقل لن نسير وحدنا في الطرق الخاوية، وسنجد مَن ينجدنا أو يوصلنا إلى هناك.

أمَّا الآن، نوارة ترتجف؛ وتدَّعي أنها بخير. تشرب رشفات ماء من الزجاجة، وتقول: إنها تساعدها أكثر من الطعام معنا، والذي يتكوَّن في غالبيَّته من نشويات؛ بسكوت، نواشف، مقرمشات.

لم يوزِّع أحد علينا أنصبة طعام كما قيل لنا، وسمعت من النساء في الفصل أن الطعام لا يكفي، وتوزيعه سيتسبب في صراع عليه.

المساواة في الظلم عدل. هكذا تعلَّمنا..

أهمس لنوَّارة:

- معي جُبن أعطتني حسَنَة إياه أمس ولم آكله. تعالي معي لتأكليه حيث لا يراكِ أحد.

- أين حَسَنة؟

- مع جاراتها في الركن هناك. ألا ترَيْنا؟

والفصل مظلم، لا يضيئه سوى نور القمر القادم من الخارج. لا مولِّدات، ولا كهرباء حتى يستوثقوا من وصول الوقود.

كل هذا يوحي إليَّ بأنهم يعرفون أننا معزولون، وأنهم قد تخلَّوا عنا. مَن تخلَّى عنا؟ الحكومة أم شيوخ القبائل أم رجال الوحدة المحليَّة أم الرعاة أم الله؟

أستغفر الله؛ لن يتخلَّى عنا الله، هو فقط يختبرنا.. يعاقبنا الآن كي لا يعاقبنا في الآخرة.

- هيا يا نوَّارة.. قومي معي.

- انتظري قليلًا. لو أكلت الآن سأتعب مبكرًا قبل موعد فتح الصيدلية.

جسد نوَّارة بارد، أغطيها بسترة من حقيبتي، وأمسِّد شعرها الأبيض، أجدله جديلة طويل رفيعة تذكرني بجدائل جدتي، ثم أغطيه بطرحة.

النساء في مجموعات، كل مجموعة في ركن من أركان الفصل. الأطفال يرسمون

على السبورة في سعادة، لا يدركون ما نحن فيه. يرسمون ما لا يجوز لهم رسمه في الصباح أمام المعلمين.

يرسمون طيورًا بريئة، وخيولًا وجِمالًا وشمسًا وأزهارًا.

تقول حَسَنة من مكانها:

- هل معكِ مسكِّن؟

تتحاشى حسنة مناداتي باسمي، وتشعر بحرج لطلبها أي شيء، لكن يبدو أن امرأة تعرفها تعاني ألمًا. أمدُّ لها يدي بقُرصَي بانادول من حقيبتي، وأسألها عما بها، فتجيب:

- إنها تعيش بكِلية واحدة.

- هل كانت مريضة فاستأصلتها؟

تشيح حَسَنة بوجهها، وهي تجيب:

- باعتها.

- لماذا؟!

- المعيشة صعبة. كِليتها المتبقية معطوبة. قال الطبيب: إن بها حصوات.

تهمس نوَّارة بصوتها الضعيف:

- أتعرفين.. حين أفكر في الأمر، أجد أن مرضي يلتهمني عضوًا عضوًا منذ زمن، والآن يكشر عن أنيابه.. يقول: إنه أخطر مما ظننت. أعتى من مِحقَن أنسولين أضحك

به على نفسي.

أعرف المرض يا نوَّارة.. أعرف من المرض ما ليس له تشخيص ولا دواء.

- كم أننا ضعفاء يا صفية أم أقول: صوفيَّة؟!! اسمك جميل.

- نعم. أسمتني به جدتي لأبي. كانت تتمنى لو أصير تقيَّة متدينة مثلها.

الضباب يغلِّف المبنى.. صوت رياح قويَّة تهب في الخارج، تصفِّر وهي تتسلل إلينا من بين فرجات النوافذ. هواء محمَّل بالغبار، يستفز حساسيتي فأسعل..

وأتذكر كم كان السعال يؤلمني في الأيام التالية من ختاني!! أبي وأمي متعلمان، لكنَّ جدتي الريفية أصرَّت على أن تفعل كل شيء لتداوي أنوثتي (من بدري). الأنوثة مرض من الأمراض التي لا تداويها الأدوية والعمليات. كنت في التاسعة، وقصُّوا قطعة صغيرة من أنوثتي، وقطعة كبيرة من نفسي معها. عقاب استباقي على كل ما سأفعله في حياتي، والمفترض ألا أعاقَب مرة أخرى مهما فعلت.

لكني فعلت.. وعوقبت مرارًا، ثم ها أنا أعاقب الآن مرة أخرى.

لا شفاء من الأنوثة. أقول لنوَّارة:

- أحاول أن أصلي فلا أستطيع.

- لماذا؟

- لا أعرف. كلما وقفت أمام القِبلة بكيت وجثوت أطلب الرحمة فقط.

- طلب الرحمة صلاة يا صوفيَّة.

- لكني سأعاقَب على تركي الصلاة.

- وستُجازين على المحاولة.

أُصِر على أن تقوم نوَّارة معي لنجد مكانًا تأكل فيه دون استفزاز جوع الآخرين. تمشي منحنية، تلتحف بالسترة. نخرج من الفصل ونمشي في الطرقات الضيقة. الفصول على الجانبين مكتظَّة. فصلان للرجال والباقي للنساء. لم يقسمنا أحد، بل اتخذنا هذا التقسيم تلقائيًّا.

أرى في فصلَيِ الرجال سيوفًا ودروعًا وأسواطًا. الرجال مبتهجون أكثر من النساء، وكأنهم وجدوا أخيرًا ما يفعلونه كرجال حقيقيين من العصور الوسطى.

نقترب من الحمَّامات في نهاية الطرقة، وأسمع صوتًا فأتوقَّف. صوتَ تنفس ثقيل.. صوت تأوُّهات خافتة.. كلمات هامسة تدفع الدم في جسدي إلى أعلى.. وإلى أسفل... أعتصر يد نوَّارة فتتوقف وتنتبه. تحمر وجنتاها قليلًا، ثم تهمس:

- لِنَعُد.. أو لنأكلْ في مكان آخر.

- انتظري.

- تعالي يا صوفيَّة!

أمشي بضع خطوات وأقترب من مصدر الصوت؛ حمَّام مغلق. أدير المَقبِض برفق وأدفع الباب لكنه لا يُفتَح. أسمع من بالداخل تقول:

@ART_OF_BOOK

- رامي.. أحدهم بالخارج!

أتراجع بسرعة، وأسحب نوَّارة إلى الجهة المقابلة من الطرقة. تسألني عما حدث، فأهمس لها من بين أسناني:

- ألا يكفي ما نحن فيه؟ مِن أين لهما الطاقة والمزاج لهذا القرف!

- مَن؟ لعلهما زوجان.

- رامي وسارة ليسا زوجين!

- اهدئي. ليس لنا سُلطة عليهما.

ألتفت نحوها مغتاظة، وأقول وأنا أعتصر ذراعها، وكأنها سارة العوراء أمامي:

- بل لنا! السيئة تعم. ما نحن فيه نتيجة أفعالنا جميعًا!

وأرى أنها ترتجف أكثر، ثم تميل على الأرض تقيء عصارة معدتها. أجثو إلى جوارها، وأعتذر. أعتذر وأستغفر، وأُخرج الجبن الملفوف في كيس من جيبي، وأطالبها بالأكل.

- لا أريد.. لا أستطيع..

- كلي ولو قطعة صغيرة..

ينظر لنا طفل من أطفال أحد الفصول. ينظر إلى الجبن في يدي. أبتسم له، وأشير له ليقترب، وأعطيه قطعة شوكولاتة.

- لا تخبر أحدًا، اتفقنا؟

يهز رأسه في حماس، ويدس القطعة كلها في فمه، ويعطيني الورقة، ثم يعود إلى مكانه بسرعة.

الرياح تشتد، وتهز النوافذ بقوة، وتزفر ترابًا. الجو حار، خانق، والدم لا يزال منقسمًا في جسدي عند طرفي النقيض.

تأكل نوارة قطعة أخرى أصغر من نصف الإصبع، ثم تشير لي بأن أعود بها إلى فصلنا. نعود، تتمدد على الشال، تلتحف بالسترة، أجلس إلى جوارها أنقل عينَيَّ بين ذات الكِلية الواحدة التي لم يهدأ ألمها بعد، وبين شاشة هاتفي المحمول.

أبحث عن آخر الأخبار، وأجد أنهم عيَّنوا هاشتاج #أبو_رماد لمتابع أخبار هجوم الحيوانات في مصر. أخيرًا ربطوا الأحداث المتفرقة ببعضها.

سيدة تنهشها دجاجاتها التي تربيها في الشرفة.

طفل تهاجمه إوزَّة منفلتة.

صاحب متجر طيور تصيبه الأرانب بعضَّات قاتلة.

بعض المناطق تكاد تخلو من هذه المشكلات، وأغلبها مجمعات سكنية معزولة عند أطراف القاهرة.. لكن فيها مشكلات مختلفة قليلًا. بعض سكان هذه المجمعات يطالبون بإبادة الكلاب فيها، حتى وإن كانت كلاب حراسة أو زينة. في مجمع سكني لا أجرؤ على العبور من أمامه من شدة فخامته، جمع السكان الكلاب والقطط

والببغاوات والعصافير وأحرقوها، فيما يصرخ أصحابها وتتمزق قلوبهم.

في القرية كلاب وقطط ضالة، ولم أرَ أيها يتصرف بطريقة غريبة. على أي أساس يصيب المرض حيوانات ولا يصيب أخرى؟

ثم تتوالى الأخبار (العادية). قصف جوي يمزق بشرًا في لحظة. خلاف بين عائلتين على ميراث يُسفر عنه مقتل اثنين وإصابة ثلاثة. رجل يذبح زوجته لتأخُّرها في السوق.

إنه النهش اليومي العادي..

المرض ينهش نوَّارة، والفقر ينهش المرأة التي باعت كِليتها. طبيعي ألا يميز الناس نهش الحيوانات لنا إلا بعد فوات الأوان.

ثم أعود للخبر الذي أعدموا فيه الحيوانات والطيور الأليفة...

والطيور الأليفة..

قتّل المرأة دجاجها..

أختَار رقم طليقي من قائمة هاتفي، وأتصل به وقلبي يرتج في صدري. لإدريس ببغاوات زينة يُطعمها كل يوم، ويُخرجها لتلعب قليلًا على مكتبه..

يرن الهاتف.. فلا يرد أحد.

أهز نوَّارة، فتنظر لي بعينين نصف مغمضتين.

- نوارة.. هل يمكن أن تأكل الببغاوات ابني؟!

- ماذا؟ لا أفهم.

ماذا أفعل؟! أُخرِج البَاور بانك من حقيبتي، فبطارية هاتفي على وشك النفاد. أفتح لايف على فيسبوك، وأقول ما إن تظهر صورتي على الشاشة:

- مساء الخير. لا زلنا عالقِين في حلايب وشلاتين؛ قرية مرسى حميرة. لا طعام لدينا، وسُرِقت شاحنة الوقود أيضًا، ولَوَّث أحدهم ماء الشرب. أنا محبوسة هنا وطليقي يرفض أن يطمئنني على ابني. الولد متوحِّد لكنه قادر على العيش بمفرده. هو لا يرد على هاتفي منذ أيام، وكنا.. قد تشاجرنا قبل سفري، وظنته غاضبًا مني. الآن نحن في.. مصيبة.. كارثة.. وباء لا نعرف طبيعته، وأرسلت من يطمئنني عليه ولم يفتح له أحد.

تنظر لي الوجوه السمراء متعجِّبة، ويكفُّ الأطفال عن اللعب والرسم. تظهر التعليقات أمامي؛

«هذه المرأة مرة أخرى!»

«لماذا تركتِ طفلًا مريضًا وحده من الأساس؟»

«ألم تسافري وتفعلي ما تريدين؟ اِشربي!»

«أين ابنك؟ اكتبي العنوان».

«هل يمكن أن نرسل لكم طعامًا؟ يقولون: إن التنقُّل بين المحافظات محظور».

«ما نحن فيه من أفعال النساء أمثالك!»

أصيح أنا:

- ابني ليس طفلًا وليس فاقدًا للأهلية كي أربطه بحبل إليَّ! ابني في الثالثة والعشرين من عمره ويحمل شهادة جامعية! ما يحدث لنا من ذنوبكم جميعًا أيها السفلة المنحطون!

تقبض نوَّارة على يدي، وتهمس لي أن أهدأ.

تقترب حَسَنة مني زاحفة على كربتيها وكفيها، وتربِّت على كتفي، ثم تتربع بالقرب مني، تنظر إلى الشاشة في فضول.

تتوالى التعليقات اللائمة، تتخللها تعليقات قليلة متعاطفة. تدمع عيناي وأتألَّم.. أسمع التعليقات في ذهني مُجَسَّمة، لاهبة. أسمعها بصوت أمي وأبي وإخوتي الذين قاطعوني منذ أكثر من عشرين عامًا. أسمعها بصوت طليقي والبواب والباعة في المنطقة، وبصوت ابني الحبيب نفسه. هل تراني كما يرونني جميعًا يا إدريس؟ عاهرة؟ لماذا مع أنهم استأصلوا من قبل ما يَصِمني؟ لماذا وقد عوقبت من قبل بك؟

أصيح أخيرًا، وأنا أقبض على وسادتي:

- لا تنهشوني! انهشُوا بعضكم! اقتلوا بعضكم! انشغلوا بشيء آخر سوى صوفيَّة وما فعلته! النهش هو عقوبتنا جميعًا لا عقوبتي وحدي!

أغلق اللايف، وأكتب في عنوانه هاشتاج #النهش و#أبو_رماد.

ألقي الهاتف، وأرمي الوسادة إلى الحائط المقابل. تتجمد الدموع في عينَيَّ، وأشرد

في العاصفة بالخارج. تقول لي حَسَنة:

- خيرًا فعلتِ يا أختي. لقد نبهتِهم لغضب الله علينا. اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا.

ثم نصمت حينًا، بعدها تقول حَسَنة:

- لقد أنذرنا الله منذ وقت طويل. أتعرفين؟ حكى لي أبو عمَّار أنه لاحظ أن بعض الإبل لا تأكل الكلأ الذي يجمعه، ولاحظ أيضًا أن الأبَّالة يذبحون منها الكثير بحجة أنها مريضة.

أرمش، فتضيف:

- حتى الحمير والأغنام والأبقار.. اهتاج بعضها، وفرَّ آخر. مؤخرًا لم يعد في القرية سوى حمارين، قيل: إن واحدًا منهما مسعور، وآخر أخذه أحدهم إلى معسكر من معسكرات الشاطئ ولم يرجعه.

ميكيل.. هذا هو الحمار الذي كاد يفترسنا.

- كل هذا، والطمع يمنع الناس من قول الحق. لن أظلم أحدًا... إنها لقمة العيش. لو عرف أحد بالمصيبة لأخذ منهم أقواتهم. أنت تعرفين قصدي.

- أفهم. سيصادرون كل قطعانهم.

- نعم. قال لنا الشيخ عبد العزيز: إنهم سيرسلون أطباء. أرسلوهم فعلًا، وأخفى الرعاة القطعان المريضة عنهم. يقول أبو عمَّار: إن أحد الرعاة الجوالين كان يعرف بما سيحدث، وأنذرهم لكنهم لم يسمعوا له.

- هذه أمور معروفة يا أختي. الراعي يعرف الأرض والحيوان والسماء، ويعرف إن كانت تتغيَّر وتتقلب علينا.

تزفر حسَنَة، ثم تحكي عن فترات الجدب التي مرَّت بالبشارية من قبل، وكيف تنبأ بها الرعاة قبل حدوثها. إنهم يُجيدون قراءة العلامات، كما يقرأ العلماء إشارات الأجهزة. أسألها:

- من الراعي الذي أنذرهم هذه المرة؟

- حمَّاد.

- من البشارية؟

- يقول: إنه من العبابدة، لكنه لا يذكر من أي قبيلة هو، ويتكر العبابدة أنه منهم.

- أين هو الآن؟

- الله أعلم. نراه هنا وهناك أحيانًا، لكننا لم نره منذ أشهر. لعله مات. إنَّ له قطيعًا كبيرًا، وهو يرعاه وحده.

- رحمه الله إن كان قد مات.

لا يسمع أحد النُذُر أبدًا، ولا يتعظ أحد من التاريخ.

- هل كنتِ لتصدقيه يا أختي إن كان حيًّا؟

- الرجال يعرفون ما لا نعرفه نحن النساء. كنت لأسمع ما سيقول على الأقل. لن أستَكبِر.

تعود سارة، وتجلس إلى جوارنا. أسألها دون أن أنظر لها:

- أين كنتِ؟

- في فصل آخر. أسمع من النساء ما يعرفونه من أزواجهم عما يحدث!

- وهل عرفتِ شيئًا؟

- أعتقد أنهم يرون أننا مَن جلب عليهم النحس. إنهم يكرهون الغرباء.

تتكور سارة إلى جوار نوَّارة التي غفت، أو ربما دخلت في غيبوبة سكري، وتسحب السترة نحوها، فأجذبها أنا لأغطي نوارة وأقول:

- إنها مريضة وتحتاج إلى الغطاء. مبيتها في العراء أتعبها.

قصدتُ أن أذكرها بأنانيتها، وكَبَتُّ مصارحتي لها بما أعرفه عنها. تضم سارة ركبتيها إلى صدرها، وتحدق إلى السبورة برسوماتها.

أتحققُ من التعليقات على اللايف، وأرى أن الفيديو ينتشر، وكذلك هاشتاج #النهش، مع استنكار البعض لما نحن فيه، ومشاركة آخرين مِحنة عزلهم في مناطق أخرى من البلاد.

قطع البازِل تلتقي، والزمن والمكان والشخصيات تتحرك، وتدعس كل ثابت.

فلمَّا كانت الليلة الأولى

ياسر...

كم ستصمد القرية؟

ليحترق العالم خارجها، فهو خارج نطاق المنفى والسعير. لو فني السعير فأين سيذهب المُعَذَّبون؟ لا بد من طبقة أخرى احتياطية من جهنم تمنع التسريب!

لم يتبقَّ متجر في البلدة إلا ونُهِب. ظننت أن هذا النَّهب سيتأجَّل قليلًا حتى ييأس الناس من وصول المدد، لكن الناس في جهنَّم يعرفون أنه لا مدد، فمَن سيتذكَّر المتدلون من طرف الدنيا؟

يأتي الماء النقي من أسوان، ويقولون: إن الشاحنات دخلت من حاجز العزل لكنها لم تصل. لا ماء صالح للشرب، ولا وقود، ولا كهرباء، ولا طعام إلا من البحر أو من الحيوانات التي تُرَبَّى هنا. من سيذبح حيوانات سليمة أو سيقدر على ذبح مريضة عنيفة؟

خرج الناس في الصباح للصيد في حذر خشية النوارس، وفَرشوا المشمَّع والأكياس لتكثيف الضباب، لكن ما إن حلَّ العصر حتى تحوَّل الجو الحار الصافي إلى عاصف مُترِب، أطاح بالمشمَّع والأكياس والقوارب، فعاد الجميع إلى مساكنهم وحصونهم الواهية.

وها قد حلَّ الليل، والعاصفة تشتد. لا ماء إذًا ولا طعام.

لا أنفكُّ أفكر في الطعام، ولا أعرف من أين أحصل عليه. عقلي ضبابي والصداع

@ART_OF_BOOK

يمزق رأسي. أحاول أن أنام، فلا أستطيع. أجلس وأحدق إلى السقف في الظلام. لن أفرغ شحن الهاتف في معرفة ما أعرفه بالفعل.

ثم يعوي صوت بالخارج، صوت أعرفه جيدًا!

أخرج سريعًا لأجد حواوشي يعوي، ويبدو أنه مصاب. هل عضَّه حيوان؟ هل نُقل إليه المرض؟

يقترب مني الكلب البلدي الذي اخترت اسمه بناء على مزحة كنا نتداولها أنا وزملاء العمل؛ إذ كنا نعتبر أن رغيف الحواوشي « أبو خمسة جنيه»، والذي لا يتغيَّر سعره مهما عصف بنا الدولار، ما هو إلا لحم كلاب بلديَّة. لاحظ أن أغلب مطاعم اللحوم تحيط بها الكلاب!

أمد يدي أربِّت على رأسه، فلا يهاجمني، بل يجلس ويُصدر صوتًا حلقيًّا يشبه المُواء.

- عود أحمد يا صاحبي. أرِني هذا الجرح..

العاصفة قويَّة، فأحاول جذبه إلى داخل المسكن، فيأبى، ويمشي بضع خطوات مبتعدًا عني، ثم يدور وينظر لي وينبح.

- ماذا تريد؟ طعام؟ ليس عندي طعام.

فينبح ويبتعد بضع خطوات وينظر لي. هل يريدني أن أتبعه؟ أرتدي قميصًا يغطي فانلتي الداخلية المصفرَّة، وأغلق الباب وأمشي معه حاملًا عصا وجدتها في الصباح،

وبَرَدت طرفها فصارت رمحًا مرتجلًا.

ما التحضُّر إلا هُدنة من البدائية، سرعان ما ستنتهي ونرتدُّ إلى الحروب بالرِّماح والتراشُق بالحجارة.

وأمشي خلف حواوشي، لم أعرف في البداية ما تحمله الريح ويرتطم بي من وقت لآخر، ثم أعي أنها حشرات زاحفة يطيِّرها الهواء العنيف مع الغبار. أكياس البلاستيك تطير في كل مكان، أقمشة، فروع هشَّة، عبوَّات فارغة.

إن حواوشي يقودني إلى موقع البناء. يمشي وهو ينظر خلفه ليتأكَّد من أنني أتبعه، حتى نصل إلى وِحدة شِبه مكتملة، عبارة عن بيت من غرفتين بسقف مقوَّس كأسقف مقابر الأرياف.

أرى أن أحدهم قد سدَّ المدخل جزئيًّا بلوح من جانب شاحنة نقل قديمة، وأغلق النوافذ بالخشب. منذ أربعة أيام لم يكن أي من هذا هنا.

يتسلل حواوشي من فرجة ضيقة بين حلق الباب واللوح المعدني؛ فأزيح أنا اللوح الثقيل لألمح بالداخل مصباحَ كيروسين مُضاءً، وأشم رائحة روث قوية منفِّرة ورائحة بيض فاسد.

وأراها؛ شابَّة لا تتجاوز الخامسة عشرة، ممتلئة الجسد، بارعة الحُسن، بشرتها لامعة بالعرق، ترتدي ملابسَ مُزَيَّنة وتلتحف بفراء خروف. أقترب أكثر وأنا أهمس:

- يا آنسة.. هل أنتِ بخير؟

تفتح عينيها وتنظر لي، فيظهر فيهما الرعب، لكنها لا تتحرك. ألاحظ تورم ذراعها من الكف حتى الكتف، وآثار أسنان واضحة تشق اللحم شقًّا. تقول بصوت واهن مبحوح بلهجة محليَّة فلا أفهم، فتكرر بالعربية:

- هل أنتَ الملاك؟

- لا.. أنا المهندس المسؤول عن بناء هذه البيوت. من أحضرِك هنا؟

- الملاك...

لا شكَّ أنها تهلوس. إن الغطاء والفراش ملوثان بالروث، وحتى الجدران الداخلية. قرب الفتاة جَرَّة ماء وطعام؛ لحم وخبز وجبن لم يجف أيها أو يفسد. ثمَّة مَن يرعاها، لكن الله يعلم أين ذهب.

يقترب حواوشي من الطعام ويهم بالأكل منه، فأزجره. لا بد أن رائحة الطعام جذبته... وجذبتني. أنا جائع للغاية، والفتاة في حال لا يسمح لها بالأكل كما أرى من الخبز الجاف في صحفة أخرى.

ألتهم الخبز واللحم سريعًا، كأن هذا آخر زادي. لي يوم أو أكثر لم أذق طعامًا. أفكر حينًا ثم أقرر أن آخذ ما يصلح للأكل من البقايا الجافة، وأقتسم الماء معها. قبل خروجي من البيت، ألمَح ما يزحف على الأرض؛ عقارب.

العقارب مألوفة في الصعيد، لكن هذا لا يقلل خطرها أو تأثيرها النفسي. إن الرياح تحمل العقارب من الجِبال إلينا، وهذا كارثة إضافة إلى الكوارث الأخرى التي تحاصرنا

برًّا وبحرًا.

هل أنقلها إلى مكان آخر؟ قد يعود مَن يعتني بها، وهو أقدر على الحفاظ عليها، فيما لا أملك أنا قُوتَ يومي. أدعس العقارب دون تفكير، إلا أن دعسها غير مُجدٍ؛ ستأتي عشرات غيرها. هل أمكث معها حتى يعود راعيها؟ هل سيسمح لي بأخذ الطعام والماء؟

صوت خُوار بالخارج كأنه نَدب حزين. أنظر من شقوق الخشب على النافذة، وأرى بقرة مُقَرِّنة تتشمم البيت وتدور حوله، لكنها لا تقترب أكثر أو تهاجم. ظننتها سليمة، لولا الدم على صدرها وقرونها. تخور مرارًا، ثم تمشي مترنِّحة إلى حال سبيلها.

- ما رأيك يا حواوشي؟

يتمدد حواوشي إلى جوار الفتاة، ويضع رأسه بين رجليه وينظر لي دون رفع رأسه. هذا هو حواوشي الذي أعرفه، مرآة لحيرتي لا أكثر. كيف لا تهاجم العقارب الفتاة أو حواوشي؟ غريبة... لو أنهما في أمان، فلا داعي لوجودي. أرحل، وينبح حواوشي لكنه لا يتبعني.

***

أعود إلى المسكن وسط أصوات الخوار والثغاء المتناثرة، أتخفَّى خلف البيوت والأشجار الجافَّة حتى أصل. أضع الطعام على المكتب، وأتصل بأهلي لكن لا أجد تغطيةَ شبكةٍ. هذا معتاد هنا في حال انقطاع الكهرباء، وفي أوقات العواصف. لكنني لم أشهد عاصفة مماثلة منذ جئت.

@ART_OF_BOOK

أتمدد دقائق لعلني أنام. أفكر في الفتاة والرائحة والعقارب وحواوشي، فأقوم وألتهم ما أحضرت من عندها. لطالما هجرني الناس ولم يتخلَّ عني الطعام قَط.

صوت شيء يُهدَم.

خوار عنيف.

صراخ.

طلقات رصاص.

الريح تعوي.

لا يجرؤ أحد على الخروج، فلماذا أخرج أنا؟

ثم يرتجُّ الجدار من وراء فراشي. أَفزَع وأنظر خلفي، فيرتَجُّ مرة أخرى وتتخلخل حجارته. أقبض على الرُّمح المرتجل، وأبحث عن سكين فلا أجد إلا سكين الفاكهة. هل أنتظر حتى تتقحَّم عليَّ البهائم المسكن؟ كنت قد جهَّزت أهم ما أملك ووضعته في حقيبة الظهر صباحًا، وظللت أطمئِن نفسي أنني لن أحتاج إلى الفرار بها، لكن يبدو أن الوقت قد حان.

أهرع إلى الباب عند الجهة المقابلة للجدار، أفتحه، أنظر إلى ما وراء الحجاب الأصفر الخانق. أسعل، ترتطم بي حشرة ما فألطم خدي كي لا تقرصني إن كانت ستفعل. قطيع بقر يمر من بين البيوت، يزداد عدده كلما مرت الثواني. سنهلك لا محالة لو أنه في ضخامة قطيع الراعي الصَّلِف.

ART_OF_BOOK

صوت مكبر صوت المسجد يعلو:

- هجوم قطيع. احتموا في بيوتكم أو اتجهوا إلى المسجد أو ال...

كيف يخرج المرء أساسًا ليتجه إلى أي مكان؟ أحمل حشيَّة الفراش وأسنِدها إلى الجدار، ألهث، أقيم الفراش المعدني نفسه ليكوِّن ضلع مثلث مع الجدار ثم ألف الحشية حول قاعدته. أبحث حولي عمَّا يصلح لتدعيم ما خلف حصني وما أمامه. أتذكَّر كل ما أعرفه عن التحصين هندسيًّا، لكن الواقع يختلف عن الدراسة..

الحصن يعمل ضد الاندافع الخطي والكتلة والزخم. هذه القطعان تتحرك خطيًّا، تتبع قائدها كما رأيت ليلة الزفاف. جَدْي يحاول خرق جدار، فيحاول البقية خرق الجدار ذاته أو الوقوف خلفه...

الجدار يتخلخل، وتسقط بعض حجارته، وأرى قرنين ضخمين يخترقانه. أدفع المكتب بما عليه نحو الحائط، تسقط الرسومات الهندسية والأوراق، تخور البقرة التي ألمح من خلفها كائنًا آخر.

أدخل إلى الحصن، أجذب الحشية كأنها باب طري، ثم أمد ذراعَيَّ من فوقها أجرُّ المنضدة البلاستيكية الصغيرة لتغلق المدخل. كل هذه عوائق تؤجل الكارثة لا أكثر.

أنتظر.. المكتب يتحرَّك ويدفع الحصن. أتخيَّل البقرة وهي تحاول رفعه أو قَلبه. هذه هي مزية الوزن الكبير والانخفاض النسبي. البقرة قادرة على قلب العوائق الأكثر ارتفاعًا والأقل اتزانًا..

@ART_OF_BOOK

أفكر في الخنادق.. لا أعرف لماذا تخطر لي، لكني لا أنفك أفكر فيها. خنادق مائية، خنادق مليئة بالمتاريس والأسلاك الشائكة...

تدفع البقرة أكثر، وكما حاولت قلب المكتب، يعود إلى مكانه على الأرض. أتمنى أن تكون محتفظة بَعْدُ بطباع البهائم وغبائها، ولا تقرر الدوران من حوله.

تتراجع البهيمة أخيرًا، وقبل أن أخرج من مكمني، أرى كائنًا مختلفًا، لا أميزه جيدًا؛ شيئًا هجينًا بين الغنم والماعز، بلا عينين. يتشمم الرائحة، يتخبَّط، يدور حول المكتب، ويتشمم الحشيَّة مرة أخرى. يحاول التسلق، وأرى رأسه المشوَّه يطل عليَّ، يعض الهواء بأسنان أقوى من المعتاد. لا أتردد قبل أن أن أدسَّ رمحي في مكان عينيه. يصرخ، أسند الحشية بقدمي لأنتزع الرمح، ثم أطعنه مرة أخرى، وأخرى.

ألهث وأكاد أفقد الوعي. صدري يؤلمني.

أخرج من مخبئي وأنظر عبر الفجوة. القطيع يعبر، يهدم البيوت ويجر الضحايا، يمزق بطونهم ويتركهم إلى مفترسات أخرى.

أفتح بطن هذا الكائن بالسكين ورائحة الروث عند الفتاة لا تفارق ذهني. أُخرِج الأمعاء وأدهن الحصن بما فيه، ثم أعود إليه لاهثًا، أكاد أفقد الوعي.

***

تحت الغَمام شايف، مواكب الهجرة اتلاشِت سُراع

ميكيل

عاصفة غريبة، لكن كل شيء ينفلت ويتداعى. متى بدأ التداعي؟ لو شعر أيُّنا بالانهيار قبل وقوعه، لفرَّ مبكرًا.

إن العواصف تتزايد هنا. لي على حدود مصر والسودان خمسة عشر عامًا أو أكثر، أرقص على حبل مشدود. شهدت عواصفَ أعتى، وأمواجًا أكثر تمرُّدًا. إلا أن كل الغرائب تحتشد.. تنذر أن الوقت انتهى وحانت الدينونة.

الرياح محمَّلة بالحشرات والعقارب. هول آخر يجعلنا نتكوَّم جميعًا في غرفة رفعت الآمِنة؛ يستضيفنا هو فيها كشيخ قبيلة كريم، يوزِّع الطمأنينة والمنَّة والدسم.

لو أتاحت لنا العاصفة وقتًا لرششت الرماد حول حوائط المبنى الداخلية؛ لكن الريح بعثرت الرماد، وأطفأت النار. لو كانت حقائبي معي لدهنت أجساد الصغار بزيت النعناع ليحميهم قليلًا.. أعرف أن لا شيء يمنع العقارب تمامًا؛ أعرف أن العقارب تتسلل.. لا تشعر بها إلا وهي تمشي على جسدك، وبعد فوات الأوان.

رِفعت أبيض البشرة تحوَّل إلى لون أصفر شاحب من النزف. جلده يلمع بالعرق، يطيِّب الخواطر ويداعب الأطفال. يتسلل...

قابلته منذ أكثر من عامين، ولم يكن لي ملجأ سواه كما نصحني الناصحون. الكل يعرف أنه يشغِّل لديه مَن لا أوراق لهم من الفارين والمتسللين عبر الحدود. سألته إن

@ART_OF_BOOK

كان يعمل لديه آخرون مثلي-أنا لا أريد مقابلة أحد قد يعرفني- فقال: إن آخِر مَن عمل لديه هرب مثله كمثل سابقه وسابق سابقه. قال: إن شِيَمنا الفرار، لكنه يراعي الله، ويساعد وقت يتخلى الجميع عن انتشال الغريق خشية الغرق.

لم يُسِئ لي رفعت في أوائل أيامي معه؛ ولم أثق فيه ثقة كاملة، لكنني كنت مرتاحًا وآمِنًا؛ لقد منع عني المتطفلين والشرطة وفضول الأهالي..

كان، وكنت...

يجمع رفعت الآن ما في بيته أو منتجعه أو عشته كما تقول صوفيَّة، ويوزِّع الأنصبة (بالعَدل)، إلا أن الأنصبة ستظل في مكان لا يعرفه إلا هو ليمنع السرقة. لم يصرِّح بكلمة « السرقة»، لكنه أشار إليها بـــ « ضعف الأنفس». إنه يخشى التكالب على الموارد، يخشى التلاعب، يخشى انقلاب البعض على البعض.

ليس في المكان الكثير على أي حال، وإنما جمع هو ما مع الأبَّالة من لبن وجبن وأعشاب، وكل ما يجمعونه أو ينتجونه من قطيعهم. غريب أن أحدًا لم يعترض. أعتقد أن هذا ناتج عن إيمانهم بأنهم سيغادرون سريعًا، وهو صاحب البيت.

آه.. لهذا يداهنهم..

لم ندفن الجثث؛ لم نجد وقتًا كافيًا للحفر والنقل، فغطيناها بما تيسَّر من الخردة خلف المبنى. هناك عثرت على شيء أعتقد أن رفعت نسي أمره، أو لم ينسَ، لكنه عرف أن فيه رسالة مُبَطَّنة لي.

كنت أنقل الخردة مع الرجال، حتى وصلنا إلى الطبقة المغطاة بالرمال والغبار وبقايا الأخشاب والبلاستيك المتحللة. هناك وجدت حقيبة سفر قماشية مهترئة، فيها أوراق ملتصقة ببعضها ومجعَّدة، لكني قادر على تبين أنها حكومية.

مَن قد يفر أو يرحل ويترك حقيبته وأوراقه؟ حفرت أعمق، فوجدت أكثر؛ صورًا، مَتاعًا، دُمًى قماشية، مصحفًا، شاحن هاتف. يقول رفعت في هَم:

- العقارب خطرة حتى لو توقفت العاصفة. لو كانت سيارتي هنا لذهبت إلى القرية أبتاع بعض الجير الحي.

التقط الأبَّالة ما يرمي إليه من تحسس العقارب من الجير الحي والرماد وما يشبهها. ردَّ واحد من الشباب:

- يمكن أن أركب ناقة إلى القرية وأجلب ما نحتاج إليه.

- هل سنجد مَن يبيع لنا في هذه العاصفة؟

- صف لي مسكنَ مَن يبيعها وسأذهب إليه.

- لا داعي للمخاطرة يا بني. الصباح رَبَّاح.. ليت سيارتي معي.

الجو خانق في الغرفة الضيقة. خانق ويذكرني بسيارات نقل «الحمولة» بين الحدود. صناديق تجرد من الروح وتترك اللحم.

ويمر الليل طويلًا بلا سَمَر ولا نار ولا أحلام.

***

بُعيد الفَجر تهدأ العاصفة. لا نخرج على الفور، بل ننتظر النهار حتى نرى مواطئ أقدامنا. وحتى تشرق الشمس، يغطي الرجال أقدامهم وسيقانهم بالأقمشة السميكة، وقبل الخروج أدس طرف سروالي داخل رقبة حذائي. أخرج أنا أولًا، أمشي سريعًا إلى حيث عِدَّة الإصلاح، وآخُذُ مسامير طويلة والشريط اللاصق وأعود إلى الرجال. هم يعرفون ما سيفعلونه ولا داعي للشرح.

أخرج مع واحد منهم إلى المولِّد، ونملأ أوعية منه، ثم نعود وننثر الديزل في أرجاء المعسكر، ونقلب الحشايا والوسائد والأثاث بالعصي. كلما خرج عقربًا، وخزه واحد منه بالمسامير التي ثبتوها في عِصِيِّ الرعي خاصتهم. هي مهمة ضرورية شاقة، لكننا معتادون عليها. يظل النساء والأطفال والهَرِم مع رفعت في الغرفة حتى ننتهي، وليس لديَّ أي فكرة عن موعد انتهائنا. إن هذا ليس وجودًا عاديًّا للعقارب، بل هجومًا مريعًا، وكأنه نَبَتَ لها أجنحة.

لُدِغَت أربعة نعاج، وعثرنا على ناقة ممددة على الرمال، تتلوَّى وتصرخ. اقترب واحد من الشبان منها وهو يحمل بندقيته، نظر إليها حينًا، ثم أطلق النار على رأسها؛ لقد سُعِرَت الناقة ولم تُلدَغ.

أنخز وأخِز وأرش الديزل، وأفكر فيما عثرت عليه مطمورًا.

نظن أننا انتهينا عند منتصف النهار، وأقرر- دون الرجوع إلى أحد- حرق الجثث. قد تندس العقارب في برودتها، وقد تجذب الحيوانات المجنونة، وقد تتحلل وتمرضنا. لا

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

يخرج رفعت مع النساء والأطفال، ويرى النيران تتصاعد إلى السماء. رائحة الدخان لا تطاق، ورائحة الديزل في المسكن تطرد من فيه. والنوارس في السماء لا تكترث؛ لقد منعتها العاصفة من هجومها اليومي، وهي لا شك جائعة.

أهتف:

- عودوا إلى حجرة رفعت وشغلوا التكييف. في المولِّد ما يكفي ولن يضره ساعة أو اثنتان. ستختنقون لو لم تفعلوا.

فيقول رفعت وهو يفرد ذراعيه ليشمل الضعفاء عن يمينه ويساره:

- طبعًا. سأشغله لكم، وأعود لأشارك الرجال مهامهم.

ويذهب رفعت، ثم يعود مع الهَرِم الذي أمَّن ساقيه جيدًا، وحمل حِرامًا من صوف الأغنام على كتفه. يشير رفعت إلى الدرب الممتد بمحاذاة البحر، فيمشي ثلاثتنا ببطء مبتعدين عن المعكسر. يسأل رفعت:

- ماذا سنفعل؟ هل المكان صالح للإقامة يا شيخ أبا هاشم؟

- أي مكان يصلح لإقامتنا. كل هذه الأرض كانت تصلح، لكن كما ترى، كل شيء يتغير. ماذا لو هاجمت النوارس؟ ماذا لو هاجمت الحيوانات؟ ماذا لو قامت عاصفة أخرى مماثلة؟

أقول أنا:

@ART_OF_BOOK

- السؤال الأهم: هل الهرب بحرًا لا زال صالحًا؟ لا أعتقد هذا. لم نجد قاربًا واحدًا يمكنه نقلنا، والوقود لدينا يقل، وليس معنا مركبات، بالإضافة إلى هجوم النوارس والعقارب جوًّا!

يؤيدني رفعت:

- لديه حق. ماذا عن محاولة العودة إلى السودان برًّا؟

وينظر لي، فأنظر إلى الرمال. يقول الهَرِم:

- العودة برًّا تعني مخاطرَ أكثر. من أين سنحصل على سيارات تقينا النوارس والعقارب؟ هل سيتبقى معنا إبل تحملنا أم ستُسعَر كلها؟ مَن يعرف ما قد يحدث لنا لو هاجمنا قطيع؟ تقولون: إنه قادر على قَلب السيارات. لست مولعًا بالبحر؛ لم أركبه قَط، لكنني أعرف مدى خطورة البر الآن، وأي طريق آخر قد يكون أفضل.

أسأل:

- ماذا عن الانتظار حتى...؟

وأسحب السؤال. ليس هذا وقت الانتظار، بل وقت اختيار قبر مناسب. يقول رفعت:

- أتعرف يا ميكيل؟ لا بد أنك تعرف. على امتداد الساحل سفن تهريب مخبَّأة، بعضها مهجور. لماذا لا تُصلِح واحدة منها؟

أقول له وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة:

- وكيف لي أن أعرف شيئًا كهذا؟

فيبتسم. يلاحظ الهَرِم ما يحدث بيننا منذ استفاق رفعت، لكنه لا يعلّق. لا شك أنه يعرف الآن مَن أكون، أو بالأحرى ماذا كنت.

يرد رفعت:

- من أصدقائك الصيادين يا أخي! قلة النوم تثير أعصابك. كان الله في عونك. سنتولى نحن مهامَّ اليوم، وارتَحْ أنتَ. تأكد فقط من أن غرفتك نظيفة.

في كل كلمة من كلمات رفعت تهديد، ومع ذلك أنا مسرور بها؛ إذ تذكرني بما عاهدتُ نفسي عليه. أسأل وأنا أشير إليهم لنعود:

- لديك حق. لنعود فأرتاح قليلًا. سؤال أخير يا شيخ: كيف سنؤمّن القوارب لو وجدنا أيها؟

- تعريشة.. تعريشة مما نبيت تحتها هنا. أغصان السيال خفيفة وقوية. سنبني فوق القوارب قِبابًا منها، ونحتمي في أثناء الهجوم بالأحرِمة.

ويشير إلى الحِرام على كتفه. أقول:

- لكن كل هذا وزن زائد. أي خلل في توزيع وزن الحمولة ستقلب القارب خاصة مع دفع النوارس أو هبوب العواصف.

يضيف رفعت باسمًا ويضغط على أول كلمة:

ART_OF_BOOK @ART_OF_BOOK

- الحمولة تحت أمر قائدها. لن يعارض أحد القائد وإلا غرق وأغرق الجميع. هذا معروف.

أعرف أنني لو فكرت وخططت لوجدت حلًّا لمشكلة انقلاب القارب، لكنني لن أفكر.

أستأذن في العودة إلى حجرتي. أتركهم وبيننا دخان حرق الجثث وأبحث في المعسكر عن أي شيء يمكنني اختلاسه. أجمع غنيمة صغيرة، وأخبئها تحت الفراش، ثم أتمدد فوق الألواح الخشبية مباشرة. لا نوم يا ميكيل.. لا نوم..

***

بعد ساعة أقوم، وأعرف أن أحد الرجال قد ركب ناقة وأسرع بها إلى القرية ملتحفًا بحِرام، وهناك عرف كارثة إضافية؛ لقد أُغلقت كل المداخل والمخارج، وأحدهم يلوث مياه الشرب، والإمدادات لا تصل إلى أي مكان. المحالُّ منهوبة، والفوضى تضرب أطنابها في القرية الصغيرة، وهلَك من ناسها أكثر من مائة شخص منذ بَدء الهجوم وحتى ليل أمس.

الحلقة تضيق... تقول واحدة من النساء:

- أعتقد أن لون اللبن ضارب إلى الحمرة، والماعز تعافُ الطعام. لو استمر الحال سنموت جوعًا.

فيرد راعٍ:

- البحر موجود، المشكلة في الماء. ماء الضباب يكفي لو اقتصدنا، لكن لو تكررت العاصفة...

يلاحظون أنني واقف عند مدخل المعسكر أستمع، فينظرون لي متسائلين عن رأيي. أقول دون تفكير:

- لماذا نهرب؟ هل كُتب علينا الهرب؟!

يرد أحدهم:

- نحن لا نهرب، نحن نريد العودة إلى ديارنا.

يقول رفعت:

- العودة لا تعني الهرب. لماذا لا تصل الإمدادات؟ لأن أحدًا يسرقها! ماذا لو جمعنا مَن نستطيع من القرية وذهبنا إلى المدخل من جهة أسوان أو شلاتين وعرفنا مَن يسرقنا؟

أضيفُ:

- مَن يسرقنا لديه مكان يخزِّن فيه ما يسرقه. لديه رجال يتسللون ليُفسِدوا الخزانات. مَن يفعل ذلك لا شك وأنه قد خطط له من قبل الكارثة. لا أرى الأمر إلا في هذا الضوء، مع ذلك لا أرى بُدًّا من المراقبة وتعيين الغرباء.

يقول الهَرِم أخيرًا:

- تخطيط مثل هذا لا يخرج من غريب يا بني.

يسأل سائل:

- تقول: إنه خطط قبل الكارثة. كيف عرف بها؟

أجيب:

- كلنا عرفنا بها وأنكرناها. واحد فقط أو مجموعة تحركت مبكرًا.

هذا يعني أنهم آمِنون، يستطيعون التحرك بحرية أكثر منا.

يسأل طفل:

- أيعني هذا أنه سيرفض مساعدتنا لو طلبنا منه؟ ماذا لو بحثنا عنه وسألناه؟

سؤال بريء، لكنه ينطوي على تفصيلةٍ أهم؛ هل خطته تعني بالضرورة أنه شخص خبيث؟ لو لم يكن كذلك لأنذر الناس مبكرًا أم أنه أنذرهم بالفعل؟ أنا ورفعت معزولان عن الأهالي، ولا يعرف الإجابة إلا واحد منهم. يبدو أنه لا مناص من الذهاب إلى القرية والاستماع إلى ما يقال. يقول الهَرِم أخيرًا مُنهِيًا الجلسة:

- لِنَعُد إلى الداخل، الوقت تأخَّر. هذه مشكلة لا ناقة لنا فيها ولا جَمَل. لن أرسل أبنائي ليموتوا بحثًا عن سارق الماء والوقود. إن لم يكن من الموت بُد، فسنموت ونحن نحاول العودة إلى ديارنا.

يقوم متكئًا على عصاه، يمشي تجاهي، ثم يضع يده على كتفي ويكرر:

- سنحاول العودة إلى ديارنا.

***

هَذِي العظام حصاد أيامي فَرِقًا بالعظام...

صوفيّة...

تهدأ العاصفة بعض الشيء، وأشم رائحة كيروسين بعيدة. تقول لي حَسَنة: إنهم يَرُشُّونه لإبعاد العقارب التي حملتها الرياح.

درِجِن دِرِجِن دِرِجِن.. حصان الخيال عَقَرنا!

أضحك، فتنظر النساء لي كأنني جُننت. سارة ترمقني بنظرة غريبة بعض الشيء. عينها الوحيدة أشبه بعين الدجَّال، مكتوب على جبينها: «عاهرة». نوارة ترتجف، فأربِّت عليها وأطمئنها إلى أن النهار وشيك، وسأذهب إلى الصيدلية لأحضر لها دوائها.

- سأذهب أنا. رجُلنا مشغول. لو طلبنا منه إحضار مسكِّن لعشيقته لطار الآن إلى الصيدلية واقتحمها.

يرن هاتفي برسالة، رسالة صوتية من طليقي. لا أستطيع سماع صوته، لكن يجب أن أطمئنَّ على ابني.. يجب..

«ابنكِ مات يا صوفيَّة هانم. قتلته ببغاوات الزينة! ارتحتِ الآن؟ اكتفيتِ من الفضائح؟»

مَن مات؟ إدريس؟ قتلته الببغاوات الملونة؟

«كل ما بيننا انتهى الآن. أنتِ حُرَّة. أنتِ مَن جلَبتِه مشوَّهًا إلى الدنيا وأنتِ مَن أخرجتِه مشوَّهًا منها. عيشي حياتك يا صوفيَّة، تستحقين ما يحدث لكِ».

رائحة الكيروسين.. رائحة الدماء.. صوت صراخ أحدهم بالخارج، وصوت صراخي وهم يقطِّعون من جسدي، وصراخي وأنا أسلِّم له جسدي فقط لأعرف إن كنتُ كاملة حقًّا أم أنني نصف أنثى.. ربع أنثى..

إدريس مات.. نُهِش..

تُرَبِّت حسَنة على كتفي وقد سمعتِ الرسالة الصوتية، ثم تضمني إلى صدرها بقوَّة وتهمس:

- إبكي يا أختي.. إبكي..

رائحة الروث تفوح منها. لن أبكي.. ولماذا أفعل؟

- استغفري الله يا حبيبتي.. توضئي وصلِّي.. سنصلي جميعًا.. هيا..

أنا لا أصلي. لا أعرف ماذا يفعل المرء ليقف أمام الله ويصلي. ليس بالوضوء ولا بالخشوع ولا بالتوبة. لا يقف نصف إنسان أو ربعه ليصلي.. سيقَع!

تقبض سارة على يدي، فأسحبها. إنها دَنِسة.. إنها عوراء ناقصة. وسادتي بعيدة عني، نوارة ستموت. لا لن تموت.. النهار يقترب.. بسيطة..

أقوم، فتمشي حسنة ورائي في قلق، تسألني عما سأفعل. كنت أظن أن للموت تمهيدًا؛ فصول أولى تجعله منطقيًّا ومُبررًا. لو كنتُ كتبت أن شابًّا التهمته العصافير

لألقى الناشر بمسودتي في صفيحة الزبالة، ولقال: إن هذا عبث.. لقال: إن هذا افتعال...

كنت أنتظر تمهيدًا... لكن الأعمال الحداثية قد تبدأ بالعبث، وستصفق لها اللجنة ويمنحونها جائزة طالما لم تكتبها صوفيَّة.

أمشي في الممر الطويل بين الفصول. يبدو أن العقارب قد لدغت بعض الناس، ولهذا يصرخون. أنزل إلى الفناء، أقطعه، أجد رجال القرية هناك، يمنعونني من الخروج. يقولون كلامًا لا أفهمه، لكنني أُصِر.. أدفعهم كي لا يلمسني أحد. أفتح باب المدرسة الحديدي، وأخرج إلى حيث الغبار يغطي كل شيء، والحيوانات التي قُتِلت في أثناء الليل ملقاة على جانبي الطريق.

أجثو أمام واحدة منها مصابة بطلق في البطن. أحاول فتح الجرح بكل قوتي.. اللحم أقسى مما تصورت..

رأيت أول ما رأيت في مرسى حميرة ماء البحر داميًا، أحمر.. كماء اغتسالي يوم فَضَّ طليقي بكارتي قبل زواجنا بشهرين. نزفت، لا أعرف إن كان لما فعلَتْه بي شهوتُه دخلًا، لكنني نزفت بلا داعٍ، بلا مقابل. موت آخر بلا فصل تمهيدي. أنا بالفعل عُشر أنثى، وحتى التحدي والتمرد ومحاولة التعايش لا تليق بها.

ثم جاءت النوارس، ثم مرضت المواشي وماتت، ثم هاجمتنا العقارب والحشرات في ظلام العاصفة، ثم مات الأبكار.. ابني أنا البكري. سنموت جوعًا وقد عاقبَنَا الله بنقص في الثمرات والأنفس.. لا لن نموت. الموت لا يحتاج إلى تمهيد، لذا لن نموت بأي

هذه هي الضربات القديمة؛ لأننا كذَّبنا المرسلين.. لأننا عصينا..

لأن الرب عاقب حوَّاء بالدم؛ لأنها عَصَت، وعاقبها بموت ابنها؛ لأنها عصت.. مهما تابت حوَّاء، فعِقابها واقع لا محالة، مورَّث إلى نسلها حتى تقوم الساعة. هل صلَّت حواء أم كانت مثلي؛ نصف بَشَرِي، ضِلعًا أعوَج لن يستقيم؟

تقول لي حسنة:

- ماذا تريدين أن تفعلي؟ المكان خطر يا أختي..

- أنا أعاقَب يا حَسَنة.. نحن نعاقَب، ألا ترين هذا؟

تهز رأسها، ثم تهمس:

- لم يَفُتْ وقت التوبة يا أختي.

- يجب أن أنقذ نوَّارة.. يجب أن أذهب إلى الصيدلية.

- لن تفتح قبل الشروق.

- ستموت نوارة.

- نصيبها.

ستموت نوارة كما مات ابني. وستعيش سارة..

مات الذين يختشون.. ماتوا وعاش الداعرون...

تضمني حسنة، ونعود إلى المدرسة. يداي مخضَّبتان بالدماء.. هل ستحمينني الدماء؟ المفترض أن تحمينني، فلمَّا لم تجد جَدَّتي دَمًا على مِنديل الدُخلة التي أعطت زوجي إياه يوم زفافي، صِرت عارية أمام الجميع. تَبَرَّأ ابنُ الناس من فعلته، وتحجَّج بالدم.. لا دم، لا شرف.. أمسحُ وجهي بدم الجِيفة النَّتِن، لعله يشفع لي الآن.

وبينما أنا وحسنة نمشي في الممر عائدتَيْن إلى الفصل إذ أسمع صوتًا يكبِّل ساقَيَّ:

«لو أن التعليم هنا منفتحٌ على باقي مصر، لعرفتم أننا أُنذِرنا مما يحدث منذ عقود».

«إذًا أنتَ تعرف ماذا يحدث بالضبط؟»

«طبعًا. نسميه انهيار العِقد الاجتماعي. ببساطة لتفهموا؛ إنه فساد السُّلطة حين تتوقف عن المنح ولا تكفُّ عن الطلب. وقتها، مَن يلومنا لو بحثنا عن أقواتنا بأنفسنا؟ مَن يلومنا لو أنشأنا للقانون بديلًا؟»

«أنت على حق. هذا ما يحدث منذ عشرات السنين، بل منذ مئات السنين!»

«لقد رأينا هذا في الصباح. الكل نهب وضرب وسرق. لكن أطفالنا جائعون ولا يرسل لنا أحد شيئًا يأكلونه حتى..»

واستمر الحوار المتعالي.. هذا هو بالضبط إعادة تعريف الأخلاق على أساس المنفعة الفورية.. أقترب أكثر وأنا أعرف أنني سأراه؛ سليمان عبد الرازق.

يجلس سليمان بين الرجال، يقول ما اصطادنا جميعًا به، وما يبرع فيه دائمًا؛ مزيج

من مصطلحات تُشعِر المتلقي بالدونية، وأنه يحتاج إلى الارتماء في أحضان هذا الذي يعرف كل شيء.

كيف نجا وشُفِي؟ كيف وصل إلى هنا؟

«والعمل؟»

«لنتجوَ، يجب أولًا أن نتعامل مع الموقف على أنه الواقع، لا مجرد مشكلة طارئة قد تُحَلُّ. لن يُحَلَّ شيء، وأنتم تعرفون هذا جيدًا. لا أقول: إننا سنتأقلم، بل أقول: سنضع قانونًا للعالم الجديد.. لقد مِتُّ حرفيًّا، وأحياني الله لأجلنا جميعًا».

ويكشف لهم عن قدمه التي كانت قبل يومين نَتِنة ميتة، وهي الآن سليمة بلا أي علامة إلا أثر عضَّة مثلثة صغيرة. أتراجع مع حسنة، إن ما أراه ليس إلا معجزة؛ بَعْثٌ لرجل ميت.

ماتوا وعاش الداعرون حقًّا! ماتوا وعشت أنا! ويلي!

أعود إلى الفصل وأتربَّع مكاني. تقول لي سارة: إن هاتفي لا ينفك يرن. أبتسم لها، وأنظر إلى شاشته وإلى مئات الإشعارات. تجلس حسنة إلى جواري، وتقول لي:

- هذا الرجل لم يكن أول مَن عرف بما سيحدث كما أخبرتك. حمَّاد كان يعرف يا أختي. أرسل الله لنا مَن يحذروننا ولم نسمع..

حمَّاد... أرسم خطًّا بالدم على الأرض تحتي...

وأكتب اسمه. مَن قد يكون؟

حمَّاد آمَن بالصمت حين اعتنقنا كلنا الكلام. حمَّاد ابن الجبال والبحر والجِمَال، أنذَر ولم يصرِّح. لم ينزع من الناس حرية الإيمان والكفر. حمَّاد وليد النهش، تألَّم قبل الجميع، ومات مع الذين يختشون.

إن كان حمَّاد منذِرًا، وإن كان سليمان كذلك، فمَن أكون؟ أين مكاني في هذه الحدوتة؟

***

في الصباح ماتت نوارة!

ماتت كالعادة دون مقدمات، وعاش مَن نُهِشوا! حتى سارة التي لم تتناول من الدواء إلا جرعتين شُفيت، وماتت نوارة.

لقد ثبتت القاعدة.. أم لم تثبت؟ هل كانت نوارة من الذين يختشون أم من الداعرين؟ هل لامرأة أن تسافر بين الرجال، بلا حجاب حتى؛ وترتدي.. ماذا ترتدين يا نوارة؟ بلوزة جينز وسروالًا؟ وماذا كنتِ ترتدين من قبلها؟ جلبابًا شفافًا ملطخًا بالدماء؟ نعم كنتِ نائمة وقت هاجمتنا النوارس، لكن هذا الثوب لا يليق.. ولا هذا..

وفيما الهرج بالخارج على أشدِّه، نزعتُ عنها ثيابها الفاضحة وألبستها فستانًا من ثيابي، ولففت رأسها بإيشارب. لقد أنقذْتِني يا نوارة، وهذا كل ما يمكنني فعله لأجلك الآن.

يقال: إن العقارب لدغت أربعة عشر. يقال: إن رجلين ماتا في أثناء دفاعهما عن المدرسة من هجوم أبقار.

وتقول حسنة:

- يا أختي.. لقد وجدوا في الحمَّامات أربع جثث من أطفالنا! كلها معقورة!

- هل تسللت الحيوانات إلى المدرسة؟ كيف صعدت الدرج المغلق بالمكاتِب؟

- لم تتسلل! لا أثر لحيوانات هنا!

- أريد دَفن نوارة.

- ألا تسمعيني؟! أقول لكِ..

- ارتاحوا يا حَسَنة. لو تأملتِ في الأمر لعرفتِ أنَّ مَن مات نجا.

- لا أفهم!!

يبدو عليها الحَنَق من ردودي الباردة. أشعر بالدم الجاف يتشقق على وجهي كلما تكلمت، وربما كان هذا ما يقلل كلامي.

تأتي سارة ومعها رامي، يركع رامي إلى جوار نوارة وتدمع عيناه. أمنعه من لمسها؛

حرام يا أخي. حرام وأنتَ في الأساس نَجِس، وليس لدينا ماء تغتسل به.

صحيح.. كيف سنغسِّل نوارة؟

يقول رامي:

- أفيقي يا صوفيَّة. تماسكي. يجب أن نرحل من هنا. يجب أن نخرج من الحصار. ألا تفهمي معنى الجثث التي وجدوها في الحمَّامات؟

- ما معناها؟

- ربما أصيبت الفئران أو القطط بالوباء. حيوانات أصغر قادرة على الوصول إلينا هنا.

- ماذا تقترح؟

- الفِرار.. أبو عمَّار يعرف الرعاة، والرعاة يعرفون الطرق الجبلية. سنفرُّ غربًا إلى أسوان عبر الجبال.

- وما الفارق بين الفرار عبر الجبال والفرار على الطريق الرئيسي؟

- أولًا، الطريق الرئيسي مغلَق، والطرق غير الرسمية مفتوحة. ثانيًا، لو لاحظتِ ستجدين أن القُطعان المصابة تهاجم القرى؛ حيث البشر واللحم، إذًا الطرق المهجورة عبر الجبال آمنِة.

أسأله بلا اكتراث:

- كيف سننتقل ولا وقود؟

- الوقود عند رفعت في المعسكر.

- كيف ستحصل عليه؟

- بالسلاح يا صفيَّة.

- حظًّا سعيدًا.

تعانق سارة رامي، وتستودعه الله! ثم يخرج الفتى وقد تقمَّص شخصية البطل في فيلم أكشن أجنبي.

نتحلَّق أنا وسارة وحسنة حول نوارة، وفي حلقة أكبر تجتمع نساء أخريات وأطفال مذعورون. حلقتان متداخلتان من قِلَّة الحيلة والشعور بالذنب لوجودنا ذاته. نحن نكبِّل الرجال ونزيد حمولتهم.

وكان هذا أيضًا ضمن عقاب حوَّاء؛ اشتياقها للرجل، وسيادة الرجل عليها. مع أنه- والله- أكل معها من الشجرة المحرَّمة!

***

أُطِلُّ على الفناء من نافذة الفصل، وأرى الجثث المتراصة الدامية المغطاة بالأقمشة. الأحياء بالقرب منهم يقفون صفًا أمام حجرة مفتوحة النافذة، يستلم كل واحد منهم بالبطاقة العائلية أو الشخصية حصته من الماء والطعام وما يحتاج إليه من أدوية أمراض مزمنة.

رفضتُ النزول، فأنا غريبة هنا، وربما أكون أنا مَن جلَب عليهم هذه اللعنة. تعود سارة

حاملة نصيبها، وتقف إلى جواري وتسألني:

- لماذا لم تنزلي؟

- لا أريد.

- معي زيادة.. حصلت على علبة مسكِّن كاملة.

- لماذا؟

- عيناي وقدماي تؤلمانني كما تعرفين...

أقاطعها دون أن أنظر لها:

- لماذا حصلتِ على زيادة؟ كيف؟

- صوفيَّة.. طالما الموضوع في يد الرجال، فالأمر سهل. الكل مضغوط هنا، ويمكن ببعض المرونة استغلال هذا الوضع.

أتعجَّب من صراحتها، لكنني أسكت، فتكمِل:

- بالله يا صفية.. أنتِ كنتِ تعرفين ما يريده سليمان، فلا تَدَّعي الشرف أرجوكِ.

أنا لا أدَّعِي شيئًا، لكنني ألزَم الصمت. تجلس سارة على مكتب صغير قريب، وتفتح علبة تونة فتفوح رائحة الزفارة. قريبًا ستغطي رائحة جثة نوارة على أي رائحة.

- ألن تدفنها؟

- بلا غُسل؟

- سيحضرون ماءً من البحر. سأطلب منهم أن يُنزلوها.

- بلا صلاة؟

- سيصلون على الجميع هنا بعد صلاة الظهر.

- أين سيدفنونهم؟

- هنا. ألم تعرفي ما حدث ليلة أمس؟ هاجمت الحيوانات مقابر القرية و... لكِ أن تتخيلي.

يا الله!!

- بالإضافة إلى أن نقلهم سيستلزم سيارات وما إلى ذلك. أنت تفهمين الوضع.

- أنتِ تعرفين الكثير.

- كنا نتسلَّى، ودردشنا قليلًا.

والقطعان تتمشى في الطرقات خلف السور، وبين الجثث، وبين الجيف. أراها من مكاني وأرغب حقًّا في الخروج إليها.

« مساء الخير».

ألتفت لأرى سليمان يدخل علينا، تخبِّئ سارة ما معها خلفها. وأقول أنا:

@ART_OF_BOOK

- أهلًا بالنَّصَّاب. خيرًا؟

- صوفيًا..

- صوفيَّة.

- صوفيَّة. هلا جلسنا نتكلم كالعقلاء؟ نعم، نصبت عليكم. ماذا أفعل كي أرى لنفسي دورًا في الحياة؟ لماذا لا يلجأ أحد لِنُقَّاد ولا مختصين خارج دوائرهم المغلقة؟ هذه النافذة الزائفة هي مُتنفسي على الحياة. أنتَ تساعدنا حقًّا يا أستاذ سليمان، ما رأيك؟ نحتاج إلى مشورتك.. مَن لا يعيش لأجل هذه الكلمات؟ كلنا! والآن نحن الغرباء هنا، غائصون حتى الكواهل في خِرائهم! ما لنا ومال القطعان والبهائم؟! إنهم لا يعرفون أي شيء عن التخطيط أو التعقل.

- وأنت ستقودهم إلى المجتمع الجديد، أليس كذلك؟

- هل سمعتِني؟ أنا لا أصلح قائدًا لنملتين حتى. كل الأمر أنني كنت أحاول توعيتهم. هذا دورنا كمثقفين. ثم.. ثم إنهم يرتابون فينا يا صوفية. نحن الغرباء الوحيدون هنا، ووجودنا غير مفهوم بالنسبة لهم. يقولون: إننا شؤم عليهم، ويقولون: إننا «حكومة»، ويقولون ألف شيء أحمق. اضطررتُ لتهدئتهم. لو عرفوا أنني أعرف أكثر منهم لن ينقلبوا عليَّ.. ولا علينا لو تضامنَّا.

تسأله سارة:

- وما المطلوب منا؟ التغاضي عن أن ما حدث لنا بسببك؟

- أنتِ غاضبة الآن يا سارة. ما حدث لنا نتيجة اختياراتنا. أنا نصَّاب.. حسنًا.. وأنتم خشيتم من التحقق من عرض المعتكف حتى لا تفوتوا فرصة. لا أدين أحدًا... يجب أن ننطلق من هذه النقطة. لا يهم مَن السبب، المهم كيف سنخرج من هنا! لن يصمد هذا المجتمع حتى نهاية الأسبوع! لا أخشى عليهم قلة الموادر قَدْر ما أخشى عليهم من أنفسهم.

كلامه منطقي وإن كنت أكره أن أقترب من الرجل ولو معنويًّا. إنه تذكرة حيَّة لي بذنبي.

- اسمعا يا بنتان.. معي سيارة رفعت، خبَّأتها قرب البحر. ليس فيها وقود كثير، لكن قد نستطيع «استعارة» بعض البنزين من سيارات المحليين.

تردُّ سارة:

- ومن سيعيطنا وقوده في وقت كهذا؟

- من قال: إننا سنطلبه؟ لديَّ مخطط قد ينجح لو استطاع رامي وأبو عمار الاستيلاء على ديزل مولِّد المعسكر.

يبدو أن لديه خطة، ويبدو أنه تكلَّم مع رامي، وأن الأخير سيتعاون معه.

إن النهش هو لحظة يتوقَّف فيها الإنسان عن انتظار العَدْل، ويبدأ في اقتسام العالم بأسنانه.

***

@ART_OF_BOOK

فلمَّا كان الصباح الأول

ياسر...

يوم آخر تعيشه شهرزاد دون أن تُذبَح.

لم ترحل البهائم عن الطرقات وإن قلَّ عددها نوعًا مع هدوء العاصفة. العقارب تتحرك ببطء، تبحث عن مخبأ هي الأخرى. سرعان ما ستحتل المسكَن الذي تهالك بالفعل ولم يعد صالحًا لأي شيء.

أتحرك بحذر، وأضرب حقيبتي عدة مرات لأتأكد من أنها نظيفة؛ ثم أحملها على ظهري، وأقبض على حافر الكائن المشوَّه الذي هاجمني أمس؛ وأخرج ممسكًا رُمحي. الذباب في كل مكان، والفئران تمرح بين الجيف والجثث. أقابل اثنين من عمَّال الموقع، يتشبثان بي كأنني أبوهما، فأطلب منهما اللجوء إلى المسجد. يقول واحد منهما:

- ذهبنا للسنترال كي نحوِّل مالًا لأهلنا، وطلب الرجل منا مائتي جنيه على كل ألف! تخيَّل؟

يُردِف الآخر:

- الرجل كان متحصنًا داخل المحل. أتعرف أنه رفض شحن هواتفنا مع أن عنده مولِّدًا؟

أقول وأنا أسير أسرع لأتخلَّص منهما:

- لست زعيم القبيلة يا جماعة. أنا مثلكما. لن تجدا مَن يبيع لكما أي شيء، فلا تحاولا.

- قيل: إننا سنحصل على وجبة، صحيح؟

- الله أعلم.

- يا باشمهندس، المساكن تداعت.. إلى أين سنذهب؟

أتوقف وأستدير نحوهما في غضب وأزعق:

- لم أنجبكما كي أحمل هَمكما! هذه الشوارب على وجوهكما تعني أنكما قادران على التصرف.

- ما هذا الذي تجرُّه يا باشمهندس؟ أعوذ بالله...

وأمشي سريعًا إلى الوحيد الذي أعرفه؛ الشيخ نوَّار. من كثرة الأصوات حولي تطن أذناي محوِّلة العالم كله إلى طنين خافت يحجب كل شيء، ويضيق مجال إبصاري فلا أرى من الجثث والجيف حولى إلا ظلالًا.

كم بَقِيَ من الأهالي إنْ كان كل هؤلاء قد ماتوا؟!

بيت الشيخ نوار فسيح، تهدَّمت بضعة حوائط منه، ولم يبقَ سوى ما أعرف من هيئته ورائحته أنه حظيرة صغيرة. ناديت مرات، قبل أن يجيب صوته:

- مَن؟

- مهندس ياسر.

يخرج لي وقد اتسخت ملابسه بالروث. يسلِّم عليَّ ويعتذر. يبدو أنه مغموم وأعرف منه أن ابنته التي كانت تعتني به محمومة، متورِّمة العنق.

- هل عضها حيوان؟

- لا لا.. مرضت من تلقاء نفسها. الوحدة الصحيَّة مهجورة. ما هذا معَك؟

يركع إلى جوار الكائن المشوَّه، وأرى أثر جرح يشبه العضَّة على كفه المتغضن.

- ما رأيك يا شيخ؟

- جَذْي مشوَّه، يفترض ألا يعيش حتى يصل إلى هذه السن. غريبة..

- إلى أي درجة تبلغ غرابة هذا؟

- إلى درجة أنني لم أَرَ مثله من قبل، كما لم أرَ مثل فكوك الجِمال والماعز والبقر التي تهاجمنا. تعالَ...

يمشي ببطء نحو جيفة عجل ضربه أحد بسكين في مقتل. يضغط بيده على فكي الحيوان، ويستعرض أسنانه، ويخبرني أن الفك والأسنان غير مألوفين في الأبقار؛ مما مكَّن هذه الحيوانات من العض بقوة أكبر من المعتاد. يدعوني إلى الزريبة؛ المكان الذي يحتمي فيه هو وابنته. مرة أخرى أجد أن رائحة الروث تنفِّر الحيوانات المهتاجة، أو لعلها تحجب عنها رائحة اللحم الحي.

يقول الشيخ نوَّار وهو يسدل قطعة قماش على موضع نوم ابنته:

- ما رأيك يا باشمنهدس؟

- رأيي من يوم رأيت تلويث خزان الماء أن فاعلًا وراء كل هذا.

- إن كان أحدهم يحاول قتلنا أو طردنا من أرضنا، فكيف أثار الرياح وهيَّج الطيور وغيَّر حركة الموج؟

وحكى لي أن الصيادين يشكون من تغير حركة الموج والتيارات في البحر. أُريه الـــ سكرين شوت التي أحتفظ بها من الأخبار، وأشرحها له، ثم أعقِّب:

- ما يحدث يحدث في العالم كله. يقولون: إن تغير السلوك بسبب الارتحال القطبي.. لا داعي لشرح الموضوع، لكنه ظاهرة أرضية ما تحدث منذ فترة طويلة، لكن تسارع وتيرة حدوثها مؤخرًا أدت إلى مشكلات منها هذا التغير، وتغير الطقس وما إلى ذلك. نحن إذًا بصدد كارثة طبيعية يستغلها أحدهم، ولعل هذا التشوُّه أو التغير في فكوك الحيوانات ناتج عن تناسل السلالات التي تأثرت بالظاهرة ولم نلاحظها.

يفكر الشيخ حينًا وهو شارد في الجدار، كأنه يخترقه إلى ما وراءه من خراب، ثم يقول:

- لو جُنَّت هذه الحيوانات المسالمة وأُكلت اللحوم ستموت. لن تتناسل أصلًا وهي تلتهم بعضها البعض.

- إذًا كيف يحدث هذا؟

- هل لديك طريقة تعرف بها ما يحدث خارج مصر؟

- لا إنترنت منذ انقطعت الكهرباء. ما قرأته آخر مرة أن الظاهرة عالمية؛ شذوذ في سلوك مجموعات من الحيوانات، لكن لم أقرأ عن تفاصيل كالتي نعيشها. إن كان العالم يعاني مما نعانيه وبالشدة نفسها لعرفنا.

يهز رأسه ببطء، ثم ينظر إلى حيث تنام ابنته خلف الحاجز ويسألني:

- أتعرف أن عددًا من الأهالي مرضَى.. محمومون؟

- حقًّا؟! وباء آخر يصيب البشر؟

- لا أعرف.. أخشى أن يكون طاعونًا.

- طاعونًا؟! أعتقد أن هذا المرض اختفى منذ زمن، على الأقل من مصر.

- ما ينتهي من الدنيا كلها يظل هنا، في الجنوب. ما عُمر والدك؟

- ثلاثة وسبعون عامًا.

- أنت أسواني، أليس كذلك؟ لعل جدك قد عاصر الطاعون في الصعيد. أيام الملك فاروق. طاعون.. كوليرا.. لم تستطع البلد فعل شيء وهي وسط حرب. ما كان أحد ليبلِّغ عن مرض كهذا أو يتحرك إلا لو أصاب إنجليزيًّا وانكشف الأمر. غير ذلك، سيُدفَن الجميع بلا أوراق وإعلان، كما سندفن مَن ماتوا في القرية بعد الصلاة في حفرة ونحرقهم.

@ART_OF_BOOK

هكذا يختفي الوباء، هكذا يُسَجَّل انتهاؤه على الورق ويُعلَن السلام. أسأله:

- أنت لم تشهد الطاعون طبعًا.

- حكى لي أبي عنه.

- منذ متى وأنت هنا في أبي رماد؟

- يااه.. منذ زمن.. وعيت على الدنيا ووجدت نفسي في أبي رماد. سافرت مع والدي إلى الصعيد كثيرًا، لكنني لا أعرف سوى هذا المكان. كنا نرعى في جبل علبة حتى اغتصب أحد الرعاة قطيعنا، ولم يعد لنا مال ولا جاه. كنا في زمن جفاف وعَوَز، أيام مثل هذه يا بني.. من يومها وأنا هنا، عند أطراف القرية.

يستمر الصمت حينًا، ثم يرفع الشيخ نوَّار رأسه فجأة ويقول:

- هل سنجلس هنا حتى يُقضى علينا؟

- ماذا تقترح يا شيخ نوار.

- سنتصرف. لن ننتظر مَن لا يعيشون ما نعيشه ليُنجدونا.

- أتفق معك. أريد أن أريك شيئًا أولًا.

***

يقف الشيخ نوَّار أمام الفتاة الجميلة المحمومة في المسكن تحت الإنشاء. لا يزال حواشي هناك، وإن لم نجد طعامًا آخر؛ أي لم يأتِ أحد لزيارتها. يمس الشيخ ما

حول الفتاة من رمل، ثم يشم أطراف أصابعه ويعلن:

- كبريت.. هذا ما أبعد عنها العقارب.

وكأنما يعرض كلمته الأخيرة بصريًّا، يضغط على عقرب في الركن بعصاه فيسحقه، ويظل يسحق وهو يضغط فكَّيه.

- شيخ نوَّار... الفتاة معضوضة والجرح ملتهب. هل تعرضتَ للعض من قبل؟

أنظر إلى الأثر على كفه التي تعتصر طرف العصا، فيجيب:

- نعم.. عضني الجَدْي الذي قتلتَه أنت. مرضتُ ليلتَيْن وكدت أموت، لولا أعطتني ابنتي دواءً... أقراصًا. الحمد لله. أنا الآن أفضل بكثير.

- هل لديك شيء من هذا الدواء يمكننا إعطاؤه لها؟

- لا.

يترك العقرب البائس أخيرًا، ويضيف وهو يكشف جسد الفتاة:

- هذه الفتاة حُبلَى.

وأرى بطنها المنتفخ، والذي ظننته كرشًا لبدانتها.

- كيف كانت ستتزوج إذًا؟

- عريسها لم يرها منذ خَطبَها.. في الصيف. هذه عاداتنا. لقد سمعت بـ.. بمعرفتها بأحد رعاة الجبل، وقد رفضه أهلها عندما تقدَّم لخطبتها، فلم يكن يملك جَدْيًا واحدًا

يتزوجها به. مجرد راعي يعمل عند آخرين، وليس له قطيع، ولا يحق له الزواج من فتاة مثلها ذات حسب وجَمَال. لم أصدق ما قيل من أنها... أخطأت معه، لكن هذا واضح الآن.

- ماذا لو أن الزفاف قد تمَّ، وانكشف الأمر؟

ينظر لي بعينين غائصتين في تجاعيد كالجبال ويقول:

- ألم تفهم بعد؟ لقد هَرَّب أحدهم الفتاة.

أهز رأسي محاولًا إفساح مكان لما يريد قوله، فيضيف:

- هذا يؤكد أنَّ ما يحدث لنا هنا بفعل فاعل. هل تصدق أن محاولة تهريبها وقعت مصادفة في الوقت نفسه الذي هاجت فيها الجِمَال، واخترقت فيه الماعز البيت؟

- إذًا.. إذًا تقول: إن مَن هرَّبها هو مَن يتآمر علينا؟

- أقول: إنه ضمن مَن يتآمرون علينا. إنهم مجموعة ولا شك. يسرقون المؤن التي تَدخل لنا.. يُلوثون الماء.. ويَنتقون حيوانات ذات صفات معينة ليزاوجوها عمدًا..

أكمل أنا:

- فيَنتج قطيع ذو صفات معينة، يورث صفاته لأبنائه...

- لكن كيف لا تعض الحيوانات بعضها البعض في أثناء التزاوج؟ كيف يرغبون في التزاوج أصلًا إن كانوا في مثل هذه الحالة من الهياج الدائم؟

- ربما لا تهتاج تلك الحيوانات إلا إذا جاعت؟ لعله يستخدم وسيلة ما ينقل بها المَنِيَّ إلى الأرحام دون تلاقٍ؟

ينبح حواوشي، ويقترب من الباب. أنظر من بين فُرجات الخشب، فأجد شابًّا يغطي وجهه، ويحمل لفافة قماشية. أشير إلى الشيخ أن يلزم الصمت ويتبعني. نختبي في غرفة جانبية، وننتظر حتى يدخل الشاب، ويضع اللفافة إلى جوارها، ثم يفطن إلى أن ما تركه من قبل قد اختفى، فيترك كل شيء ويغادر سريعًا.

يهمس نوَّار:

- ماذا به؟

- لقد عرف أن أحدًا أخذ الطعام الذي تركه هنا. أنا أخذته.

قلتها في خجل، لكن الشيخ لم يتوقف عند هذه التفصيلة، بل قبض على كفي وقال وهو يجذبني لنرحل:

- لا بد أن يعود الفتى، وغالبًا سينقلها من هنا. أنا مُسِن وأنت بدين، ونحتاج إلى مَن يراقبه ويقتفي أثره. يجب أن نعرف من يكون وإلى أين سيذهب، ومن أين يحصل على الماء. سأرسل شُبانًا من معارفي. لننقل الشابَّة أيضًا.. أسرِع.

***

بعد صلاة الظهر والصلاة على الموتَى، عرفنا أن المدافن منبوشة؛ ولا مفرَّ من حرق الجثث مع الكثير من النواح والصراخ. هذه فاجعة أكبر من فاجعة الموت نفسها.

نقف في خشوع نرمق الدخان البعيد عند أطراف القرية. كومتان متباعدتان؛ واحدة للبشر والأخرى للحيوانات. الريح تدفع الرائحة تجاه الجبل، لكنها واضحة رغم كل شيء.

في أثناء نقل الجثث، تسلَّق مَن تبقى من الرجال والشرطيين أسطحَ المنازل، وأطلقوا الرصاص على أي حيوان مشتبه فيه. لم تهاجم النوارس منذ فترة، ويبدو أنها التهام الجثث قد أتخمها، إلا أن محمود الأزهري قال: إنه رأى مئات منها نافقة على الشاطئ. قال ونحن مجتمعون في المسجد، أنا والشيخ نوار وشيخ البشارية وستة رجال من العاملين في البلدية:

- ستموت النوارس كلها قريبًا. النوارس تأكل الجيف، لكن شيئًا فيما تأكله يمرضها فتموت.

يسأل الشيخ نوَّار:

- هذا يعني أن الحيوانات ستموت هي الأخرى لو استمرت في أكل بعضها والجيف والبشر؟

- صحيح. ما علينا إلا الانتظار والتحصن ومحاولة تسريع هذه العملية بقتل ما نراه منها.

فأقول أنا:

- الانتظار يعني ماء وطعامًا وأدوية. يعني مكانًا حصينًا يَسَعُنا.

فيرد شيخ البشارية:

- عرفت أن المحافظة سترسل الماء والوقود مع تأمين خاص. لن يتأخر الغوث إن شاء الله.

- يتبقى إذًا التحصُّن، و...

يقاطعني الشيخ نوار:

- ماذا سيرسلون؟ تأمينًا للشاحنات؟ سيارة مُدرعة؟ ماذا عن القطعان التي تقلب السيارات، بل ماذا عمَّن يقودها ويخطط لكل هذا؟ ستكون هذه حربًا، ولن ينتصر فيها إلا مَن يعرف الصحراء والجبال، لا جنود مدنيين مهما بلغت كفائتهم. ثم هَبْ أنهم نجحوا في توصيل الشحنات، فماذا سنفعل لو سرقها مَن يسرق أو أفسدها مَن يفسِد؟

يسأله شيخ البشارية في اهتمام:

- عمَّن تتكلم يا شيخ نوَّار؟ هذا كلام غير معقول. كأنك تقول: إن بيننا ميليشيات مسلَّحة ونحن لا ندري.

- الكلام غير معقول بالنسبة لك. أنت مجرد موظف، لا تعرف عن البشارية ولا الناس هنا إلا ما على الورق.

- وأنتَ تعرف كل شيء؟ اِهدأ يا شيخ نوَّار ولا تشتت الناس. أنا أعرف أ...

يقاطعه الشيخ وصوته يعلو حتى تكاد أذناي تنفجران:

- أنا أعرف كل نَفس هنا.. أعرف كل طريق وكل حجر وكل طائر وكل حيوان. كم عمرك؟ خمسون؟ ماذا تعرف عن حلايب؟ هل رعيت في الجبال؟ هل وقفت وجهًا لوجه مع رجالها؟ هل عشت القَحط والجدب؟ هل اضطررت لقتل أبناء دمك؟ هل وجدت نفسك بين يوم وليلة معلَّقًا، نصف أهلك هنا ونصفهم هناك، وبينكما حدود وأسلاك وسلاح وموت؟ أنت لا تعرف شيئًا، وكل مَن سيموت هنا من اليوم سيموت بسببك.

قال محمود الأزهري محاولًا تهدئة الشيخ:

- من أنكر أنك كبيرنا يا شيخ نوَّار؟ المعرفة تتكامل، هو يعرف أمورًا وأنت تعرف أخرى، ونحن في موقف لا يحتمل أي خلاف. أخبرنا عن شكوكك..

ويحكي الشيخ نوار، ويستعين بي أحيانًا لتعزيز استنتاجاته بما رأيت بنفسي، وأخيرًا أختم بقطيع حمَّاد الذي رأيته يوم أودِعت جهنَّم. يقول أحد الجالسين:

- ألم يمُت حمَّاد من فترة؟ إنه من رعاة جبل علبة، ولا نعرف أحدًا مقربًا منه، لكنني سمعت أنه مات. وجدوه ميتًا في الصحراء.

يسأل محمود:

- ماذا عن قطيعه الذي حكى عنه الباشمهندس؟ أين ذهب؟

- إما أن الرعاة اقتسموه، وإما تفرَّق هنا وهناك حتى مات.

أقول أنا:

- أنا متأكد من أنني رأيت ماعزًا من قطيعه يجذب شيئًا داميًا.

يرد شيخ البشارية:

- ربما. على أي حال، سواء مات حمَّاد أو لا، لا أعرف ما دخله في الأمر. إن كان بيننا من يريد إفساد معيشتنا، سنراقبه ونعرفه.

ينخر الشيخ نوَّار ويغمغم:

- ما لم نعرف بوجوه منذ سنوات، سنعرف به الآن. نعم.

أقول:

- وحتى نعرف مَن يكون، وحتى يستقر وضعنا، يجب أن نتحصن جيدًا في مكان لا يدخل إليه حيوان أو طائر أو زاحف. مكان مبني جيدًا، يُتيح عزل المرضى الذين تتكلمون عنهم.

فيتهكَّم شيخ البشارية:

- أنت تريد قرية أخرى إذًا. هذا ما لدينا يا باشمهندس. المسجد، المدرسة، الوحدة المحلية... لن نُنفق ما لدينا في بناء ما لا لزوم له ونحن في أول أيام الأزمة!

- كلها مبانٍ جيدة لكنها متفرقة، ونحتاج إلى تركيز الحراسة على مساحة أصغر.

- إذًا هي المدرسة أو مبنى الوحدة المحلية.

- ما هي خطوط دفاعها؟

- للمدرسة سور.. وللوحدة المحلية جدران معقولة.

- وكلها ذات نوافذ واسعة للتوفير في استهلاك كهرباء الإنارة.

- نسد النوافذ.. تبنيها بالطوب.

أقول لرجل الوحدة المحلية:

- كم سنحتاج من وقت لفعل هذا؟ بل من أين لنا بماءٍ لعجن الأسمنت؟

- من البحر؟

- أملاح البحر تعرقل تصلب الأسمنت. لن يتماسك.

- ماذا تقترح إذًا؟!

- حصن تَل أبي صَيفي.

***

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

ومثقفون...

فيما يقال.. مثقفون!

صوفيَّة...

المهم..

أين سأدفن نوَّارة؟

ساعدتني حَسَنة على تغسيلها بماء البحر في حمَّام المدرسة الضيق؛ ولم يعترض أحد؛ إذ إن أحدًا لا يلاحظ أي شيء يفعله الآخرون. الكل في الكارثة عُميان. يبحثون عن طعام، عن مأوى، عن ظِل حائط. يحملون بعض المرضى المحمومين إلى الوحدة الصحيَّة فلا يجدون فيها أحدًا. يُذاع في مكبر صوت المسجد تعليمات متنوِّعة، يتخللها أسماء المنهوشين الجدد. إذاعة الفواجع من حلايب وشلاتين.

يمشي الناس في تنقُّلاتهم تحت أَبسِطة من جلود أو صوف؛ خشية هجوم الطيور التي شاركت النوارس الهياج. يغطون وجوههم؛ خشية استنشاق الدخان والغبار ونواتج تحلل الجثث والجيف. يحملون عِصِيًّا ومشاعل وأنصاف براميل مقصوصة على شكل دروع. مشهد يليق بأكثر الروايات جنونًا وعبثية.

أو لا يليق..

ونلُف نوارة بملاءة متربة، ثم نجلس أنا وحَسَنة إلى جوارها في الحمَّام وقد ابتلَّت

@ART_OF_BOOK

ملابسنا.

أين سندفنها؟

تقول لي حَسَنة:

- يا أختي.. ماذا لو لم يفلِح أبو عمار ومَن معه في إحضار الوقود من المعسكر؟

- لا يهم. سيحدث لنا ما سيحدث.

- أريد أن أسألك عن رأيك في أمر؛ هل تتذكرين ما قلتُه لكِ عن حمَّاد الشَّبلي؟

- الرجل الذي كان يعرف ما سيحدث قبل حدوثه.

- نعم. ماذا لو كان حيًّا؟ هل.. هل تعتقدين أنه قادر على إخراجنا مما نحن فيه؟

- كيف قد يخرجنا؟

- لا أعرف.. يبدو أنه استعدَّ قبلنا. تخيلي.. تخيلي لو أن الماء والوقود والطعام دخلوا إلى القرية، هل كانت لتوزَّع بالعدل؟

- لا أفهم.

تحدق حسَنَة إلى جسد نوَّارة المسجَّى المبتلِّ، وتقول وهي تربِّت على رأسها المغطى:

- أنتِ تعرفين أن الحكومة كانت ترسل معونات لنا.. للفقراء مِنا.. يتولى توزيعها آخرون، وربما يعطي الآخرون نصيبًا منها لآخرين وهكذا.. المهم أن ما يصل إلينا لا

ART_OF_BOOK

بسد أيَّ شيء. ماذا لو وصلت الشاحنات فعلًا، ولا رقيب هنا ولا صلة بالحكومة ولا الشرطة؟ إنهم يتخيلون أن جوعهم أكبر من جوعنا، وبَردهم أشد من بردنا...

تحتشد الدموع في عينيها، وترتجف يدها الجافة السمراء. أسألها:

- مَن هم؟ عمَّن تتكلمين؟

تمسح الدموع بسرعة، ثم تكمل:

- لا يهم.. لقد رأيتِ ما فَعَلته رفيقتك حمراء الشعر... أنا أظن أن عدم وصول الشاحنات أفضل. سنموت كلنا سواءً، وقد يشعرون أخيرًا بجوعنا وبردنا.

أربِّت بدوري على الفقيدة، وأقول:

- لو وصلت، لاقتسمها الناس بأنفسهم. ما عاد أحد ينتظر توزيعات أو أنصبة.

- سيَقتلون بعضَهم، أو سيقتلونهم ويستولون عليها هم.

- مَن هم يا حَسَنة؟

- الكِبار.

- لكنَّ غيرهم يسرق الإمدادات. كلهم لصوص.

- ما أريد أن أقوله: إن مَن يأخذ الشاحنات لا يسرقها، بل يحفظها لنا كي لا نتقاتل عليها أو يأخذوها مِنا.

أعقد حاجبَيَّ.. لا أفهم شيئًا. أسألها عما تقصده، فتفسِّر:

@ART_OF_BOOK

- حمَّاد الشبلي يا أختي. إنه هناك في الجبل، يحتفظ لنا بالماء والطعام والعلاج والوقود.

- لقد قلتِ: إنه مات.

- لو أخبرتك بما أعرفه لسخرتِ مني. أنت متعلِّمة ومن المدينة، ولن تصدقيني.

- وما الذي تغيَّر لتخبرني الآن؟

تشير إلى الجسد بيننا، وتقول:

- ابنك مات كما مات ابناي من قبل؛ بَرْدًا. جُعتِ كما جُعنا. تشردتِ كما تشردنا. لقد صرِت منا، وأنتِ بلا حيلة، وتعرفين الآن أن ما يحدث لنا عقابٌ من الله، ولا مفر سوى العودة إليه.

- لا أفهمك يا حَسَنة. تكلمي بوضوح.

- ما يحدث لنا اختبار، لنعرف مَن سيؤمن ومَن سيكفر. مَن سيؤمن سيجد لنفسه طريقًا إلى الجبل.

- إلى حمَّاد؟ ما حمَّاد هذا؟ مُدَّعِ نُبُوَّة؟

- أبدًا! إنه راعٍ، مؤمن مثلنا.. رأى ما رأينا وقاسى مما قاسينا، وهو الآن قادر على حمايتنا.

- منذ متى وأنتِ تعرفين بوجوده؟ هل رأيتِه؟

- نعرف بوجوده منذ زمن، ولم أره، لكنَّ أبا عمار يعرف مَن يعرف أنه رآه.

- ولماذا لم تذهبوا إليه من البداية؟

- كل شيء في أوانه. لا يعرف أحد مكان حمَّاد بالضبط، لكن يقال: إنه يمر بين البيوت، يعرف مَنِ الصالح ومَنِ الطالح، وسيرسل مَن يأخذنا إليه. كل ما علينا فعله هو الانتظار والتوبة.

هذا كلام فارغ. ربما حكايات سمعَتْها حول النار أو هلوسةُ أُمٍّ فقدت ابنَيْها وقد تفقد مَن تبقى أيضًا.

أين سندفن نوَّارة؟

في هذا الحمَّام بالذات وجدوا في الصباح أطفالًا منهوشين. على الأرضية المبتلة أثر أقدام مَن أخرجوهم، وأثر دماء. آثار حافية، وآثار أخفاف، وآثار أحذية، وآثار أقدام صغيرة..

أين سندفن نوَّارة؟

- ما رأيك أن نحملها إلى السَّطح، ونكوِّم فوقها بعض الرمال والمكاتب؟ لن يصل إليها النوارس ولا الحيوانات.

فكرة جيدة، نفذتُها أنا وحَسَنة بصعوبة بالغة، وتركتنا منهكتَيْن آخر النهار.

نقف تحت غطاء من جلد الأبقار، ننظر إلى القرية من أعلى السَّطح. أفتح هاتفي وأحاول الخروج في بث أعرِّف فيه الناس على نوارة كي يترحَّموا عليها ويدعوا لها، فلا

أجد شبكة. لقد انقطعنا عن الحياة، ولا ينقصنا سوى رمال ومكاتب تُكَوَّم فوقنا كي يبدأ الحساب.

***

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

قاللي لِمهندس طلعت :

إن الناس دي ف أولت الدنيا..

أيام م الأرض دي كانت غابة واحنا كنا وحُوُشَه.

كان الناس يطلعوا للغابة يصيدوا يا فاطنه مع بعض.

لإن اللي يروحها لوحده

كان يستفرد بيه الوحش.

ده حتى كانوا

إن واحد يعمل غلطة ف إخوانه

لا يودوه سجن

ولا يسألوا فين النقطة اللي تحبس

ولا فين سجَّانه.

كانوا يسيبوه يمشي لوحده بَرَّه الناس.

شايفه يا فاطنه الوقتِ السجن صغير كيف؟

عبد الرحمن الأبنودي

***

ART_OF_BOOK

1

حمَّاد الشبلي

مُتُّ شمس وشمس وشمس.. وعدتُ في القمر.

كنت وحدي على الرمال، وليس حولي شيء. الأهل يحيطون بي، يتشممونني، يحكُّون فرائهم في جسدي.

دِهَرِك؟شششم.. شششم..

مغَّااه.. مِغَّااه..

نعم، عُدت.

ازحف إلى المشرب، أغمر وجهي فيه مع الأبقار..

بووو... بووغ!

***

@ART_OF_BOOK

قدر ما زاد ألم... ما في خلاص...

ميكيل

أعتقد أن ذخيرتنا تنفد.. لا بد من الحركة..

في غرفتي، أنظر إلى ما جمعتُ من أغراض قد تعينني على العيش أيامًا في فِراري بحثًا عن مجموعة أخرى لا تعرفني. سيكون هذا بحثًا غير محدد المُدَّة، قد أموت في أثنائه... لكنني قلتها من قبل: هذا وقت اختيار القَبر المناسب، ولن أموتَ عبدًا.

أسمع صوت طلقات نارية قريبة، فأنظر إلى الظلام من بين أغصان السيَّال الذي يغطي النافذة. الهجوم البشري الذي توقَّعته.

الأبَّالة يتصايحون، رِفعت يطالب الجميع بالتماسك وحماية المكان، فهو ما يريده المهاجمون قطعًا. الليل يصعِّب المهمة، وأنا لا أريد التورط في شيء منها أساسًا، لذا أرى أن موعد فراري قد حان.

أخلع الأغصان عن النافذة، وأرمي الحقيبة القماشية القديمة، ثم أقفز خلفها. أحملها على كتفي، وأستَلُّ الخنجر الذي استعرته من أحد الرجال في الصباح لفَصد الدم من الرجلين المصابين بالحُمى، ومن امرأة عقرَتْها نعجة. لا أعرف إن كان فَصْد الدم مُجْدٍ، لكننا نحاول التشبث بحياة ترفضنا، تبصقنا...

المهاجمون خمسة أو ستة، معهم تروسيكل يضيء كشافه الوحيد فتجتمع النوارس حيث أضاء. صياح، صراخ، فوضى.. أُلصق ظهري بجدار المبنى، وأتحرَّك ببطء

مبتعدًا. أطفال يركضون تجاهي، يبغون الاحتماء بالمساحة الفارغة خلف المبنى، فيروننى.

- عم أبو ميكيل.. النجدة!

أشير لهم بالاختباء خلف المولِّد المطفأ، وأسألهم:

- ماذا رأيتم؟ كم رجلًا يهاجمون؟

يجيب أكبرهم:

- سبعة.. واحد منهم مصراوي، يتكلَّم مثل عم أبو رفعت.

نساء تركض تجاه البحر، تصاب واحدة بطلقة طائشة. صوت حشرجة حيوانية عالٍ، ثم أرى بعيرًا مصابًا مهتاجًا، يضربه واحد من الأبَّالة بعصاه بقوة وهو يصيح ويضرب الأرض. يلتفت نحو الحيوان، يصرخ، فيصرخ الرجل ويضربه، ويحثَّه على مهاجمة الوافدين. يدور البعير والأبَّال حول بعضهما، حيوانان غاضبان، أو بشريان مذعوران.. ينضم آخَر للرجل، يضرب الأرض إلَّا أن البعير يقرر أخيرًا أن الفريسة الأقرب هي الأفضل، أو لعله يقرر أن الانتقام ممن ضرباه أولى من مهاجمة الغرباء.

يغطي طفل وجهه في طرف قميصي ويصرخ؛ إنَّ الذي انتزع البعير جانب رقبته هو خاله. يفرُّ الآخر، فيَلقاه أحد المهاجمين في ملابس أبناء المدينة...

رامي..

أخرج من مخبئي وأصيح:

@ART_OF_BOOK

- رامي! كفى! أنا هنا!

يلتفت لي رامي، ويقول في غضب أخفاه الليل لكنه تجلَّى في حشرجة صوته:

- أتيت بأهلك ليحتلوا المكان أيها الخائن؟ تركتنا لمصيرنا واختفيت لتلتهمنا الحيوانات؟

- هل تفهم ما تقول أصلًا؟ لقد سلَّمتكم حقائبي! لقد أخذتم الماء!

- فِيمَ قد ينفعنا كل هذا ونحن لا نعرف شيئًا هنا؟ نحن في أعين الجميع الغرباء الذين جلبوا النحس!

ويستمر إطلاق الرصاص..

- ماذا تريدون يا رامي؟ يبدو أن لديك أصدقاء جددًا لا يعتبرونك نحسًا، ولا تحتاج إلى الخائن الآن.

- أريد الوقود.. كله!

- أوقف الهجوم ولتتكلم. هذا المكان ليس ملكي، وأنا كنت راحلًا كما ترى.

أشير إلى حقيبتي، وأرى الأطفال ينظرون إلينا بأعين متسعة.

- لأجل الأطفال.. أوقف الهجوم، وكَلِّم رفعت.

- رفعت مات!

- رفعت حي. لقد شُفِي.

يعقد رامي حاجبَيْه، ثم يهتف في الرجال أن يتوقَّفوا. يهتف مرة تلو الأخرى، ثم يتركني ويقترب من المبنى؛ حيث رجاله والأُبَّالة يتصارعون. أركض خلفه، أحترس من الرصاص المتطاير.. من أين لهم بالسلاح والذخيرة؟ هل هم رعاة؟ ليس مع الرعاة أسلحة نارية كثيرة إلى الدرجة التي تجعلهم يُسرفون في القتل لأجل مبنى بلا سقف تقريبًا ومولِّد كهرباء.

يصيح رامي، لكن الرجال لا يتوقفون. ينظر لي مضطربًا، فأسحبه بعيدًا وأسأله:

- مَن هؤلاء؟!

- من.. أهالي مرسى حميرة. رعاة صغار وجامعو كلأ! وافقوا على الإغارة على المكان معي لأخذ الوقود لنقلنا إلى أسوان عبر الجبال...

- أنت تريد الوقود الذي قد يكفي لسيارة واحدة.. ماذا يريدون هم؟ ما مقابل مساعدتك؟

يخرج رفعت مرتجفًا، رافعًا ذراعيه عاليًا، ويهتف:

- الرحمة! النساء والأطفال مذعورون! خذوا ما تريدون وارحلوا في سلام.

يقول قائل وهو يشير إلى مكتب رفعت:

- ادخلوا هذه الغرفة.. كلكم!

فيدخل مَن تبقى من الموجودين إلى المكتب ويظل الهَرِم جالسًا على الأريكة، صدره ينزف، لكنه بعدُ حي. أتدخَّل أنا، فيوجه لي واحد من الرجلين داخل القاعة سلاحه.

يقول رامي:

- انتظر.. هذا ميكيل الذي كلمتكم عنه.

- الخائن.

- ليس هذا وقته. لنتكلم مع رفعت.

يقول الأخير وهو يدخل الغرفة بظهره:

- لا بأس.. خذوا ما تريدون واتركونا..

- سلموا أسلحتكم كلها وادخلوا الغرفة.

أنظر حولي فأرى جثثًا متناثرة... للمرة الثانية تُغَطَّى أرضية هذا المكان بالموت. يدخل الأطفال الذين كانوا في الخارج، يدخلون الغرفة مع رفعت الذي أغلق الباب في وجوهنا. أقول أنا:

- المبنى لن ينفعكم في شيء. اتركوه لنا، وخذوا المولِّد.

يرد الذي يرفع سلاحه في وجهي:

- سنأخذ كل شيء.

يهتف رامي وقد ابتلَّ وجهه بالعرق:

- لم نتفق على كل هذا القتل يا مسعود.

- أنت خدعتنا وقلت: إن المكان خالٍ، أو فيه رجل واحد على الأكثر. ماذا تتوقع منا وقد وجدنا رجالًا وأسلحة وحيوانات مسعورة؟ لقد نصبتَ لنا أنتَ وهو فخًّا.

يهتف رامي في جزع:

- والله لم أكن أعرف أن أحدًا هنا سوى ميكيل!

- لقد مات منا اثنان، ونريد هذا المكان بما فيه مقابل خسارتنا. ادخلا مع الباقين في الغرفة، واحمدا الله على أننا لن نقضي عليكما.

يظهر رجل آخر من الباب، يترنَّح ورأسه ينزف، يتوَّج رأسه أثر أسنان عريضة. يقول للرجال:

- لنرحل.. أنا مصاب.

- اصبر يا أبا عمَّار.. سننقل المولَّد ثم نعود بشاحنة المصراوي لنجلب باقي الأشياء.

يحتج رامي:

- لقد اتفقنا على أن الوقود لرحلتنا إلى...

- واتفقنا على أن المكان خالٍ، ولم يكن.

أشير إلى رامي كي يدخل الغرفة، ثم أقول:

- أنا راحل.

- لقد رغبنا فقط في الموت هنا. في الديار..

أترك كل شيء خلفي وأخرج. ماذا لو لم يلقني الرعاة؟ كانوا سيتصرفون أو سيموتون. أتأكد من الهدوء النسبي بالخارج. البعير المسعور يلتهم جثة ما، والنوارس تدور في نور كشاف التروسيكل، تنتزع اللحم من هنا وهناك. إلى جوار الباب جِركن ديزل مما تبقى من رش العقارب، أحمله معي وأبتعد قليلًا، ثم ألفُّ قطعة قماش حول غصن جاف، وأكمل طريقي.

منذ خمسة عشر عامًا وأنا أمشي في الخلاء، مُطارَد. تعلَّمت ألا يلاحظني أحد، وفي كل مرة كان حرس الحدود يلاحظوننا، كان السبب هو الحمولة؛ أولئك الذين أتسلَّمهم من آخرين لأنقلهم إلى داخل البلاد. نقلت بعضهم في صناديق شاحنات، وبعضهم في تكاتِك، وبعضهم في قوارب متداعية. ألقيت بجثث بعضهم في البحر، وبجثث البعض في المطمورة؛ حيث نتخلص من أسرارنا والدليل على ما اقترفناه. حُفَر عارية وسط الصحاري، تُشهِد السماء على أن مَن فيها حَيَوا وحلموا... ثم ألقي بهم لحمًا للضباع.

أمشي بخطوات ثابتة، رتيبة. أحاكي رفرفات أجنحة النوارس واصطكاك فكوك المفترسات التي كانت يومًا على موائدنا. خطوة خطوة...

مع أن قانون الصحراء يمنع التعارف، يمنع المودَّة، إلا أنني أتذكر كل وجه مات مختنقًا أو غارقًا أو مصابًا أو قتيلًا على الطريق، بل أكاد أتذكَّر مَن ماتوا بعد الوصول،

مَن سُجِنوا، مَن رُحِّلوا، مَن صعدت أرواحهم على مَناضِدِ غرف العمليات القذرة ولم يتقاضَ أهلُهم ثمنَ ما باعوا من لحومهم.

منذ وقت طويل، والمسألة مسألة اختيار القبر المناسب لا أكثر.

ثم جاءت لحظة تشبَّعتُ فيها بالموت، لحظة كتلك التي قررتْ فيه النوارس نَهشَنا، وقررت فيها الحيوانات افتراسنا، وقررت فيها الرياح أن تحمل إلينا الغبار والعقارب. لحظة نعرف أنها آتية لا محالة، لكننا لا نفكر فيها كي لا نُجَن.

وقد جُننت يومها، وفررت.. كما أفر الآن.

منذ كنت في العشرين وُعِدت بالفرار إلى الأمان، فقط لو ساعدت هذه الحمولة في المرور. حمولة أخرى واحدة، ونتركك في مصر يا ميكيل. حمولة ثالثة، بحرًا هذه المرة.. أنتَ بارع كأنك رمل الصحراء وموج البحر ونَبْتِ السماء. ساعدهم، ثم لك حريتك ولك مالٌ وفير..

خمسة عشر عامًا، يَعِدُونني بالحرية، ثم يُنذرونني بالسجن. أنت مهرِّب يا ميكيل، ولو تراجعت سنبلغ عنك. أنت قاتل يا ميكيل.. لست ملاكًا كالذي سموك على اسمه، فلا تدَّعي البطولة أيها الكلب الوضيع.

وأمشي بين التباب إلى مرسى حميرة، يقترب مني نورس، فأتوقَّف، أثبت، أتحوَّل إلى صخرة مغطاة، فيفقد الرغبة في مطاردتي، ويرحل.

فأمشي..

***

الظلام والسكون، ورائحة مقيتة تغلِّف كل شيء.. والضباب. المنازل مُهَدَّمة، صوت مذياع يتلو القرآن في المسجد، حيوان صغير يعرج على ثلاثة أرجل، يأكل من شيء على الأرض.

أطفئ المِشعل الذي صنعته، وأخفي الجركن في حفرة حفرتها ملاصقة لشجرة، وأمشي تجاه الضوء؛ نيران متناثرة على طول سور المدرسة تُبَيِّن موضعها وسط أشباح المباني. صوت يهتف:

- مَن هناك؟

- أنا.. من الأهالي..

- مصاب؟

- لا.. لا.

- هل تريد الدخول؟

ويفتح لي، وأدخل.

***

لا يكترث أحد لقيادتي إلى حيث أَبِيتُ، بل إن الممر بين الفصول يعجُّ بالمحمومين والجرحى، كلٌّ في دنياه. الفصول على اليسار مخصصة للرجال كما يبدو، والأخرى

على اليمين للنساء والأطفال. أنظر إلى ما في فَصلَيِ الرجال، فأراه؛ سليمان، يتوسَّط مجلسًا، يتكلَّم كما يتكَّلم في الجلسات الثقافية التي يقيمها عند رفعت منذ عامين على الأقل. لم أحتَكَّ بسليمان في زياراته السابقة، لكنني أعرف أنَّه أُفعوان معسول الكلام.

(...وكانت الحيَّة أحيلَ جميعِ حيوانات البرية التي عملها الربُّ الإله...)

أخاف الإغواء مرة أخرى... أخشى السقوط مجددًا.

(... لكنني أخاف أنه كما خدعتِ الحيةُ حوَّاءَ بمكرها، هكذا تُفسد أذهانَكم عن البساطة التي في المسيح...)

أمشي إلى نهاية الممر لعلني أجد مكانًا أبيت فيه. يلفتني صوت إنشاد من غرفة صغيرة مكتوب على بابها «المدير». الباب موارب؛ في صدر الغرفة رجل يجمع حوله أطفالًا، يُلقي نشيدًا طفوليًّا ويرددون وراءه. خلف مكتب كبير تجلس شابَّة ومُسِنَّة، يصنعان شطائر بخبز جاف مشقق.

يرفع الرجل رأسه لي ويقول:

- تفضَّل. أنتَ جديد هنا؟

- وصلتُ للتو.

يبتسم لي ويحذرني من إزعاج الأطفال وبكائهم وطلباتهم، لكنه يسمح لي بالمكوث معهم إن كنتُ لن أتضايق من الزحام والضوضاء. اسمه طه؛ معلِّم حساب وعلوم في

المدرسة الابتدائية، والسيدتان تعملان مُشرفتَيْن في المدرسة.

تعطِني سيدة رُبع رغيف وتقول: «بسم الله»، فأُخرِج من حقيبتي علبة فيها جبن من الذي ادخرته لنفسي لزوم مخطط الفرار. يشكرني المعلِّم ويقول: إنهم وَزَّعوا حصصًا للأيتام وأبناء المرضى في رعايته.

- ما اسمك؟

- ميكيل. سوداني.

- أنا من شلاتين. هل أصابتك الحيوانات بجروح؟

- لا.

- ولا أنا.. عظيم.

ونتبادل حديثًا خافتًا عما شهدناه منذ بَدْء الكارثة، حتى أصل في حكايتي إلى ذِكْر سليمان وأبي أحمد في الأوتوبيس، وإصابة الأخير الغريبة، فيقاطعني:

- هل تعرف أن أطفالًا أصيبوا وهم محصَّنون في المدرسة؟ إصابات شبيهة لوصفك لجروح السائق. لا توجد حيوانات مسعورة هنا، نحن متأكدون.

- لا تتسلل الحيوانات الكبيرة على أي حال.

- هذا سلوك غريب عليها.. سلوك بشري.

تتسع عيناي ويدق قلبي حتى أشعر بعنقي ينبض. يفسِّر طه وهو يخفض صوته أكثر:

ART_OF_BOOK

- الحصص التي يوزعونها قليلة، وكلنا لم نأكل جيدًا منذ أيام. مع الإجهاد والرعب وقلة النوم والحزن تَداعَيْنا جميعًا، فيما لم يتداعَ البعض، ولم يظهر عليهم أي جوع أو لهفة على الطعام.

- ماذا تعني. أوضِح...

- أعني أن هذا الوباء قد أصاب الحيوانات، فماذا يمنع إصابة البشر به؟ هل ينتقل من خلال العَض؟

- وكيف انتقل للحيوانات؟ لم تكن أيُّها مصابةً. لقد عرفت هذا من أبَالةٍ صادفتهم لاحقًا.

ويسكت الرجل، ويراقب الأطفال يأكلون، فيما يجلس طفلان في الركن لا يبدو عليها أي جوع أو نظرة فضول.

***

@ART_OF_BOOK

2

حمَّاد الشبلي

للقطعان قائد منهم يتبعونه، وفي القطعان شارد لا يمشي معهم إلا عند الخطر، ووسط القطعان مُنذر يهتاج قبل البلايا ويثير الشؤم، وفي عرف القطعان أن البهيمة المنبوذة هي المريضة الحِمل الثقيل، ووسط القطعان فحول تنكِح.

وأنا القائد الشارد المنذر المنبوذ الفحل.

***

كلما دهنت نفسي بالروث وتمرَّغتُ فيه ابتعد السائرون على قدمين، واقترب السائرون على أربع. لم أكلِّم ذو القدمين فهم لن يفهموا، ويفهم ذي الأربع..

بووووغ..

خُرررر.. خُرررر...

وللتبن طعم طيب برفقة الإبل.

لو اقترب أحد من أهلي، أرفع السَّوط وألهِب الظهور. لو شرد واحد من أهلي أنادي، ألاطِف، فيعود..

خُرررر...

عصا الرعي للبهائم، هذا عُرفي، والبهيمة هي كل ما لا يفقه. وذوي الأربع يفقهون.

شايفه يا فاطنه الوقتِ السجن صغير كِيف؟

ياسر...

في الليل، محاطون بالروث والتبن والمرض، نجلس في زريبة الشيخ نوَّار، عن يميننا ابنته خلف الستار وقد تدهورت حالتها، وعن يسارنا العروس الهاربة، وقد خفَّت الحمى وبدأ وعيها يعود، فراحت تنظر إلينا مذعورة متوسِّلة. يجلس أمامنا رجل الوحدة المحلية الأرمل، وقد رافقنا طوال اليوم، يبحث في أمر خطتنا التي لاقت- والحمد لله- استهجانًا وسخرية تليق بي.

يقول رجل الوحدة المحلية الذي لا يهم منصبه ولا اسمه، بقدر أهمية قميصه الأصفر المشجَّر بالأسود والأخضر:

- لا أقصد أن أقلل من أهمية فكرتك يا باشمهندس. بناء خندق مائي حول بعض مبانٍ من مشروعكم السكني قرب البحر مثل الحصن الذي حكيت لنا عنه فكرة ممتازة، ويبدو أنك تعرف كيف تنفذها جيدًا، لكن لا يمكنني إعطاؤك وقودًا لتشغل الحفارات والمركبات عندك.

فيرد نوَّار:

- لا حاجة للوقود لو آمَن الرجال بالمشروع، وعملوا في حفره بأنفسهم. إن هذه هي الطريقة الوحيدة ليشعروا بأن الأرض أرضهم، لا مجرد عالة ينتظرون الإمدادات. هل تفهم يا بني؟

@ART_OF_BOOK

فأؤيده:

- يحتاج الناس في الأزمات الشديدة إلى مشاريع تُشعرهم بالانتماء. خذ عندك مشروع السد العالي وما فعله مع الناس بعد العدوان الثلاثي والحصار الاقتصادي. جعل الناس يروضون نهرًا عاتيًا، ووعدًا بالمستقبل الذي يتحكمون فيه.

يضحك نوَّار طويلًا، وأفهم ما قد يرمي إليه. إنه ساخط، وحقُّه أن يرى في كل وَعدٍ كذبًا. لو تعرَّف أبي وهذا الرجل لتصادقا فورًا. يقول رجل الوحدة المحلية وهو يهز رأسه ويُرينا فيديو على هاتفه:

- لقد حمَّلت الفيديو من فيس بوك مع عدة فيديوهات أخرى عما يحدث هنا. انظر، هذه كاتبة محبوسة في مرسى حميرة مع آخرين من مصر. إنهم يحتمون في مدرسة، ويبدو أن الوضع آمِن هكذا. مرة أخرى، لا أعارض الفكرة، لكني أقول: إن الاحتماء في المدرسة فكرة جيدة وموفرة.

أمسك هاتفه وأشاهد المرأة الهيستيرية تتكلم عن النهش، بل وتضع هاشتاج بالكلمة نفسها، ويبدو أن الهاشتاج لقي رواجًا، وصار الناس يسمون هذا الوباء رسميًّا: «النهش». كلمة دقيقة حقًّا، ولهذا خلق الله المثقفين... ليتكلموا.

يقول نوَّار:

- لقد أوضحنا لك الفكرة، ولا نحتاج إلى شيء من الحكومة إن كان هذا يقلقك.

- اعذرني يا شيخ، لكن المشروع أيضًا مملوك لجهة أخرى، وعندما تنفرج الأزمة،

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

سيحققون مع الباشمهندس في تبديد العُهدة والآلات وحفر الأرض و... و...

- لن تنفرج.. ولو انفرجت، فلن يعود شيء لسابقه.

- لا أفهم... كيف لن تنفرج؟ كل الأوبئة تنتهي.

- هذا ليس وباء يا بني. ألم تفهم بعدُ؟

ينادي أحد بالخارج، وقد سمعنا صوت اقتراب عدة أشخاص. أفتح بابَ الزريبة الحديدي، فيدخل شابان يحملان ثالثًا مقيَّدًا يضعونه أمامنا. الشابان مصابان بعضَّات متنوعة وطلقات. يرتمي الثلاثة أرضًا، فيما يسأل الشيخ نوَّار:

- أين الباقون؟!

- قُتِلوا يا شيخ نوَّار.. لكن.. لكننا أمسكنا بهذا.. فررنا بمعجزة.

تنظر الفتاة إلى الشاب مُكَمَّم الفم في جزع، وتزحف نحوه وهي تندب بلغتها. أتصوَّر أن هذا هو الشاب الذي تحبه، ومَن تسبب في حَملِها... ومُهَرِّبها أيضًا. يكمل أحد الشابين، والذي يربط ذراعه بخرقة، لكنني لا أفهم ما يقول، فيفسِّر لي رجل الوحدة المحلية:

- يقول: إن هذا الشاب عاد إلى المسكن في المشروع ومعه سيارة شيروكي مع أربعة رجال، لم يجدوا الفتاة طبعًا، فداروا عدة دورات حول القرية يبحثون، ثم تبعهم رجال الشيخ نوَّار بالسيارة محافظين على مسافة آمِنة، لكن يبدو أنها لم تكن آمِنة حقًّا، فقد أكملت الشيروكي طريقها حتى وصلت إلى محطة بحوث الصحراء في جبل علبة،

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

هناك.. وهناك هوجموا..

يترجم رجل الوحدة المحلية ووجهه ممتقِع أكثر مع كل كلمة، فأسأله:

- محطة بحوث الصحراء؟ أكمِل..

- يقول الشاب.. يقول: إن الرجال استولوا على المحطة بالكامل..

- ما مساحة هذه المحطة؟

ينظر لي الرجل بوجه لا أكاد أراه في الظلام، تلمع عيناه وهو يقول:

- أكثر من خمسين فدانًا! تخيَّل أن يكون تحت أيديهم مزارِع ومحطة بحوث ومبانٍ وسيارات وخلايا توليد طاقة شمسية!

يشرد الشيخ نوَّار وهو ينظر إلى الفتاة التي ارتمت بين ذراعَيْ حبيبها المصاب بعضَّات ملتئمة لا حصر لها حتى تشوَّهت خلقته. أسأل الشيخ نوَّار ورجل الوحدة المحليَّة:

- ألم تتواصل محطة البحوث معكم منذ بَدْء الأزمة؟ إن هذه مهمتهم! مهمتهم رصد أي تغيُّر هنا!

يجيب رجل الوحدة المحليَّة:

- تواصلوا كثيرًا منذ أشهر، وكلما أرسلوا قافلة للكشف على القطعان، خبَّأها الرعاة؛ خشية مصادرتها أو إعدامها. لا بد أن العاملين في المحطة عرفوا بأمر المرض قبل

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

الجميع؛ ففيها وحولها آلافُ الحيوانات والطيور!

يغمغم نوَّار:

- يبدو أن أحدهم عرف قبل المحطة، وقبل أي شخص آخر. المحطة لا تغري بأي تأمين على أي حال، وأغلب أرضها محميَّات مفتوحة. قتْل العاملين فيها أمر هيِّن، والوصول إليها لغوثهم شِبه مستحيل إن كان الطريق محميًّا بقطعان كالتي يحكي عنها سالم.

أقول أنا:

- هذا إن كانوا قد استغاثوا أصلًا..

يضيف رجل الوحدة المحلية:

- توقيت كل هذا ذكي لدرجة لا تصدق. كارثة تضرب من كل اتجاه، ولا يمكن حماية كل الأماكن في الوقت نفسه. كَم تحتاج الحكومة لتأمين مداخل ومخارج كل الأماكن الموبوءة، بل وتأمين الحدود كلها؟!

هذا زمن الفوضى المُطلَقة. وحتى دون فوضى، لا يمكن لأحد توقع مناورات بعينها؛ لأنها تحتاج إلى مجانِين جسورِين. أحكي لهم حكاية طريفة مع أن هذا ليس وقتها، لكنها خطرت لي وذكَّرتني بما يحدث.

في سنة 2014 اتجه الأمريكي جيرميا هيتون إلى منطقة بير طويل؛ بين مصر والسودان؛ منطقة مُتنازَع عليها وقتها بين البلدين. دخل الأرض، ورفع علمه، وأعلنها

@ART_OF_BOOK

مملكة لابنته الصغيرة. لماذا؟ لأنه وعدها بأن تكون أميرة حقيقية! غادر بعدها بساعات، ملك وهمي، بلا اعتراف رسمي من أي جهة، وعاد إلى بلده لينشر الأمر إعلاميًّا.

مجنون جسور، أليس كذلك؟

ما فعله المستولون على محطة البحوث الصحراوية ليس اختراعًا، بل المنطِق نفسه، لكنهم لم يغادروا كما فعل الأمريكي الذي كان العبابدة في بير طويل ليجهزوا عليه لو بقي يومًا آخر. الآن يستولي على الأرض مَن يعرفها، ومن يستطيع إبادة مَن يقف أمامه.

هذا زمن ميليشا البهائم المفترسة.

يسأل رجل الوحدة المحليَّة الشاب المخطوف:

- مَن استولى على محطة البحوث؟

يجيب الشاب وغضب السِّباع في عينيه:

- نحن؛ رجال حمَّاد الشبلي.

أتبادل النظرات مع الشيخ نوار، الذي يسأله بدوره بالعربية:

- لقد صار لكم أرض محميَّة، فماذا تريدون منا؟

- لا نريد إلا ما تريدون أنتم؛ زادًا وعلاجًا ومأوًى! ثم إن حمَّاد لا يمنع أحدًا من الذهاب إلى هناك، أنتم تسللتم!

أهتف أنا وقد مَثَل الراعي الصلف أمام عينَيَّ كما رأيته منذ نصف عام:

- صحيح. حمَّاد رجل خلوق، لا يمنع شيئًا عن اللجوء إليه إلا قطعان نهَّاشة بلا عدد!

يضحك الشاب ضحكة مبتورة ساخرة، ثم يقول:

- لا تستفزونا أكثر. دعوني آخذ امرأتي وأرحل.

يقول نوَّار:

- ولو رفضنا؟

- ستَهلكون جميعًا... جميعًا..

- نحن نهلك بالفعل دون استفزاز حمَّاد.

- كلها أيام، وسيخرج منكم مَن يقصدون المحطة، وسنترك لكم المكان بعدها ببحره وسمائه وصحرائه.

- لن يشبع أمثال راعيكم!

- لسنا قطيعَه!

- بل أحَطُّ!

- سيحمي حمَّاد أبناءه.. الشِّبليَّة.

ألاحظ جرحًا أقدم في قدم الفتاة، جرحًا ملتئمًا يشبه جروح الشاب، بل ألاحظ أن جرح يدها تحسَّن بشكل ملحوظ عن الصباح. يقوم الشيخ نوَّار مرتكِزًا على عصاه،

ويأمرني أنا ورجل الوحدة المحلية:

- ساعدا الشابين في نقل هذين إلى الشاحنة، ولنذهب جميعًا إلى دار شيخ البشارية المزعوم هذا. اذهب يا باشمهندس لمحمود الأزهري، واطلب منه جمع الناس. يجب أن يعرف الجميع ما ينتظرنا، وما تقاعَس عن معرفته مَن اختاروه كبيرًا.

***

وفي باحة شيخ البشارية نجتمع. كانت الباحة مسقوفة، وتهدَّم سقفها الآن. الدار مبنيَّة جيدًا، وهي ليست داره لكنه انتقل إليها بعد تولِّيه منصبه. الدار متوسطة الاتساع، ولن تسعنا جميعًا؛ فيقف الناس بالخارج يحملون ما يقيهم هجوم الطيور، فيما بقي بعض الرجال فوق الأسطح وأعلى المئذنة، يراقبون القطعان لينذرونا مِن اقترابها.

أجلس إلى جوار الشيخ نوَّار، وقد صار وجودي منطقيًّا ومقبولًا أخيرًا، وإلى يساري رجل الوحدة المحلية. عن يمين شيخ البشارية يجلس محمود الأزهري ورجلان آخران من المحليين في زي مدني، وعساكر شرطة منهكون، مصابون، لكنهم صامدون بعد هجوم الأبقار الأخير الذي قضى على أغلب مَن في نقطة الشرطة.

على الأرض تتربع الفتاة الحُبلى وعشيقها، وأمامهما عريس الفتاة الحانق الموشك على الموت من شدة انتفاخ شرايين عنقه. خلفه رجلان يحاولان تهدئته. يقول رجل الوحدة المحليَّة نقلًا عن العريس:

- إذًا حمَّاد هذا مَن حاول قتلي؟ ما ذنبي؟ ما ذنب هلاك قطيعي؟!

يرد عشيق العروس:

- لقد حاولنا كثيرًا إثناءك عن الزيجة، لكنَّ أباها طَمِع فيما لديك.

يقول لي رجل الوحدة المحليَّة بعدما كشَّرت العروس عن أنيابها فجأة وضحكت: إن العريس سأل كيف أن حماه لا يعرف بأمر حمل ابنته، فردت الفتاة: إن الرجال لا يعرفون عن عالم النساء شيئًا، وأن أمها كانت تعرف وتؤمن بما تفعل. طبعًا لم يكن الزفاف ليتم رغم كل شيء، فخطة تهريب العروس جاهزة. لماذا لم يهربوها قبل الزفاف؟ يقول رجل الوحدة المحلية: إن أحدًا لم يطرح هذا السؤال، لكن يبدو أن التخطيط احتاج وقتًا، وأن الجَمَل الذي هاجم العريس قبل ليلة العَقد كان المحاولة الأخيرة للتخلص منه.

يسأل نوَّار مرة أخرى على لسان مُترجمي:

- وما قيمة منفَلتة كهذه وشاب عديم الأخلاق عند حمَّاد هذا؟

يرد الشاب وهو يشير إلى قدم الفتاة ذات العضَّة الملتئمة:

- هذا أوَّل أبناء الشبلية الحقيقيين. غيرها كثيرات، لكن هذا أول الأبناء؛ حفيد حمَّاد الشبلي.

آه.. هذه تخاريف مكثَّفة مُعَقَّدة، لا بد أن أولئك الرعاة يدخِّنون روثَ إبِل مجففًا مخلوطًا بعقاقير هلوسة. لكني أفطن إلى أن ما يقول منطقي في سياق الضلالات العامَّة. هذا الفتى ممزَّق بأسنان الحيوانات وقرونها، وهذه فتاة مصابة من قبل، وتُشفى

@ART_OF_BOOK

بسرعة غريبة. زوجان منهوشان سيُنجبان.. أي شيء سينجبان؟

وأنظر إلى كف الشيخ نوّار، وعضّة الجَدْي...

يقيء أحد الموجودين، ثم يفقد الوعي. أسمع أن كثيرًا من الموجودين مرضَى بدرجات متفاوتة، لكنهم لن يفوّتوا جمعًا كهذا. أغطي فمي وأنفي بياقة قميصي، ينظر لي رجل الوحدة المحلية، فأشير إلى المرضى. يُخرج منديلًا قماشيًّا من جيبه ويغطي أنفه وفمه. يلاحظ الأزهري ما فعلنا، وينظر حوله في قلق وهو يُسِر لشيخ البشارية بشيء.

يقول الأخير بالعربيّة:

- إذًا فالشيخ نوّار أرسل شبابًا لتتبُّع آخرين في سيارة شيروكي، ولم يبلغ نقطة الشرطة بأمر الفتاة، ولم يبلغني، ولم يبلغ أهلها ولا عريسها. ضحَّى الشيخ نوّار بأبنائنا هدَرًا.. فعلًا، هو كبيرنا ولا بد أن نطيعه.

يقول قائل من مرتدي الزي المدني، ممكن كانوا معنا يوم اقترحت حفر خندق:

- وماذا فعلتم أنتم؟ كلما اقترح الشيخ نوار وهذا المهندس اقتراحًا رفضتموه. إلى متى سننتظر ونحن لا نعرف عدونا؟ لقد فعل ما في وسعه.

يعترض مُعترض:

- أي خندق وأي كلام فارغ؟ إنهما يتصرفان كأنهما يُريدان إقامة قرية داخل القرية، لا لسبب سوى الرغبة في قيادة الخَلق!

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

فيتجرَّأ آخر من آخر الجمع:

- نعم! ابن أخي مات في الصحراء ولم يستعيدوا جثته حتى! كل هذا؛ لأنه وثق في الشيخ نوَّار! ليته ما عرفه ولا مشى في طريقه!

تعلو صيحات الاعتراض، يتعللون بأننا ميتون بالفعل في بيوتنا، وأن من ماتوا عرَّفونا بأمر حمَّاد الشبلي وَمن معه. يقوم شيخ البشارية ويهتف بصوت كاد يُسقط ما تبقَّى من عريشة السقف فوقنا:

- صمتًا! أنا شيخ البشارية، وقد اخترتموني بأنفسكم، أم نسيتم؟ ستَتفق هذه الحيوانات في يوم، وسيعود كل شيء إلى سابقه. حتى حمَّاد هذا، سيجوع وسيموت من معه، أو سينقلبون عليه. يبدو أنه جمع المجرمين والمطرودين من القبائل والعاطلين، وجمعهم حول نساء بلا شرف. شيء كهذا إلى زوال! أي محاولة لصنع قبيلة داخل قبيلة إلى زوال!

يحاول أحدٌ معارضته، فيقاطعه:

- والد الفتاة بالداخل، سيتسلَّمها ويرحل، وسيُودَع هذا الشاب الحجز في النقطة حتى نقله لشلاتين لاحقًا للتحقيق معه. وحتى تزول الأزمة، احتموا بالمسجد و...

يسود الهرج والتدافع. كلنا غاضبون، مذعورون، جائعون. تتسع ابتسامة الشيخ نوَّار، ويقوم فيمسك يدي، ويدعوني للابتعاد. شيخ البشارية يصرخ، يضربه أحدهم، الشيخ يحوقِل ويطالب الناس بالهدوء. أتسلل خلف الشيخ نوَّار، ويهرع رجل الوحدة المحلية وراءنا. أحاول ألا أصيب أحدًا بحَربتي المرتجلة، حتى أخرج إلى الليل والضباب، لأجد

حواوشي ينتظرني في أدب، يلوك عشبة جافة ثم يبصقها. أنتَ أيضًا جائع يا حواوشي..

نتوقف وقد لفت انتباهنا صرخة نسائيَّة حادة. يسكت الجَمع فجأة، وينشق ليخرج ضخمًا مستعر الغضب، يجر العروس من شعرها جرًّا، يثير الغبار. تتلوَّى الفتاة.. تعوي.. تطلق صوتًا متحشرِجًا وتعض الهواء. يشق محمود الأزهري الصفوف وهو يصيح:

- مهلًا.. صبرًا بالله! يا شيخ..

يضع الرجل الغاضب قدمه فوق صدر الفتاة يثبتها. تتشبَّث بجلبابه وتصرخ، وتخمش ساقه. حبيبها يدفع الناس ويدفعونه، يضربونه بآخر ما تبقى من طاقتهم.. يلف أحدهم ذراعه حول كتفيه، ويمسك بساقيه آخران. يهدد الفتى الجميع، يقول شيئًا عن حمَّاد.. عن الشبليَّة.. عن حبيبته المُختارة.

يتشبَّث الأزهري بذراع الأب، مع ذلك يستَلُّ الأخير خنجره من حزامه، ثم يدفع محمود ويقر بطن ابنته أمام أعين الجميع.

لا يتحرَّك أحد..

الضباب يحجب العالم كله إلا تلك الوجوه الجائعة، الشامتة، المُستسلِمة. يخرج ما في بطن الفتاة إلى التراب المخلوط برماد ما حرقوا من جثث؛ جنين واضح، مقسوم الوجه كأنه حبَّة حمّص..

تنشب الفتاة أسنانها في ساق أبيها، تنزع اللحم عنه ومعه أسنانها نفسها. تنهش مرة أخرى، أرى فكَّها مُعوَجًّا، مخلوعًا، ثم ترتمي على الأرض تنزف حتى الموت. يسقط

@ART_OF_BOOK

الأب إلى جوارها، يصرخ ولا أعرف إن كان يتألَّم أم يستغيث أم ينتشي!

ينكب الأزهري على الفتاة وهو يعرف يقينًا أنها فارقت الحياة. يستعيذ الناس من الشيطان الرجيم، ومن شر ما خرج من بطنها. ينفلت العشيق من أيدي مُقيديه، وفي قفزة واحدة مستحيلة يصل إلى حنجرة الأب ويمزقها. يصرخ الجَمع ويفرون في كل اتجاه. صوت التمزيق والقضم يثير معدتي... حواوشي ينبح، يجذب سروالي، يعوي. الشيخ نوَّار يبتسم بهدوء، يتكئ على ذراعي ويمشي، فأتبعه...

***

ART_OF_BOOK

3

حمَّاد الشبلي

شربت من المسقى ولم تشرب الأبقار. أكلت التبن والعشب الجاف ولم تأكل.

حتى الريح تتغير، تهب من صوب الجبل فلا تحجزها.

حتى الماء يتغيَّر ولا يروي.

وعرفت أن الدنيا لم تعد كما كانت، وأن عودتي بعد الشموس الثلاثة من الموت هو الوعد. وتمر مواسم الجدب والرخاء متتالية، وأكبُر..

ويكبر أهلي، ويتغيَّر منهم القليل، ويظل الكثير على حاله.

ثم تمر المواسم القحط والوفرة متتالية، ويتغيَّر البعض ويظل البعض على حاله.

وهكذا الدنيا تأتي وتروح، ويزروني ذو القدمين يسألونني؛ ماللبهائم يا حمَّاد؟ أقول أنها بخير، والدنيا بخير. كل شيء يتحوَّل، فما بال البهائم تثبُت؟

والعمَل يا حمَّاد؟ تشردنا والخير قل، فأقول أن عندي الخير، والأرض ستكون لنا كما نريد..

فصبرًا..

سِكِّينا! سِكِّينا

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

لإن اللي يروحها لوحده

كان يستفرد بيه الوحش

صوفيَّة...

أقول لميكيل ونحن واقفان على سطح المدرسة أمام مَدفَن نوَّارة:

- أتعرف أن كل إناث الثدييات تموت بوصولها سِنَّ اليأس؟

- لماذا؟

- ربما لأنها استنزفت فرصها في الحياة؟ ربما لأن الدنيا لم تعد في حاجة إليها؟ هذا حُكم الهرمونات...

- لكن النساء يَعِشن طويلاً بعد هذا العُمر. بل يقولون تفكُّهًا: إن النساء لا يَمُتن إلا مقتولات.

- ربما تعيش البشريات بعد سن اليأس، بل تحيا، لكنها لا تعيش. نوَّارة عاشت حتى ما عاد لأبنائها حاجة إليها، فماتت.

يصمت ميكيل مُقَدِّرًا حزني. يعرف ما حدث لإدريس، وأنا أيضًا أعرف، لكني لا أنفَكُ أفكر في نوَّارة وقبرها وما يحدث لها الآن. أتعذَّبين يا نوَّارة؟ لو كنتِ قد اعتدتِ العذاب في الدنيا ما كُنتِ لتعذَّبي في الآخرة. قالت لي جدَّتي هذا، وأكَّدت أن الموت في حد ذاته « تخليص حَق». من تعذَّب كفاية في حياته يدخل الجنَّة، ومن

@ART_OF_BOOK

عاش عيشة هانئة يدخل النار. ظلت أمي تردد الكلام ذاته كلما شكوت لها حياتي مع طليقي، ومماتي في تربية ابني وحدي، فيما تخلَّى عن مساعدتي الجميع. هذا ثمرة خطيئتي، فلأتحمَّلها وحدي إذًا. هل أنجبت ابني وَحدي؟ لماذا لا يتحمَّل أبوه شَطرَ العذاب إذًا؟

لأنه رجل، والرجال يعيشون بعد سن اليأس... لا، ليس للرجال سِن يأس.

ينحني ميكيل ينظر إلى شيء على جانب القبر الخشبي الرملي، ثم يضيء كشَّاف هاتف رفعت الذي أخذه منه، ويقول:

- ما هذا الدم؟

الدم مرة أخرى؟! لماذا لم أشمَّه هذه المرَّة؟ ربما لأني أدهن وجهي بالدم كلما جف؟ يقول الناس هنا: إنني جُننت، وهو أمر طالما أكَّدته تعليقات الفيسبوك منذ زَمَن.

إلى جوار القبر بقعة داكنة، يقول ميكيل: إنها نتِنة الرائحة، بل لها قَوام سميك.

- هل هي سوائل من.. الجثة؟

- لا.. ربما هي أشلاء سقطت من طائر يطير بفريسته.

ثم يضيء الكشاف بقعة أخرى أقل وضوحًا، تبدو كأنها لطخة أو أثر حذاء. السطح المترب من العاصفة مبرقش بآثار أحذية متعددة، قديمة وحديثة. هذا الأثر حديث نوعًا..

- أعطني الهاتف لحظة؟

أضيء جانب المَدفن مجددًا، ويخيَّل لي أن الرمل تحت الأخشاب ملوث، وطرفًا من أطراف القماش الذي لففنا به نوَّارة يبرز من تحتها. آه.. لقد قامت نوَّارة إذًا؟ قامت لتخبرني بما وجدت في الآخرة لعلِّي أتَّعِظ، لكنني كنت مشغولة مع ميكيل، ومع المُعَلِّم الذي تعرَّف عليه منذ ساعات. آسفة يا نوَّارة. المرة القادمة سأنتظرك.. سأنتبِه إلى النُذُر لو جاءتني مرَّة أخرى.

- ماذا وجدتِ؟

- شيء بيني وبينها.

يأخذ مني الهاتف، ثم يعاود الحديث الذي قطعه استطرادي عن الثدييات:

- الأطفال مع طه مذعورون. كل هذا الخراب والموت يقتلهم.

أحدِّق إلى قبر نوَّارة ولا أرُد.

- يخشى ألا يكون قادرًا على حمايتهم، خاصة لو صَح ما قيل عن تسلل فئران إلى هنا. لمَ أرَ فأرًا حتى الآن. لا يترك الفأر جثثًا في كل مكان ليعض مستخدمي الحمَّام دونًا عن غيرهم.

وددت لو أخبره أنها- الفئران- تعض الأبرياء فقط. كان في الحمَّام زانيان، ولم يمسَّهما سوء.

- غريبة، أليس كذلك؟ هل تسمعينني؟

- نعم.

- أقول: إن الأمر غريب. أين هي هذه الفئران؟ طه يشُك أيضًا.

- فيمَ يشُك؟

- يشُك في أن الفاعل ليس فئرانًا مسعورة.

- لا أفهم.

- الرجل من المحليين، ويعرف أكثر مني ومنكِ. يعرف الأهالي ويعرف الأطفال، وهو يسمع كل يوم حكاياتهم التي يضخمها الخيال، لكنها لا تخلو من أساس. يحكي الأطفال عن الذي عضَّتهم الحيوانات وشُفُوا سريعًا، ويسألون عن سبب موت ذويهم مع أنهم عُضُّوا أيضًا.

- ربما يحدد مكان العضَّة الموت أو الشفاء.

ربما يفصل النَّهش بين الصالِح والطالِح.

- هذا صحيح. لكن كيف لا تتدهور حالة العضَّات في غير المواضع القاتلة؟ لقد رأيت سارة، ورأيتُ كيف شُفي جرح عينها وإن لم تعد العين نفسها طبعًا. ورأيتُ.. رأيتُ سليمان وإن لم يركّي بعد.

لو كنت هنا وقت عادت نوَّارة لفهمت منها الحقيقة. أقول له:

- لن تصدق أن هذا الوباء يقتل الصالحين فقط، أليس كذلك؟ لا يصدقني أحد

سوى حسَنَة ونسوة أخريات. لا يرى الرجال ما نراه، ولن يروله.

- هذا وباء كما قلتِ، لا لعنة دينية.

- النهش لعنة دينية، مثله كمثل عقاب آل فرعون.

- النَّهْش؟

- محصولك اللغوي تحسَّن كثيرًا، وتتعجب من كلمة النَّهش؟

- لم يكن متدهورًا حتى يتحسَّن، كنت فقط أخفيه كي لا أضطر للكلام. أنا فقط فوجئت بدقَّة الكلمة.

- لقد قرأت تعليقات الناس على البث على فيسبوك، أليس كذلك؟ يوم صوَّرتني.

يصمت ميكيل، وأعرف أنه تخلَّى عنا؛ لأنه عرف حقيقتي، وعرف حقيقة سارة ونوَّارة. لعله سمع رفعت وهو يسبنا قبل فرارنا، فقرر النجاة بنفسه من الغانيات، لكن ها هو يعود مجبرًا.

يحكي ميكيل وهو يرمق الضباب عن ذكرياته مع قداسات أسبوع الآلام، وعن سِفر الرؤيا. أعرف سِفر الرؤيا، خاصة بما فيه من مادة روائية غنيَّة؛ الفرسان الأربعة، فرسان الحرب والمجاعة والموت والوباء.

- لا أرى ما يحدث عقابًا، مع أنني أكثر مَن يستحق العقاب، بكل الأرواح المعلَّقة في عنقي وفي خنوعي، ولا أرى في الآيات نبوءة النهاية. إنها سيرة العالَم منذ اخترنا المعرفةَ بلا طاعة، والقوةَ بلا مسؤولية. حرب، جوع، وباء موت، ثم حرب وجوع

- ألا يعني هذا عقابًا مستمرًّا؟!

- بل كل هذا نِتاج الانفصال عن الرب منذ الخطيئة الأولى.

- لا معنى للألم سوى العقاب.

- اعتبريه عقابًا إذًا وتحمَّليه في شجاعة، ولا تسلمي له.

ثم يقطع حديثنا بغتة، ويقول وهو يضيء اللطخة على الأرض:

- هل صعد سليمان إلى هنا معكِ؟

- لا.

- هل يمكن أن يكون قد صعد لاحقًا؟

- فيمَ تفكِّر؟

- هذا الأثر.. هذا أثر صندل سليمان. أعرفه جيدًا؛ لأن اللطخة الدامية يوم عقره النورس ظلَّت على أرضية المعسكر.

أتذكَّر هذه اللطخة جيدًا، ورقم 45 المقلوب في وسطها. أرى شيئًا من مقاس صندله على اللطخة أمامنا، وألاحظ تكرار الطَّبعَة حتى باب السطح؛ حيث اختفت. إن كان سليمان قد صعد ليزور قبر نوارة- وهي زيارة بلا أي سبب؛ الرجل كان يمقتها- فلماذا تلوث صندله بالدم؟

يهمس ميكيل:

- لو صحَّت شكوك طه، فالوباء يصيب البشر الآن يا صوفيَّة. إن بيننا نهَّاشون، وأوَّلهم سليمان.

أتذكَّر ما حكاه عن إصابة أبي أحمد، وقد رأيتها بنفسي. إن السائق ظل يحذر منقذيه في الأتوبيس من الصوت، وقد ابتعد عن سليمان قدر استطاعته. هل كان يحذرهم أبو أحمد من هجوم القطيع أم من إيقاظ سليمان؟ يوافقني ميكيل، ويطلب مني الابتعاد ريثما يفعل أمرًا مَقِيتًا؛ ينبش قبر نوَّارة.

***

أعود إلى فصل النساء، فلا أجد حقيبتَيْ ميكيل اللتين كانتا معنا، ولا أجد حَسَنة ولا النساء رفيقاتنا. أسأل سارة عن مكانهن وعمَّن أخذ الحقيبتَيْن، فتنظر لي بعينين محمرتين، وتجيب بوجه محمر وعين جاحظة غضبًا:

- أينَ كنتِ؟ لم يعُد رامي، وعاد مَن خرجوا معه!

- عادوا؟ هل أخذوا الوقود؟

- كيف لي أن أعرف! اذهبي واسأليهم! أليسوا أصدقاءك! إنهم يرفضون الحديث معي. سليمان على حق، إنهم أوباش جَهَلة وأنتِ صرِت مثلهم!

- أنا؟

- المفترض أنك كاتبة ومنفتِحة، وها أنت تولولين ليل نهار على ذنوبنا وما اقترفناه،

كيف نستحق السلخ والحرق! وماذا تفعلين؟ لا شيء! لو رغبوا في إلقاء أضحيات بشرية للحيوانات ستطوعين فورًا! أنت تعشقين الألم وتمقتين الحياة مثلهم. كل هذا ليتعاطف الناس معكِ؟

ثم تقلِّدني مضيفة:

- أنا مطلَّقة، أنا أعاني، أنا أم متوحِّد، لا تنهشوني! أنت تمنحينهم كل أسباب النهش! كلنا نعاني مثلك وأكثر، لكنك تأبين إلا أن يدور العالم حولك. نحن نموت؛ لأن الست صوفيَّة ارتكبت ذنبًا ما! أفيقي! انظري إلى منظرك! روث ودم وقرف!

وتهم بالانصراف، لكنها تتوقف عند الباب، وتبتسم لي ابتسامة مرعبة وهي تقول:

- و... أين كُنتِ؟ آه.. لقد عاد الفتى الأسمر، وعادت التمشية على البحر...

- إيَّاكِ..

- ابتعدي عنا يا صوفيَّة.. أنت مختلَّة. لقد خدع أصدقاؤك رامي وعادوا دونه.

حكى لي ميكيل ما حدث هناك. إنهم لم يخدعوه؛ هم فقط ظنُّوا أن ميكيل مَن خدع رامي لينفرد بالمعسكر. أقول لها ما عرفت، فتضحك وتقول:

- يا لِقلبه الطيب! تركه وفرَّ مرة أخرى، مما يثبت براءته من الخدعة الأولى.

- ماذا كان سيفعل وهو وحده؟

- كان لينتظر معه على الأقل يا صوفيَّة، لكنه ترك الجميع وفرَّ. لن تَركِي العالم إلا من

ART_OF_BOOK

خلال نظارتك أنتِ.

وتخرج سارة، وتتركني مع أربع نساء لا أعرفهن، يخبئن أطفالهن في صدورهن، وينظرن لي في جزع. أخرج؛ بحثًا حسنة حتى أجدها في الفناء مع سيدة أخرى، ورجال ممن ذهبوا مع رامي، على الأرض يرقد أبو عمَّار، يَغسِلون جروحه. تحكي لي حسنة ما حدث، ثم تنهي كلامها:

- سنرحل من هنا في أقرب وقت.

- إلى أين؟

ينظر لها الرجل نظرة تمنعها عن الكلام، فتقول المرأة الأخرى:

- إنها امرأة يا راشد، امرأة ذاقت ما ذقنا. ألم تقل: إن حمَّاد سيقبل الجميع؟

- سيقبلنا يا أم فاطمة، سيقبل أبناءه. هذه مصراوية.

- لكنها..

- انتهى الكلام. اجلسي هنا يا أم عمَّار واعتني بزوجك، سنخرج مرة أخرى لجلب باقي الأشياء. لن نتأخَّر.

أي أشياء؟ أسأل حسَنَة بعد رحيله عما يقصد، فتجيب مترددة وهي تنظر إلى وجه زوجها المشوَّه:

- سيجلبون كل ما في المعسكر. يقولون: إن هناك مكيِّفَ هواء ومولِّد وخزانات

@ART_OF_BOOK

ثلاجة وأشياء كثيرة.

- ورامي والآخرون؟

- أكيد سيتركونهم لحال سبيلهم.

- فيمَ تحتاجون كل هذه الأشياء إن كنتم ستذهبون إلى حمَّاد؟

تنظر إلى زوجها مرة أخرى وتسكت، فتقول المرأة الأخرى:

- حَسَنة.. لقد قلت لك: إن قلبي غير مرتاح. حمَّاد لن يأخذ عنده إلا من لديه ما يعطِيه له، أليس كذلك؟ إنهم يريدون هذه الأشياء من البداية وخدعوا الرجل المصراوي. إنهم يعرفون أن عليهم دفع ثمن الدخول.

ترد حسَنة في غير اقتناع:

- حتى إن كان الأمر كذلك.. ما المشكلة؟

- لقد قيل لنا: إنه سيأخذ عنده المحتاجين كلهم! كل مَن سينجو من القطعان! صفيَّة ناجية، وراشد يرفض أخذها معنا. ابنها مات ولم يعد لها أحد! الكل يخدعنا كأننا.. كأننا غنم يقودونها إلى حيث يريدون وليس لها أن تسأل! لقد شبعنا وعودًا!

تمسك المرأة -التي لا أتذكر اسمها للأسف- يدي وتأمرني:

- ستذهبين إلى حمَّاد معنا. أي شخص يريد الذهاب إلى حمَّاد سيذهب، وسنعرف هناك الحقيقة.

ART_OF_BOOK

أَلِهذا قبِل أبو عمَّار استضافتنا؟ طمعًا فيما معنا؟ هل كان يبحث عن قربان يقدمه لحمَّاد ونزلنا نحن عليه من السماء؟ أرتجف..

أصعد الدرج خلف المرأة..

أين نوَّارة الآن؟ هل شعرت بجثتها تُنهَش؟ حكت لي جدتي عن الشجاع الأقرع الذي ينهش جثث الموتى العُصاة في قبورهم.. ثعبان عظيم.. نعم.. لقد التهم الشجاع الأقرع نوَّارة، وهذا دليل على أن العذابَ لا ينتهي بالموت...

***

@ART_OF_BOOK

4

حمَّاد الشبلي

والأرض تمدد تحت أهلي، من ذوي الأربع والاثنين. يقولون أنني بعد موتي ومدت شِبلًا وربَّتني الأنعام، ثم صِرت سَبعًا وربيتها.

منبوذون نحن خارج أرض الأغيار، منبوذون في الجبال وما أسعدنا، فنحن في انتظار الوعد.

سِكَينا! صبرًا!

تغيَّر أغلب الأهل ولم يعودوا يرغبوا في السيال والسَّمر والكلأ، ولا الخبز واللبن. ومات ما تبقَّى. تزاوج النسل الجديد، ومات منهم من مات، وولد من ولد..

مواسم تمر والأهل يتزايدون في الجبال، ويقول الأهل من ذوي القدمين أن في القرى مثلهم. كل موسم تظهر واحدة أو اثنتين.

حتى ولِدت العلامة، ناقة بيضاء. وُلِدَت من ناقة وجمل لا يأكلان إلا الدَّم.

وفي الموسم نفسه، لم يعد من قطعان الأغيار قطيعًا إلا وقد تغيَّر أغلبه. كانوا يقتلون ما يتغيَّر، ولا يؤلم قلب الشبلي إلا قتل الأهل.

***

يقولون أن الدنيا كلها تغيَّرت، وأقول أنها عادت إلى أصلها.

في قبيلتي وعشيرتي نحن والصحراء واحد، نحن والجبال واحد، أنا وأهلي واحد.

نحن القادة الذين لجأ لهم الناس في النهاية.

نحن النذراء الذين كذبوهم.

نحن المنبوذون الذي اضطروا إليهم بعدما نُبِذوا.

نحن الشاردون الذين رأوا وقت العمى.

نحن الفحول البيضاء التي سترث ذريتها الأرض.

@ART_OF_BOOK

كان الناس يطلعوا للغابة يصيدوا يا فاطنه مع بعض ياسر...

الشوكة المغروسة في حلقي منذ انتهمت السمكة المشوية على عجالة حتى الحفَّار لا تريد أن تتحرك. اختلست السمكة من المِشواة فيما لا يلاحظ أحد. وركلت حواوشي مرَّة إذ كاد يفضحني، لكنني ألقيت له بالرأس ليسكت، فلم يأكلها.

أعتقد أن حواوشي مريض.

لم تمنعني الشوكة من التهام خمس سمكات أخرى، لكنها تُنكِّد عليَّ الرضا بالعشوة الطيبة. نتكدَّس في المسكن خبيث الرائحة حيث كانت عروس السماء تختبئ صباحًا. وأرسم لهم على ورقة كبيرة تتوسطنا ما أفكر في بنائه.

- هذا المباني الخمسة هي الأقرب للبحر، وستكفي كل مَن في القرية الآن، بافتراض أنهم سيأتون للعيش هنا.

يعارضني رجل الوحدة:

- لا أعتقد. بل إن عددًا منهم يرحل بالفعل. نقلوا ما تبقى من وقود في القرية إلى شاحنتين فقط، وسيرحلون.

- بألف داهية. معنا من الرجال -القادرين على العمل- سبعة وعشرون. أعتقد أن المزيد سينضمون إلينا بعد هضم ما حدث عند شيخ البشارية الليلة. سنحفر خندقًا بعرض خمسة أمتار، وعمق ثلاثة أمتار تقريبًا.

يسأل أحد الصيادين:

- ماذا لو تكوَّمت الجِيَف في الخندق وعبرت القطعان من فوقها؟

- لن تعبر؛ لأننا سنخلع أسقف مساكن العمال الصفيحية، ونثبتها مائلة على امتداد هذه الجهة... من الجنوب. ستتناوب الحراسة، وسنستفز القطعان لتهاجم من الجنوب فقط؛ حيث لن تستطيع اعتلاء السور المائل.

- ماذا لو لفَّت من نهايته؟

- لن تفعل. هذه القطعان تتبع قائدها. تسير في خطوط مستقيمة. لو عثرت على جيف أو جثث ستلتهمها ولن تهاجمنا. لو قتلنا منها بهيمة أو اثنتين ستُشغل بها عنا.

يسأل رجل الوحدة المحلية:

- وما أهميَّة الخندق إن كان هذا السور يمنعها؟

يجيب نوَّار:

- لن يُحفَر الخندق في يوم وليلة، والسور سيساعدنا حتى ننهي الحفر، أما الخندق فهو ليس للبهائم على حد تعبير أخينا المهندس، بل للمعتدين.

أضيف أنا:

- ما الشيء الذي يبلغ طوله هنا خمسة أمتار، ويتحمَّل عبور سيارات المعتدين؟ لا شيء تقريبًا. لو عبروا فُرادى بطريقة ما مستبعدة، لن يعبروا بأعداد تعجزنا عن

يسأل واحد من عُمَّالي:

- لكن يا باشمهندس، الشاب عض والد الفتاة كأنه ذئب! ماذا لو أن رجال حمَّاد مسعورين مثله؟

يجيب نوَّار:

- أنتَ قلتها؛ رجال. مثلي ومثلك. سنتصدى لهم رجلًا لرجل. هذه أرضنا، ولا سبيل للدفاع عنها إلا هذا.

أكمل أنا شرحي:

- سنحتاج إلى نقل الطوب من البيوت المهدَّمة التي هاجمتها القطعان لتبطين الخندق ومنع انهياره في أثناء الحفر. سنحفر يدويًّا، وهذا يعني أن للبحث عن وقود لتشغيل الآلات أولويَّة. إن فيها وقودًا، لكنه لن يكفي للعمل إلا يومين أو ثلاثة على الأكثر. هل من أسئلة؟

يقول الشيخ نوَّار:

- سأستقبل أنا الوافدين، وإن وجدت أن العدد سيزيد عن قدرتنا على توفير الطعام والماء من الضباب، سأختار من يستطيع مساعدتنا بنفسه. ليس في هذه القرية عالة.

هنا يسأل صيَّاد:

@ART_OF_BOOK

- ماذا عن الأطفال والنساء والشيوخ والمرضى؟

- نحن قرية وليدة يا بني. سنجد عملًا لأغلب من ذكرتهم، لكن الأمر لا يحتمل هَدرًا لما لدينا، وهو قليل. أي عاطل سيحرِّض بجلوسه دون عمل على الإضراب والتكاسل. أي مريض قد ينقل لنا مرضه ونحن بلا دواء.

يسأل رجل الوحدة المحليَّة:

- ماذا عن ابنتك المريضة يا شيخ نوَّار؟

ينظر له الشيخ ولا يعلِّق. نظرته طويلة غامضة أرهبتني. يتكلَّم نوَّار أخيرًا فيما بدا كسياق آخر للحديث، لكني أعرف أنه السياق ذاته بشكل ما:

- رجال حماد سيهاجمون غدًا أو بعد غد على أقصى تقدير. ما حدث مع الشابين اليوم لن يمر على خير، ليس لقيمتهما كما أوهموهما، بل لتعريف الناس بحمَّاد وبغضبته وبعاقِبه مَن..

دق الباب، وسمعت نداءً من الخارج. صوت محمود الأزهري:

- يا أهل الله...

يفتح له عامِلٌ، فيدخل. ملابسه متسخة بدم الفتاة، وقامته منحنية كأنه شاخ خلال الساعات الماضية. يتربَّع بالقرب مني، فأطوي الورقة الكبيرة بسرعة. يقول:

- الطاعون ينتشر...

يرد الشيخ نوَّار بهزَّة رأسه بطيئة بمعنى: أعرف. يقول الأزهري: إن شيخ البشارية قد أصيب في أثناء الشجار، وأن القرية خرجت عن السيطرة. البعض يفر، البعض ينهار، البعض يقتل...

- ما يقلقني يا جماعة أن.. أن الناس لم تعد تطالب بالطعام. مِمَّ يأكلون؟!

أسأله إن كان الجميع يرفضون الطعام، وأقول له: إننا أكلنا ولا زلنا جائعين، فيجيب:

- ليس الجميع قطعًا.. الأغلبية. و... أنا لم آكل منذ ثلاثة أيام. لم ألاحظ هذا صدقًا إلا الآن!

ننظر إلى الشيخ نوَّار، فيقول: إنَّه أكل، ويمد لنا يديه لنشمَّها. لقد أكلنا في الظلام، لكن لماذا نظرنا له جميعًا لو أن أحدًا منا رآه يأكل. يسأل رجل الوحدة المحلية:

- وماذا يعني هذا العَرَض؟

فيجيب محمود:

- لا أعرف.. لقد.. لقد بدأت أعراض الحيوانات برفض الطعام، ثم الميل للحوم، ثم..

أكمل أنا وقد راق لي تعبير الكاتبة:

- ثم النهش. هل عضَّك حيوان منها؟

- لا! كثير من الناجين لم يُصابوا.

- ماذا عمَّن أصيبوا؟

- شُفِي كثير منهم بالتطهير والمضادات الحيوية، ثم اختفوا.

- اختفوا؟

- نعم. ليسوا هنا.

أسأله عن تعداد القرية التقريبي الآن، فيقول: إنه لن يتبقى أكثر من خمسمائة شخص مع رحيل مَن يخططون للرحيل. خمسمائة من أصل خمسة آلاف. لو مات نصفهم لأسباب متنوعة؛ ومكث خمسمائة؛ فلدينا ألفان قد اختفوا أو رحلوا؛ ولن يرحل أحد من هنا إلا إلى وجهة أكثر أمنًا. كيف سيوفر حمَّاد مكانًا لكل من يعرفون بشأنه، ناهيك بمَن معه من الأساس؟

يسأل الأزهري في حيرة عما سنفعل، فيجيب نوَّار بأننا سنتحصن هنا. يعرض محمود المشاركة بجمع الناس، فأسأله عن سبب تغيير ولائه فجأة.

- ولائي؟ لم أكن مواليًا لأحد. آه.. فهمت.. البعض يعتبرونني عينًا للحكومة، ولا يثقون بي إلا فيما يخص الدين. أريد قول شيء مهم، وافهموه كما تريدون: ما أهمية ما كُناه اليوم؟ أنت مهندس، أنت عامل، أنت صيَّاد... هذا ما تبقَّى منا. ستر الله هو ما يجعلنا ننظر إلى بعضنا البعض دون أن نتقيَّأ اشمئزازًا.

معك حق يا أخ محمود. أفهمك. على أي حال، مَن مِنا بلا خطيئة فلينهشه.

***

الصباح التالي لم يكن صباحًا عاديًّا، بل هلوسة جماعيَّة جاهدتُ للخروج منها دون جدوى.

كنا قد بدأنا يومنا مبكرًا، وخرج مَن معنا لجَمع الطوب الأبيض وفك أسقف مساكن العُمَّال، فيما صعد محمود الأزهري منبر المسجد، وجمع الناس للتعاون في بناء الحصن؛ حصن أبي رماد كما سمَّاه.

مع أن التحول في مجرى الأمور مبشر، لكنه يعني أن الناس قد يئسوا، وأن الحياة لن تعود لما عهدنا.. لذا، سنبني.. سنحفر.. سننشئ ما يناسب بعثنا.

جلس الشيخ نوَّار على الكرسي البلاستيكي إيَّاه أمام موقع البناء، وتوافد عليه الناس ليسألوا أكثر مما لينضموا إلينا. لا زال الأهالي يخشون السُلطة الرسمية، ويخشون التضحية بأنفسهم وأبنائهم في مواجهة أسطورة شُيِّدَت في الليل؛ أسطورة الشِّبليَّة والجنين المشوَّه، والرجال الذين لا يموتون بالعض ولا هجوم الدواب.

أجمع الماء المتكاثف من الضباب داخل الحُفَر المبطَّنة بالأكياس، وأسمع ما يدور بين الشيخ والأهالي. أفهم السياق العام وأميِّز التفاصيل دون مُتَرجمي الذي ذهب ليجمع مَن يعرف أنهم يحتاجون إلى مأوى.

تأتي مجموعة نساء بطعام وخبز، يقدِّمنَه للشيخ نوَّار ويرجونه أن يقبلهن بيننا. يطلب منهن الكشف عن سيقانهن وأذرعهن وأعناقهن ليتأكَّد من صحَّتهن، فيجد أغلبهن مصابات إما بعضَّات أو بعُقَد متورِّمة. تلطم النساء وترجونه أن يقبل الأطفال، فيرفض. يقبِّلن يديه، فيقوم ويدخل إلى المسكن ويتربَّع هناك. أدخل إليه، أسأله عمَّا سيفعل لو

انقلب الناس علينا بسبب رفضه، فيجيب:

- لن ينقلب الجميع. لا يهمني أن أكون محبوبًا، فالناس قد يُتبعون مَن يحبون في السرَّاء، لكنهم حتمًا سيتبعون الموقن بقراره في الضرَّاء.

لقد رأيت كيف انقلبوا على شيخ البشارية في لحظة، فقط لأن قراراته لا تصدر منه، ولا تصدر عن يقين. أسأله عن ابنته، فيقول: إنها ماتت.

- متى؟

- وجدتها ميتة في الصباح.

- متى ذهبتَ إليها؟

- فجرًا.

- ألن تأكل يا شيخ نوَّار؟

وأنظر إلى حواوشي النشيط الذي لم يقترب من الطعام ولا من بقاياه التى تركناها ليلًا.

- أكلت يا بُني.

- هل تثق بي يا شيخ نوَّار؟

- طبعًا. وإلا ما صرتَ ذراعي اليمنى.

- هل أنتَ مصاب بهذا الوباء الجديد؟ قبل أن تُجيب، يجب أن تعرف أنني أثِق

بك، وأعرف أنه لا ذنب لأي مصاب في إصابته، لكن علينا الاحتراز ومراقبة تطور الحالة.

- أنا بخير. صدقني. هل تراني أعقر المعارضين؟ هل هاجمت شيخ البشارية رغم استفزازه وإهانته لي؟

صحيح.. لكنه حرَّض على عَقره، إلا أن هذا لا يعني شيئًا سوى أنه شخص ماكِر يعرف ما يفعل... والناس تتبع مَن يعرفون ما يفعلون.

أخرج لمتابعة العَمل، فأرى الجميع ينظرون إلى نهاية الطريق؛ حيث مدخل القرية من جهة البحر. حتى النساء المولولات توقفن عن النَّدب وتعلَّقت أبصارهن بالآتي من بعيد ومن خلفه شاحنات وسيارات دفع رباعي. الضباب ينقشع ببطء، ويخفي وراءه ما أراه كأنه ملاك فائق الطول، يتحرَّك ببطء تجاهنا ولا تسبقه السيارات.

- شيخ نوَّار! شيخ نوَّار! أسرِع!

وينشق الضباب رويدًا، وأميِّز بعيرًا شديد البياض، يعتليه رجل ذو جلباب أبيض مفتوح الصدر، ملطَّخ ببقع بُنيَّة قد تكون دمًا أو رَوَثًا، وشعر منفوش متشابك كأغصان السيَّال.

حمَّاد الشِّبلي.

يتوقَّف الجميع عند بداية القرية، بحيث نراهم هنا ويراهم الأهالي. يترجَّل ثلاثة من سيارة دفع رباعي عتيقة، ويهرعون نحونا، نحو الشيخ نوَّار الواقف أمامي وبيننا حواوشي يعوي.

@ART_OF_BOOK

الرجال يَدهنون أجسادهم بشيء خبيث الرائحة، كأنهم خراتيت خارجة لتوها من حمَّام طين. يتكلَّمون، فألاحظ أسنانهم مبرودة الأطراف، وفكوكهم القويَّة.

- هيا معنا يا شيخ نوَّار.

- إلى أين؟

- الشيخ حمَّاد يريد محادثتك.

- فليأتِ إلى هنا ويحادثني. لقد أتى معكم كما أرى.

- هو هنا لأجل الناس، ليفي بوعده بجمعهم بنفسه.

تسأل امرأة من النادِبات:

- هل يقبل بنا؟

- الشيخ حمَّاد يقبَل الجميع.

فتقوم النسوة مهرولات تجاه القرية. يجدد الرجل مبرودُ الأسنان أمره للشيخ نوَّار، فيرد الأخير بأنَّه لا يؤمَر، ومن يُرِدْه يأتِ إليه.

أرى محمود الأزهري يأتي مهرولًا من قلب القرية، ثم يتوقَّف بيننا وبين جماعة حمَّاد ويهتف بصوت مبحوح من كثرة النداء طوال الأيام الماضية:

- أيها الناس، أنتم تعرفون شيخ البشارية وتعرفون الشيخ نوَّار، ولا تعرفون هذا الرجل. اختاروا مَن تتبعون من شيوخكم.. لقد رأيتم أتباعه وعرفتم ما فعلوه بنا. لقد حرمونا من

يقاطعه نوَّار:

- بل حرمونا من حقوقنا. ما أرسلته الحكومة ليست معونات، وكنا سندفع ثمنها كأي شخص آخر على هذه الأرض. لقد سلبونا بيوتنا التي كانت تغطي عوراتنا بالكاد. سلبونا عيالنا وحلالنا.

يهتف هاتف من جهة حمَّاد:

- بل حمونا من قتل بعضنا عليها. بماذا كنا سنشتريها يا شيخ نوَّار؟! من أين لنا بالمال؟ إن الرجل يحفظها لنا، وسنذهب معه.

يرد نوَّار وهو يقترب من جهة حمَّاد ببطء:

- لنفترض أن ما تقولونه صحيح.. لماذا إذًا أطلق علينا قطعانه؟

يجيب مُجيب:

- مَن قال: إنها قطعانه؟ القطعان تهاجم الجميع في كل مكان.

يسأل نوَّار وهو يضيق عينيه:

- من أين جاءت القطعان؟ إن ما يهاجمنا هنا قطعان غير مختومة، فيما قطعان الرعاة هنا تحمل أختامَ أصحابها.

- لو كانت قطعان حمَّاد لختمها!

@ART_OF_BOOK

يزعق نوَّار بأعلى صوته:

- انزل يا حمَّاد عن ركوبتكَ وكلِّمني أمام الناس.

يهم الرجل ذو الأسنان الحادة بإمساك نوَّار، لولا يتحرَّك الراكِب الأسود ويترَّجل ببطء، ويقترب منا ممسكًا بسَوط طويل.

حمَّاد كُتلة عضلات داكنة، ليس ضخمًا بل أميَل إلى النحافة، ليس طويلًا بل أميل إلى القصر، ليس مريحًا بل أميَل إلى الفظاظة. ينظر لي للحظات، ثم ينظر إلى نوَّار ويتوقف، بيننا وبينه مترين تقريبًا. يسأله نوَّار:

- ماذا تريد مني؟

- إتي أني.

لا أفهم ما قاله. يطلب منه نوَّار التحدث بلغة يفهمها الجميع، فيكرر في صرامة وبصوت لم يعتد الحديث:

- إتي.. إسَّا.

- ماذا يقول؟

يجيب رجله الفَظ:

- يأمرك بالذهاب معه.

يحدق الرجلان في بعضهما، يدور نوَّار حوله ببطء، ويدور حمَّاد حول نفسه ببرود.

يقول نوَّار وعيناه تلمعان بانعكاس ضوء الشمس فيهما:

- أنتَ دجَّال.. ارحل مع أتباعك واترك أرضنا. أقسم لك، لو اقتربت من طعامنا ووقودنا مرة أخرى سأذبحك.

يجرِّد نوَّار خنجره من غمده، ويزعق:

- ارحل!

تخرج الكلمة أقرب إلى زئير، فيضرب حمَّاد الأرض بالسَّوط دون أن تتحرك من وجهه عضلة واحدة. يهمس نوَّار ويقترب خطوة وهو يرفع الخنجر. ذئب مُسِن يدافع عن منطقة نفوذه. يضرب حمَّاد الأرض أقرب لقدم الشيخ، ويتعمَّد ألا يصيبه، ثم يأمره:

- سُك!

هذه كلمة مألوفة.. كلمة سمعتها هنا تُقال للحيوانات المهتاجة. أقول أخيرًا:

- اتركه يا شيخ نوَّار. تعالَ هنا، لو كان يريد أخذك بالغضب لأخذك.

- صمتًا!

ثم يقول لحمَّاد وهو يقترب أكثر، يَثنِي ركبتيه المُسِنتَين ويدور حوله:

- أنتَ مَن أخذت قطيع أبي وأذللتنا..

لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، فحمَّاد في الأربعينيات على أقصى تقدير. يقترب نوَّار فجأة ويجرح ذراع حمَّاد التي تحمل السَّوط، فيجفُل لرُبع ثانية، ثم يلف سوطه

على ذراع الشيخ فيُسقِطه أرضًا. يعوي الشيخ، يركض على أربع وهو متمسِّك بالخنجر، يتراجع حمَّاد ويسحب السوط ويضرب مرَّة أخرى.

لم يعد نوَّار يتكلَّم، بل يزأر ويعوي ويخمش. لا يتحرَّك أحد، لا يتنفَّس أحد. يلف حمَّاد السَّوط حول عنق نوَّار ويجذب، ثم يرفعه من ملابسه ويهتف بصوت نسمعه جميعًا:

- وَلَد أني.. إسَّا أني يَك!

يصيح ذو الأسنان المدببة:

- لأجل وَلَدي الشِّبليَّة! لكي لا يجرؤ أحد على المساس بأهلنا!

يطبق نوَّار فكيه على ذراع حمَّاد، لكن الرجل بلا أسنان تقريبًا، يسحبه حمَّاد ويعود بيطء إلى حيوانه الأبيض. يهرع رجاله ليحملوا نوَّار إلى سيارتهم، وتتحرك القافلة عائدة إلى حيث أتت، يتبعها الأهالي حاملين ما يملكون على ظهورهم؛ يمشون مطمئنين؛ فمَن قد يهاجم الشِّبلي الذي أتى بنفسه ليخلِّصهم؟

يقول عمالي: إنهم خائفون.. يقولون لي: إن حفر الخندق مستحيل الآن وقد رحل أغلب الرجال. يقولون: إن حمَّاد سيحمي الجميع، ولو اتضح أنه الشرير في هذه الرواية، سيهجرونه.

أقول لهم:

- ستهجرونه؟ هل سيترك أحد يخرج؟

- ولماذا سيتمسَّك بأفواه أخرى يطعمها؟

- لن يترك أحد يخرج وقد عرف ما يحدث داخل المحطة. لن تختفي الحكومة الشرعية للأبد مهما تغيَّرت الأحوال ومهما طال الوقت.

- تتكلم مثل شيخ البشارية يا باشمهندس.

- بل أتكلَّم بالعقل! هذا الرجل لن يقف أمام دولة كاملة! أنتم تنظرون إلى ما تحت أرجلكم! إن كان هذا المكان جهنَّم فجنَّة حمَّاد هي الدَّرْك الأسفَل! كيف ستعيشون وسط وحوش مدببة الأسنان، مدهونة بالروث والطين؟

- اتضح أن شيخك نوَّار وحش، وشيخ الجامع هذا سيتحوَّل مثله!

يدافع محمود عن نفسه وعن نوَّار:

- لسنا سواء! إن كُتِب على الناس جميعًا أن يتحوَّلوا إلى مفترسات، فلَمْ يحرمنا الوباء من عقولنا! لا أدَّعي أنني لا أشتهي اللحم النِّيئ.. بل أعترف أنني أُكلت يمامة نيئة كي لا آكل بشريًّا! سنأكل بعضنا أيها الناس؛ لأننا سنعجز عن الوقوف أمام حيوانات نأكلها!

يردد شخص ما؛ لم يعد للأسماء والكينونات أهمية:

- أحيِني اليوم وأمِتني غدًا!

ويرحل، ويرحلون واحدًا تلو الآخر، يَلحقون بالفرصة الأخيرة للهجرة إلى المحطة المباركة وسط جماعة آمِنة. أقف أنا ومحمود وأربعة صيادين وحواوشي؛ ننظر إلى

الضباب وهو يبتلع آخر الرجال.

***

مَشي أمرك يا قَدَر

ميكيل...

الممر بين الفصول طويل كطريقنا إلى النجاة، موحش مثله، لا يضيئه سوى مصباح جاز قديم، وكشاف يعمل بالبطاريات.

الليل هنا ممتد، ليل السماء، وليل العواصف والضباب، وليالٍ أخرى أشد حلكة.

أقف وطه في نهاية الممر عند مكتب المدير والدرج المتجه للسطح، وتستند صوفيَّة إلى جدار الفصل النسائي، تَلَوَّث الحائط وراءها بالدم الذي تصرُّ على غمس يديها فيه ثم التأمل في أصابعها كأنها تقرأ الطالِع. بالقرب منها نساء يحملن أطفالهن ويجلسن فوق متاعهن، مستعدات للرحيل في أي وقت.

على الصف المقابل رجال بأسلحة نارية وأخرى بيضاء، يمدون أياديهم من وقت لآخر لأبنائهم مداعبين.

عند أول الممر من جهة الدَّرَج الصاعد سارة وقد بدلت ملابسها واغتسلت فبدت كزهرة وسط طين، وسليمان المختال المتبختر الذي يرتدي شيئًا من ملابسي. لا بد أن رفيقته سرقت حقائبي من صوفيَّة ولا يمانعان في التباهي أمامي بهذا.

ماذا قالت لي صوفية عن الذين يختشون؟

خلف رفعت رجال آخرون، يرتدي كل واحد منهم شيئًا من ملابسي، ويحمل كل منهم غرضًا من أغراضي؛ كشافًا، قِربة ماء، نظارة مقرِّبة...

@ART_OF_BOOK

آه.. لقد مات الذين يختشون.

يقول سليمان بنبرته الاستعراضية التي صدَّعت رأسي على مدار عامين:

- وها هم سيغادرون إلى دجَّال على ناقة بيضاء.. أنتم مَن تقولون هذا. ماذا تقولون أيضًا؟ إن من بناته عذراء حملت بلا زواج وقتلها أبوها؟

يقول رجل من الفريق في منتصف الممر:

- نقول ما نقول، ما شأنك بنا؟

- أنتم أحرار، ولست أنا مَن يقيد حرية اعتقاد غيره. أنا فقط أوضِّح الأمر لمن لم يتخذ قراره بعد.

ترد امرأة قرب صوفيَّة:

- سنرحل إليه؛ لأنها مثلنا، يفهم لغتنا ويعرف ألمنا. لقد ظل سنوات في الجبل، لم نسمع عنه ما يَشين، ولم يتدخَّل في صراع أو خلاف. رجالنا يثقون فيه، ولديه ما يحمي أبناءنا.

ويتكلم الجميع في وقت واحد...

«ليس لحمَّاد مصلحة في تحمُّل مسؤوليتنا».

«لقد هبَّ الرجل بنفسه لينتقم ممن قتلوا ذويه».

«هذه حكايات! كيف عرفتم ما حدث في أبي رماد؟!»

«هل معه هواتف تعمل بالأقمار الصناعية؟ سمعنا هذا!»

«لم يَرَ أحد شيئًا، وكلهم يحلمون بالهجَّان الذي سيمر على البيوت ويأخذ الصالحين».

«إنه سارق، ورجاله عصابة».

«هذا يفسر هواتف الثُّرَيَّا معهم! عصابة!»

يقوم رجل من المستعدين للرحيل، يضرب الأرض بعصا سميكة ليقطع اللغط ويقول:

- ليذهب كل منا إلى حيث يريد. انتهى الكلام. لا نريد بيننا عاصٍ ولا متشبث بذنبه. كلنا يؤمن بأن النجاة في الانعزال عن معيشتنا التي جلبت علينا الخراب.

يقول سليمان بعدما سمع في صبر لكل الجدال:

- لديك حق، لكن لي سؤال: عمَّ تتوبون؟ عن فقركم وجهلكم والظلم الذي تركتموه يقع عليكم وأنتم مستسلمون؟ ألا ترون أن هذه هي الفرصة لتعيشوا كما تريدون، لا كما يريد مُدَّعٍ آخر لا يريد إلا امتصاص دمكم؟

يُعرِض المؤمنون بحمَّاد عن الرد، ويتشاغلون فيما « لا يفعلون»، فيكمل سليمان:

- حسنًا.. هَبْ أنني أريد الذهاب معكم.. أنا وهذه الفتاة اللطيفة. نحن غريبان، لكننا نرغب في التوبة. هل ستقبلون؟

ويترك سليمان الإجابة لنظراتهم، خاصة تلك التي سلخوا بها سارة بملابسها المتحررة

نظافتها، مع ذلك ردَّت امرأة بلا اقتناع:

- حمَّاد سيقبل الجميع.

يبتسم سليمان ويهز رأسه كأنه حصل على الإجابة التي ينشدها، وينظر إلى صوفيَّة ويسألها:

- وأنت يا صوفيا؟ هل تكفي طرحتك التي تغطي بها جسدك كأنه فضيحة لقبولك معهم؟ ربما يقبل حمَّاد بك، لكن ماذا عنهم؟ هذا الدم غير كافٍ ليخطئونكِ على أنك منهم.

تقول امرأة لازمت صوفيَّة منذ صعدت:

- سنقبلها. إنها مثلنا..

ولا يشاركها أحد رأيها. ينظر سليمان لي ويمشي تجاهي ببطء. يقترب وأرى طرف صندله الملطخ بالدم؛ دم النورس أم دمه أم دم نوارة؟ قميصي لا ينغلق على بطنه الكبير، والذي لم يفقد منه شيئًا رغم قلة الطعام. يقول لي:

- وأنتَ يا ميكيل؟ تقول سارة: إنك أنقذتني.. شكرًا لك. أين ستذهب؟

- ماذا تقترح عليَّ؟

- أقترح أن تبقى معنا. نحن نعرفك جيدًا.. أنا وصوفيا وسارة.. سارة غاضبة قليلًا بسبب ما حدث لرامي، لكنها أعقل من أن تحكم عليك سماعًا.

- وكيف ستختار جماعتنا؟ على أي أساس؟

- هذا سؤال يؤكّد ظني فيك. أنت متعلّم يا ميكيل، إنجليزيتك معقولة، تفكيرك منظم، لم أرَ فيك أيَّ تعالٍ أو عنصرية. هذا هو معيار اختيار مجموعتنا. الرجال معنا متعلمون... إلى الحد الذي سمحت به الظروف. يرغبون في المكوث هنا وتغيير كل ما كان يعكر معيشتهم. مخزون الطعام معنا، نوزعه بين الجميع بلا تفرقة حتى يرحل من يريد الرحيل. سننظم أنفسنا وسنصنع مجتمعًا نحكم فيه جميعًا، كل فيما يبرع فيه.

يسأل طه أخيرًا السؤال الأهم:

- ماذا عن المصابين بعضَّات الحيوانات؟ مَن نجا منهم لا يأكل ومع ذلك لا يضعف ولا يُبدي شهيَّة للطعام.

يرمش سليمان، ويتبادل الجميع النظرات، فيما يكمل طه:

- ماذا عمَّن لم يصابوا وهم الآن يرفضون الطعام، ويلجؤون إلى التهام الجيف في الشوارع؟

تشهق النساء، ويغمغم الرجال، فيرفع سليمان يديه مهدئًا ويهتف:

- صبرًا.. ماذا تقول يا أستاذ طه؟ من أين لك بهذا الكلام؟

يدخل طه إلى الفصل لحظة، ثم يخرج وهو يضع كفيه على كتفي طفل في الثامنة ويقوده إلينا. لا يبدو أن الفتى قلِق أو خائف.

- إحكِ لنا يا بني ما رأيتك تفعله منذ قليل.

- تسللت من فوق السور كما كنا نفعل أيام الدراسة، وأُكلت من الحمار الميت أمام المدرسة. كنت جائعًا.

- لماذا لم تأكل معنا؟

- لا أريد هذا الطعام.

أقول أنا قبل عثور سليمان على تفسير يُتحفنا به:

- الأمر الواقع هو أن هذا الوباء يصيب الجميع؛ قطعانًا، بشرًا، كلابًا.. مصابين أو غير مصابين.. فعلى أي أساس ستقبل جماعتك؟ هل سنخرج جميعًا تحت قيادتك لالتهام الجيف أم ستُغِير على قبائل أخرى ونفترس ضعفاءهم.. أم.. أم الأفضل لو أخرجنا الجثث من القبور وأكلناها؟ لا يُضِير الشاةَ سلخُها بعد ذبحها كما تعرف.

يكمل طه:

- إن بيننا مَن يأكل أطفالنا كما حدث في الحمَّام.. بيننا من ينبش قبور المدفونين هنا ويأكل منهم... كما أن بيننا مصابين، يختارون أكل الحيوانات الميتة مع أن الوصول إليها أصعب.. لكنهم اختاروا.. هذا الطفل اختار، وقد كان الموكَّل بمرافقة الأصغر منه إلى الحمَّامات طوال اليوم.

يقول سليمان أخيرًا:

- شكرًا للتوضيح.. إذًا الوباء سيحل بنا جميعًا، وفي هذا نحن سواء مرة أخرى. مَن سيظل معي سيصطاد الحيوانات المصابة ويأكل منها. لن نأكل الجيف طبعًا.. سنختار

ART_OF_BOOK

الأفضل حتى يجدوا علاجًا دوائيًا للـ..

أقاطعه:

- لماذا لم تختر يا سليمان؟

وأُخرِج هاتف رفعت وأَعرِض صورة أثر صندله إلى جوار قبر نوَّارة إلى الأقرب فالأقرب. يقوم واحد من أتباع حمَّاد، يحاول عرقله سليمان ليتأكَّد من شكل النعل؛ فيضربه سليمان على ظهره، ويحاول الفرار إلى جماعته الذين قاموا ليحموه خلفهم. يصيح سليمان:

- هذا ما كنت أخشى علينا منه! هذا الرجل الذي منحته فرصة أخرى مهرَّب عتيد، ويشعر بدونيَّة غريبة دفعَتْه لتلفيق هذه التهمة لي! أنا مصاب.. نعم، وقد أخبرتكم أن إصابتي كادت تقتلني. نعم.. لا آكل الطعام، وأقتات على النوارس الميتة على سطح المدرسة. لنتصارح جميعًا، ولا نحكم على أحد. إن أوَّل قوانين العيش على الأرض هي: مَن يأكل يَعِشْ.. مَن منكم مصاب ويأكل الجيف، ومَن يشتهي البشر؟ من الذي قتل الأطفال في الحمَّام؟

تنظر لي صوفيَّة، فأقول لها:

- أنتِ شاهدة يا صوفية.. فكيف لي بتدبير شيء كهذا؟ لقد كان الأثر هناك أمام عينيكِ، ورأيتِ جثة نوَّارة منهوشة، ولا أثر على الأرض سوى أثر صندل هذا الرجل. أخبريه أنه نَصَبَ عليكم! أخبريه أنه مَنِ التهمَ ساقَيْ أبي أحمد!

@ART_OF_BOOK

لا تجيب صوفيَّة، وتتربع على الأرض وهي تنظر إلى يديها؛ الجَبَانة! يقول طه:

- أنا أصدق ميكيل.. أنتم تعرفونني يا أهل مرسى حميرة وتربيت بينكم وربيت أبناءكم. هذا الرجل صادق وكان معي أغلب الوقت. على أي حال، الأطفال في عهدتي ومسؤوليتي، ولن أنضم إلى هذا الوحش المخادع، ولن أمشي وراء حكايات أسطورية أو رجل يسرق أقواتنا. أنا راحل معهم..

تسأل امرأة بائسة وهي تجر طفليها نحونا:

- إلى أين؟

- الناس على النيل يلجؤون إلى الجزر المتناثرة فيه؛ حيث لا تصل الحيوانات المصابة. سنذهب إلى أي جزيرة في البحر، ولن أترك هؤلاء الأطفال يأكلون بشرًا.. ولن أترك المرض يلتهم نفوسهم الطيبة. سأصاب مثلهم إما عاجلًا وإما آجِلًا، وسنتصرَّف على أساس أننا بشر وسنظل بشرًا.

يدخل طه ليجلب الأطفال والمرأتين اللتين قررتا الانضمام إلينا، وأمشي أنا إلى صوفيَّة، أجُرُّها بعنف رغمًا عني إلى داخل الفصل وأقول من بين أسناني:

- لماذا لم تشهدي؟

- خ... خِفت يا ميكيل! ماذا لو اضطررنا للعودة إلى هنا؟ ماذا لو اضطررنا لطلب المساعدة من سليمان؟

- أفضل الموت على هذا. إذًا سنفترق..

@ART_OF_BOOK

- انتظر..

وتُخرج من حقيبة صغيرة تحت عباءتها الفضفاضة مسدسًا؛ مسدس رفعت.

- أنتَ أولى به.

آخذه، وأدسه في الحزام تحت قميصي، وأخرج لأجد الأطفال يضعون أيديهم على أكتاف بعضهم في صفٍ. أمشي أنا وطه، ويتبعوننا، والمشرفتان في آخر الصف تحرصان على هدوئهم.

أسفل الدرج، نجد المرأة صديقة صوفيَّة مُنكبَّة على قبر زوجها الذي فارق الحياة. يقول لها طه:

- إلى أين ستذهبين بأولادك؟

- إلى حمَّاد.. كان أبو عمَّار سيعطيه ما يأخذونه من المعكسر، والآن مات.. هل سيقبلونني؟

لا أعرض عليها المجيء معنا؛ نحن لا نعرف إن كنا سننجح في الإبحار أو سنصل أصلًا إلى مقصدنا، بالإضافة إلى أننا لا نحتاج إلى حمولة إضافية.. إلى أرواح أخرى تُعَلَّق في رقبتي.

يقول لي طه: إنه يعرف بيت أبي عمَّار، وأنا أعرف من صوفيَّة مكان بطارية السيارة وإطارها. نخرج ولم يعد أحد يعترض المرور؛ أصيب من أصيب بالحمى، وفرَّ مَن فر، ومات من مات.

أقصد مكان الديزل الذي دفنته، ثم أعود إلى قافلتي الصغيرة، ونمشي في ضوء المِشعل إلى بيت أبي عمَّار.

***

يتكوَّم الصغار إلى جواري في المقعد الأمامي، ويركب طه والمرأتان في صندوق الشاحنة. يبدو أن رجال عمَّار فوجئوا بأن السيارة بلا فائدة، فتركوها وأخذوا الماء، وأشكرُ ربَّنا على أنهم تركوا الشبكة الملفوفة حول الشاحنة ولفَّة السِّلك في الخلف.

أعرِّج على المعسكر، وأترجَّل لأرى ما حلَّ به. لم يجِب أحد ندائي... هيَّأت المسدس للإطلاق، ودخلت. لقد أخذ رجال حمَّاد كل شيء حرفيًّا، حتى الأريكة التي كان الهَرِم يجلس فوقها، وتركوه ملقى في الركن. باب غرفة رفعت مفتوح، وهو ليس بالداخل، لكن رامي هناك مقتول بإصابات كإصابات السائق أبي أحمد، ولا داعي لفحص البقيَّة... أعود للشاحنة ولا أتكلَّم، أتجه جنوبًا بما تبقى في السيارة من وقود، إلى المكان الذي لم أتمنَّ العودة إليه قَط.

يا بئس حظ اثنين: (عيَّان).. يضاجع ميتة!

صوفيَّة...

يرحل ميكيل كما يرحل المُعَزُّون عن قبر. يحمدون الله أنهم ليسوا الميت هذه المرَّة، وإن كانت الجنازة حارَّة والميت كلب..

لا يهم.

تبدو أصابعي أجمل حمراء من غير سوء. دم إدريس يليق بي، يزينني، يذكِّرني. حمراء كأعلام الغواني، حمراء كجهنم.

سليمان يجمع جماعته ويدخل الفصل الذي احتلَّه بعدما عرض عليَّ رفقته فلم أُجِب. قالت سارة: إنني درويشة حمَّاد؛ مجذوبته. تراني رفيقاتي من الأهالي كذلك.. الفاسقة التي هداها النهش، البرهان الذي يؤكِّد أنهن مُحِقات في تصديق الشِّبلي، فكيف يكذبونه وقد آمنت به الغريبة؛ المصراوية المثقفة.

هكذا لم يعد في المدرسة سوى الذين يختشون، والداعرون. إذًا أنا من الفئة الأولى؟ صَح؟

أرسم على الأرض خطًّا بالدم..

ART_OF_BOOK

وأكتب:

وهويت من بَعْدُ القَصَص.

وكتبت آلافًا بأبطال كأدهَم ..

لكنهم لا يُقتلون مع النهاية،

كالعادة الشمطاء في كل القَصَص!

وأرسم خطًّا آخر..

أطول هذه المرَّة، وأقوم أتبَع الحاجِّين إلى بيت حمَّاد الشبلي. ماذا لديَّ من خيار؟ أسألهم إن كان في وسعي أخذ نوَّارة معي، فيتغامزون ويتلامزون.. ينهشون..

يركبون شاحنات لا أعرف من أين جاءت. ضوء الشروق يلمع منعكسًا على قطرات الندى الكثيف على أبدانها. تبتل يدي فتنزف وتلطخ السيارة، تدفعني راكبة وتهتف:

- إلى أين؟ لا يمكن أن تأتي معنا؟

فتدفعني أم فاطمة؛ مُناصِرتي وتحثني على الركوب أنا وحَسَنة وأبناءنا، فنركب. نتكوَّم في صندوق الشاحنة، ويجلس على جوانبها المعدنية الرجال المسلحون، ويغطوننا بالجلود والأبسطة..

الطريق وعرة، أتمايل وأرتطم بالأخريات، أحاذر لمس سيقان الرجال حولنا. أجذب

@ART_OF_BOOK

طرحتي لتغطي صدري وبطني. لا نأكل.. لم يعد أحد يأكل.. لم آكل منذ أيام، منذ ماتت نوَّارة، بل من قبلها.. لم ألاحظ هذا إلا وقت صرَّح طه بحتمية إصابة الجميع.

لكني لا أشتهى اللحوم أحياءً وأمواتًا..

لحسن حظي أنني لا أرى ما حولي، فالأغطية تحجب عنا النور، لكني أشم الدم، وأسمع أنينًا منخفضًا.

تمر ساعات، خَدَر ساقَيَّ تحوَّل إلى ألم رهيب. بعد الخمسين يتحوَّل كل ألم إلى عذاب.

أخيرًا نتوقَّف، ويسكت المحرِّك، فأسمع الخُوار والهمهمة وضربات الحوافر على الرمال. ينزل الرجال ويرفعون الغطاء عنا، فتُعميني أشعة الشمس. أغمض عينَيَّ وأنتظر نزول مَن حولي كي أستطيع فرد ساقَيَّ، ثم أفردهما وأفتح عينَيَّ وأطل من فوق حافة صندوق السيارة إلى ما لم أتوقَّع رؤيته.

هذه جنَّة لا يمكن أن تكون هنا. جبال يتوجها الضباب، مساحات خضراء على مد البصر، حيوانات لا أعرف لها مسمى، أشجار غريبة ذات قمم مسطحة. كل شيء ملون، كل شيء مفاجئ.

لا يبدي الأغلبية اندهاشًا مثلي، وأنا مدهوشة.. مشدوهة..

تقول لي أم فاطمة وهي تغطيني بغطاء جلدي:

- حاذري الطيور. سنمشي من هنا حتى المحطة.

أنظر إلى حيث تشير فأرى مبنى حكوميًّا بعيدًا محاطًا بأسوار. كلما اقتربنا، كلما أبصرت تفاصيلَ أكثر. حول الجدران ماشية وجِمال مربوطة إليه، ملوثة الصدور والرؤوس بالدم الجاف، ولا يصل أي حيوان منها إلى صاحبه. أعلى السور بُروزات يتدلى منها خطاطيف كتلك في متاجر الجِزارة، في نهاية كل خطاف مزدوج جثة بشرية مقلوبة، معلقة من عرقوبيها، منهوشة أو نصف منهوشة.

والرائحة.. الرائحة لا تطاق، رائحة لا توصف.. رائحة غير أرضية... أمسك يد أم حسَنة التي توقفت ومنعت أطفالها من التقدم. البعض يتوقَّف، والبعض يتراجع قليلًا، لكن لا يعود أحد.

يظهر من أعلى السور رجال يحملون جثَّة شيخ عارٍ، على جسده وحول عنقه أثار جَلد بالسياط، وظهره مدموغ بالنار، يحمل علامة لا أفهمها. يعلقون الجثة مقلوبة بالخطاطيف، ثم يقول واحد منهم شيئًا بصوت جهوري، فتفسِّر لي حَسَنة:

- يقول: إن هذا قاتل ابنَيْ حمَّاد الشبلي في أبي رماد.

ويختفي الرجال خلف السور.

يصيح الناس: «**افتحوا لنا!**»

يتساءلون: «**أين رجال حمَّاد الذين جاؤوا بنا؟**»

تطير الطيور فوقنا، تقترب، يزعقون لتبتعد، يضربون الأرض ويلوحون ليثيروا ذعرهم.. فتُذعَر وتبتعد.

ولا يُفتح لنا.

***

نجلس تحت الأشجار المتفرقة، نتمدد على العشب الأخضر، نراقب الحيوانات البريَّة البعيدة، ويمر الوقت...

***

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

كان الناس يطلعوا للغابة يصيدوا يا فاطنه مع بعض

لإن اللي يروحها لوحده

كان يستفرد بيه الوحش.

ياسر...

لم يصطد الصيادون أمس..

ولا اليوم..

لا أظنهم سيصطادون، فلن يجوع أحد..

ثم من أين للمرء شهيَّة وقد وقفنا نراقب من اخترناه كبيرًا يُجلَد ويُذَل؟ من أين للمرء عين يرفعها في وجه أخيه؟ لقد وثق نوَّار فِيَّ، وكالعادة خذلته. لم يبق في القرية إلا سبعة، وثامنهم كلبي حواوشي. أنا وأربعة صيادين والأزهري ورجل الوحدة المحلية..

أنا ومنعم وعلي وحسانين وفهمي؛ ومحمود الأزهري وصادق.. اسم رجل الوحدة المحليَّة صادق، وقد عاد من آخر القرية يسعى ولم يتبعه أحد. الريح الصفراء تعصف؛ تحمل العقارب والحشرات والدم والصديد، ونحن في المسكن نرمق الظلام مع أننا في النهار، وننتظر...

أي شيء ننتظر؟ ننتظر أن يلتهم الواحد منا الآخر.. ننتظر من يعلن استسلامه أخيرًا. أسألهم:

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

- كم بقي معنا من وقود في خزانات المُعِدات؟

- وكيف لنا أن نعرف؟

- كم تبلغ المسافة من هنا إلى محطة البحوث؟

- لا تذهب.. تعقَّل.. لا بد أنهم قتلوه، ولا بد سنُقتَل لو ذهبنا نبغي انتقامًا.

كل حساباتي أكدت أن محصلةَ جمع واحد وواحد اثنان، لكن الواقع أن واحد وواحد يساوي أنا والصفر، وقد يساوي الملايين وحمَّاد ناقص سبعة وكلب، لكنه بالتأكيد لن يساوي أبدًا ما تعلَّمته، وما عشت به.

خططي كانت دقيقة، منطقية، لكن حمَّاد يبني العالم بالمقلوب، أساسات تناطح السحاب، وطوابق تحت بعضها البعض تغوص في الأرض كطبقات الجحيم.

الكلاب أذكى من البهائم، الكلاب التي تنبح في الخارج منذ ساعة أو يوم أو دهر تتسلق النوافذ المنخفضة، تخمش الدعائم، تحاول إزاحة الباب الحديدي. ثم ما جدوى الاحتماء؟

ما جدوى التخندُق إن لم يكن من شيء نحميه؟

أقول للقائلين السامعين:

- ماذا تريدون أن تفعلوا؟

- أنت القائد بعد الشيخ نوَّار، لقد وثق بك.

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

- بهيمة تقود بهائم!

أضحك، وأقوم أحرق المخططات الورقية في لهب مصباح الجاز الذي يكاد ينطفي، ثم أحمل حَربتي، وأزيح الباب. يتصايحون، يطالبونني بالتراجع..

يخرج حواوشي من بين ساقَيَّ يقف أمامي، وينبح..

أخرج، أزأر في الكلاب، أطعن وأركل وأفسِّخ الأوصال. تعضني الكلاب لكنها تخشى التمادي؛ مَن هذا الذي يواجه المسعورات بعصا مِكنسة وسِكين؟ عنصر المفاجأة ضروري في الحرب، وفي الاستسلام! كلاهما سواء..

يُعقر حواوشي ويعقِر، يتراجع ثم يهاجم مرة أخرى... لا ييأس حواوشي؛ مثابرته تكفي كلينا.. خسارة أن تتحول لرغيف حواوشي يسد جوعي يا صديقي؛ وإن لم يعد هذا عصر الحواوشي، بل شطائر الدم.

تفر الكلاب لدهشتي، ويخرج رفاقي متسلحين بما لا أراه، قد يتسلَّح بعضهم بشبكة صيد أو أوراق رسمية أو كتاب دين، أو مصباح جاز أو مخططات محترقة أو بقايا سمك متعفن.

يلعق حواوشي جراحي، فأتركه يفعل ما يشاء. أنا الحواوشي اليوم يا صاحبي، تعشَّى بي إن كنت تريد. لكنه جائع، ولا يريد شيئًا من لحمي.

يقول صادق؛ رجل الوحدة المحليَّة الذي تمزَّق قميصه المبهِج في صراع لا أتذكَّره:

- اِهدأ يا باشمهندس..

@ART_OF_BOOK

- ياسر..

- إهدأ يا ياسر يا أخي.. وحِّد الله. قلة الحيلة صعبة..

أهدِر في وجوههم:

- ألا ترون؟ لقد انتهى كل شيء؟ كل حساباتي تبخرت في الهواء.. 320 لتر ديزل كانت لتساعدنا في الحفر أكثر من 24 ساعة متواصلة.. خندق بعرض خمسة أمتار يعجز عن عبوره البشر والدواب، مِمَّ سيحمينا الآن؟ هه؟ من الكلاب؟! ماذا لو ركبنا اللودر إلى حمَّاد وأحرقنا عشرة رجال من رجاله بما تبقى من الوقود؟ اسمعوا.. ماذا لو أحرقنا حماد؟! سنتسلل كالكوماندوز، أنا بكرشي ومحمود بجِبَّتِه وقُفطانه، وصادق بقميصه الذي يُرى في الظلام، ونقتل حمَّاد في فراشه؟ ننهشه!

وأصك أسناني وأعض الهواء. يتبادل الرجال النظرات، ويضرب صياد كفًّا بكف، ويبتعد نحو البحر يتبعه زملاؤه.

أقول لمحمود وصادق:

- ارحلا.. اتبعا حمَّاد.. انهشا ما تجدان.. تحصنا في الوحدة المحليَّة.. اقفزا في البحر.. فقط لا تُرياني وجهيكما مرة أخرى..

ينظران لي وأنظر لهما دقائق طويلة، ثم يرحل صادق إلى عمق القرية..

- ارحل يا محمود...

- سأكون في الجوار يا ياسر.. حتى لو لم نتزاور، سأكون في الجوار.

@ART_OF_BOOK

ويرحل الشيخ، يرفرف قفطانه ممزق الأطراف وسط الريح.

أعود إلى المَسكَن، ويدخل حواوشي خلفي. لا أغلق الباب، فيدخل التراب ويُطفئ المصباح.. أجلس في الركن وينبطح حواوشي في الركن المقابل، يضع رأسه بين ساقيه الممدودتين وينظر لي.

أنا جائع.. وحواوشي آخِر ما أملك.. لو التهمته الآن سأنام نومًا هادئًا، لكنني أعرف أنني لن أترك منه شيئًا للغد. مَن قد يحمل همَّ الغدِ؟ هل في الجحيم من أيام؟

أنا جائع.. وهو أيضًا...

***

@ART_OF_BOOK

قُل بأن الناس قطعان بهائم ..

أو دُمَى عمياءُ ..

صوفيَّة...

تموت إناث الثدييات بعد سن اليأس، لكن إناث الحيتان تعمِّر. هل لأنها أسماك فرَّت من تصنيف ذوات الأثداء؟

يقال: إن الحيتان- وعلى رأسها الأوركا القاتلة- تعمِّر؛ لأن في مجتمعهن دُورًا للجَدَّات، فهن يحفظن خرائط الغذاء في موسم القحط، ويتدخلن في نزاعات القطيع، ووجودهن يزيد احتمال بقاء أبنائهن الذكور تحديدًا، لأن الذكور يبقون مع أمَّهاتهم طوال حياتهم، فيما تغادر الإناث للإنجاب في مجموعات أخرى.

لماذا لم يبقَ ابني معي؟

آه.. هل تحيض الحيتان؟ لماذا لا تجتمع القروش إذًا حول دم حَيضها وتنهشها؟ غريبة..

كم لبثنا في العراء؟ يومين أو ثلاثة.. في نهاية اليوم الثاني، فُتِح الباب مقدار رُبع متر، ونودي على أربعة منا فدخلوا، ثم أغلق مرة أخرى ولم يفتح أحدٌ مهما ضربنا على الحديد وصرخنا.

على أي أساس يختارون؟

@ART_OF_BOOK

لا توجد حيوانات ناهشة هنا، بل حيوانات بريَّة صيَّادة بطبعها، ولا يبدو أن سلوكها قد تغيَّر كثيرًا... حتى الآن.

هل تتحول المفترسات إلى سوبر مفترسات أم ستكتفي بأكل العشب بعد اختفاء فرائسها؟

أكتب على السور خلفي بالدم الذي سال بعدما عضضتُ إصبعي وأخفقت في التهامه:

يمكن تلقى الديابة لابسة فروة خروف..

يمكن تلقى الغلابة في أول الصفوف...

يسألني طفل دخلت أمه إلى ما وراء السور وتركته:

- أكملي الحكاية يا خالة صفيَّة..

- آه.. سأكمل.. وخلف هذا السور أيضًا مراعٍ خضراء، وفاكهة وشوكولاتة..

- ولحم؟

- لا.. لا يوجد لحم إلا المطهوّ؛ لأن بالداخل أيضًا مستشفى كبيرًا جدًّا، سيعالج الجميع وسنعود لأكل الطعام اللذيذ.

- لا أريد أن أعود لأكل الطعام العادي.

- هل تريد العودة إلى المدرسة؟ خلف السور مدرسة..

تقول حَسَنة:

- مدرسة كبيرة فيها بنات وأولاد، وفيها جامعة وفيها ملعب كبير..

تضيف أم فاطمة:

- وفيها بيوت كبيرة قوية، تفتح الصنبور فيها فينزل ماء لا ينتهي.

يضحك رجل قريب منا، ويكمل:

- وفيها عمل.. فيها مكاتب مكيفة، وكومبيوتر، وهواتف محمولة متصلة بالقمر الصناعي.. وفيها مواصلات.. أوتوبيسات مثل أوتوبيسات السائحين.

يسأل طفل آخر:

- وفيها حيوانات تصطادها؟

يجيب شاب هزيل:

- فيها حيوانات نرعاها.. ملكنا..

- أريد الصيد..

كنا كثيرين خارج السور، والآن صرنا أقل. مات أربعة، ونُهِش أربعة، وذهب خمسة ولم يعودوا.. كم المجموع؟ لا أعرف..

ينظر لي الأطفال نظرة غريبة، وينظر لي الكبار نظرة مشفقة.. أعي أنني الوحيدة التي تستند إلى البوابة، وكلهم ينظرون لي.

في ندوة من ندواتي المخزية، ندوة لم يحضر فيها إلا قارئ واحد عرفت فيما بعد أنه كان يزور المكتبة وأشفق عليَّ، فجلس يؤنسني. سألني يومها:

- في أي نوع أدبي تكتبين؟

- أدب الكوارث وما بعد المحرقة.

- لماذا اخترتِ هذا النوع؟

- هو اختارني.

- لكنه نوع غير محبوب، يذكِّر الناس بأمور لا يريدون تذكرها، بالإضافة إلى أنه يُعتبر من أدب البوب فيكشن؛ أدب شعبي لن يصل بك إلى مكانة أو جوائز.

ووعيت في هذا اليوم أنني لم أصل إلى شيء؛ لأنني انغمست في الكوارث، فقررت أن أرسم خطًّا أمام كل ما كتبت، وأن أبدأ من جديد. سأكتب أدبًا محبوبًا، أدبًا يوصلني إلى جائزة لا يعود بعدها أحد يصمِني بالضحالة والشعبية.

أقول للأطفال:

- ماذا عن قصة حب؟ أحكي لكم عن الشاطر حسن وسِت الحُسن؟

- يكفي حكايات لا يصدقها أحد.. نحن جوعى..

تقول حَسَنة:

- لقد دخل مَن أكلوا يا أختي..

أقول:

- لقد.. أكلت إصبعي.. انظري..

- لا يا أختي.. أنتِ لا تفهمين..

- تقولين.. تقولين: إنه لا مفر من أكل بعضنا؟!

يستنكر رجل:

- كيف ونحن هنا؛ لأننا أخيار؟ لم نأكل نصيبَ أحد، بل أكل الآخرون أنصبتنا طوال حياتنا؟!

يقوم الأطفال يركضون نحوي، يقولون: إن حكاياتي سخيفة؛ خيالية أكثر من اللازم؛ والجائع لا يريد الخيال. أصرخ..

تهتف حسنة وهي تندفع نحو الأطفال:

- صبرًا.. أنتم لا تفهمون..

أضرب على الباب، أنظر خلفي لأجد حَسَنة تُنهش، تصرخ بأننا لا نفهم.. أضرب على الباب وأركله، أستغيث..

إدريس محموم، وأبوه أغلق الباب علينا من الخارج وخرج. افتح يا زياد بالله.. افتح، ولن أُدخِل رجلًا غريبًا في غيابك..

أنا لم أُدخِل غريبًا في بيتك ولا في جسدي أم أنَّك نسيت؟! لسنوات آمنت أنني

فعلت، ونسيت.. لعلني فعلت ولم أنسَ؟ المهم.. افتح.. إدريس سيموت..

لو فتح رجال حمَّاد البوابة لحظة واحدة لرأوا يدَيَّ ملطختيّن بالدم! هذا شرفي فافتحوا!

وأسقط إلى الخلف، ويجثم رجل فوقي، يبكي، يقول: إنه لا مفر كي ندخل جميعًا.. يقول: إنه لن يؤذيني، فقط سينهش قطعة صغيرة، هكذا..

تلتقي عيناي وعينا حسَنة ونحن منطرحتان أرضًا.. تهمس:

- لقد.. لقد دخل مَن.. مَن أُكل.. الـ..

وتغمض عينيها، ويختفي وجهها حول الأجساد المتكالِبة عليها. مَن دخل؟ وأي شيء أُكل يا صاحبتي؟

لماذا لم يعد النهش يؤلمني؟

لماذا كان الكُنيت غاضبًا؟ وهل الموت يُغضب؟

نوارة.. إدريس.. لو عدتما لتحكيا لي؛ فأنا هنا، عند الأعرافِ..

أنتظر..

***

@ART_OF_BOOK

يا طير...

ميكيل...

كان هذا القارب تحتنا؛ قارب تهريب، خبَّأته بنفسي جنوب أبي رماد بعد آخر رحلة فررت بها من عبوديتي. كان معي مهربان آخران، لا أعرف عنهما شيئًا بعدما افترقنا.

يعرف رفعت بأمر هذا القارب، لا أعرف كيف عرف، لكنه يعرف الكثير عن المهربين، ويعرف مهربين وهاربين كثيرين.

مررنا في رحلتنا إلى القارب بقرية أبي رماد، وتوقفنا؛ إذ لمحتُ مشروعًا سكنيًّا على البحر، ومُعِدَّات حفر ونقل. قلت لطه:

- قد يكون فيها ديزل. سنحتاج لكل قطرة.

- ألم نجمع ما يكفي من السيارات المهجورة التي صادفناها على الطريق؟

- كل قطرة ستنفعنا. قارب التهريب يعمل بالديزل، ورحلة العودة ستحتاج إلى وقود.

يسألني طه:

- العودة؟

- مَن يعرف ما قد يحدث غدًا؟

ترجَّلنا ومشينا بين المساكن. معي مسدس وخنجر، ومع طه مِشعل وسِكين. لقد

صادفنا مصابين مختبئين في البيوت والسيارات، ولم نسعد كثيرًا بقتلهم..

لحسن حظنا لم يكن في المساكن أحد. عبَّأنا الوقود في الجراكن، وعدنا إلى الشاحنة؛ حيث الأطفال نائمون بين المشرفتين في صندوق السيارة، بعد التهام وجباتهم المسموح بها؛ سمك نيِّئ.

لم يعمل القارب كما توقَّعت، واضطررنا للعودة إلى المساكن لنخبئ الأطفال والمشرفتين في مكان آمِن، فيما نصلح أنا وطه القارب. احتجنا إلى عشرة أيام أخرى، نجونا فيها من هجوم قطيع صغير واحد.

لقد هلك الناهشون؛ بشر وحيوانات.

إن ما يجري عكس التيار، لا بد للتيار من تدميره. هذا ما تعلَّمته من البحر...

في أول يوم من إقامتنا في المساكن، سمعنا مؤذنًا عذبَ الصوت، يؤذِّن ثم يختنق صوته بالبكاء في آخر عبارة. ذهبت أنا وطه تجاه الصوت العالي الذي لا بد أنه قادم من أعلى مئذنة. وجدنا هناك رجلًا من الأهالي، يرتدي جلبابًا أبيض وصديري بُنيًّا. رآنا فأجفل وتراجع خطوات إلى المحراب. قال له طه:

- السلام عليكم.. نحن لا نأكل البشر ولا الحيوانات المسعورة.

صلى طه معه، ثم جلسنا يحكي لنا عن سر الأذان في قرية مهجورة.

- بالقرب من هنا رجل وكلبه، رأيته يومًا يصلي وحده، فقلت أرافقه بصوت الأذان مع كل وقت.. نؤنس بعضنا. ياسر وكلبه لا يأكلان الجيف ولا المسعورات ولا البشر.

ART_OF_BOOK

اسمه ياسر.. اذكرونا بالخير فضلًا ولا تنسونا من الدعاء.

لم نَرَ ياسر، وإن لمحنا شخصًا آخر يصطاد، يرتدي قميصًا ملونًا. ناديناه ففر ولم يَعُد.

وها قد أتممنا إصلاح القارب، وركب الأطفال وقد فارقَنَا ثلاثة منهم؛ أصيب واحد بالطاعون فعزلناه حتى رحل، ولم تتحمل معدة اثنين منهما الطعام النَّيِّئ.

حفرنا ودفنا الرفاق الصغار، وركبنا القارب، وغطيناه بقبَّة من السلك الذي وجدناه في الشاحنة، وفككنا الشبكة من حولها لنصطاد بها لاحقًا.

واتجهنا إلى الجنوب، إلى جزيرة قرب الحدود...

الضباب يغلف رؤيتي لما أمامي، لكنني أعرف أن الجزيرة قريبة. أشعر بها..

أكره الضباب؛ لأنه يُعميني، إلا أنه كان ستاري وقت تهريب البشر والأحلام والأكاذيب. لا أحتاج إلى ستارٍ الآن على أي حال..

وقريبًا ستبدد الشمس الضباب، لذا أُوقف القارب وأنتظر.

يطلب صغيرٌ من مُشرفته سماعَ حكاية عم ياسر وكلبه مرة أخرى، فتحكي.. في كل مرة تحكي حكاية مختلفة بطلها عم ياسر وكلبه، وكلها حكايات لا يملُّها الصغار. لا يسألون إن كانت حقيقية، فحصان الخيال بلا سرج... هكذا كتبت صوفيَّة يومًا على الرمال قرب البحر، ثم أضافت: دِرِجِن، دِرِجِن..

أعطي طه المسدس، فيسألني بعينيه عن السبب. أهمس له بالإجابة وأضيف:

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

- الجزيرة قريبة وستراها مع انقشاع الضباب.. أنت قادر على الحفاظ عليهم، فقد رأيت النهاشين يرتدون البذلات ويرتادون المقاهي، ورأيت منهم مَن لا يقطر الدم على ملابسه. أنتم قادرون على حمايتهم من دوني.

وأزيح ناحية من السلك، وأقفز إلى المياه. أغوص ثم أخرج رأسي، ألوح للصغار.

- إلى أين يا عم أبا ميكيل؟!

- إلى بيتي!

يسأل الأطفال مرة أخرى، وآخر ما أسمع وأنا أسبَح إلى الجنوب صوت مشرفة تجيبهم:

- أتعرفون؟ عم أبو ميكيل كُنيت في الأصل، وسيعود إلى السماء.

***

@ART_OF_BOOK

5

حمَّاد الشبلي

من فوق السور أراهم، بهائم بَعد..

أنعام لا يفقهون.

يغسلون أجسادهم من الروث، يستبشعون الدم.

يخشون البريَّات حولهم، يتحيَّنون نوم بعضهم البعض ليتلتهموه، وما كان لمن يأكل أخيه أن يدخل بين أهل الشبلي.. لقد أكلني أهلي من قبل، وألقوني لأموت، فعِشت.

لو يعرفون أن خلف الأسوار أبنائي، أهلي، لا يأكلون بعضهم ولا يظلمون بعضهم. لو يعرفون أننا في عدد رمال الصحراء وأشجار السهول.

لو يعرفون، لما أتوا.. لو يعرفون أنهم بعد بشر.. لما أتوا..

لا يدخل قبيلتي من ينهش أخيه.

لا يدخل قبيلتي مَن يجبره الجوع على النهش.

لا يدخل قبيلتي مَن ينهش أهلي.

لا يدخل إلا مَن يعرف مَن الشبلية ومَن الأغيار، وهذا ما لا يعلمه لنا أحد.

موتوا.. اصرخوا.. تمَنوّا.. احلموا..

@ART_OF_BOOK

لا يدخل قبيلتي إلا مَن كان مني قبل وقوع البلايا، ومَن يدخل اليوم زاحفًا خاضعًا آمِلًا، سيكون وليمتنا.

هات هؤلاء الأربعة.. اترك هذه قليلًا..

خررررر... خررررر..

اعلف هذان، واذبَح هذا..

مممممماه...

مغغغاه

@ART_OF_BOOK

قل بأنَّ العقل محدود وقاصر،

وبأنَّ الشر في العالم خالد،

وبأن الخير شرٌّ .. وبأن الشر خيرٌ،

واقْلِبِ الأبيضَ أسود ..

واجعل الأسودَ يزدادُ سوادًا .. أنت حر!

قل بحرب الكل ضد الكل .. حارِب .. أنت حر!

قُل بأنَّ الناس قطعانُ بهائم ..

أو دُمًى عمياءُ .. قل إن الحياة ..

شبهُ كابوس رهيب،

وكما شئت تشاءم .. أنت حر !

أنا أيضاً أتصور ..

ما أريد ..

أنا ح !

نجيب سرور

***

النهاية

شيرين هنائي- 2025

@ART_OF_BOOK